المعهد الملكي للدراسات الدينية

القدس

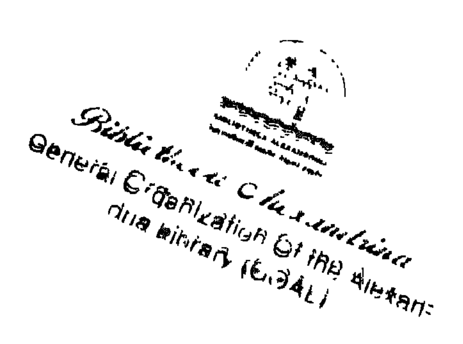
في زمن الفاطميين والفرنجة

مصطفى الحياري

المعهد الملكي للدراسات الدينية

القدس

في زمن الفاطميين والفرنجة



مصطفى الحياري




القدس
في زمن الفاطميين والفرنجة

صورة الغـلاف : خريطة فـرنجية لمدينة القـدس وجوارها رسمـت خلال القرن الميـلادي الثاني عشر. وتظهر المدينة المقدّسة في هذه الخريطة على شكل دائرة، رمزا إلى كمال مكانتها في العالم. وجهة الشمال من المدينة إلى فوق وحولها رسومات لحجّاج قادمون من الغرب، كل يحمل عصاه، ومتاعه على ظهره.

تكريماً لذكرى المناضل المقدسي المغفور له

روحي الخطيب

أمين القدس

(١٩١٤ - ١٩٩٤)

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(١٢٣٧/ ١١/ ١٩٩٤)

رقم التصنيف : ٩٥٦,٤١١
المؤلف ومن هو حكمه : مصطفى الحياري
عنوان المصنف : مدينة القدس في عصر الفاطميين والفرنجة
روؤس الموضوعات : ١ - فلسطين - تاريخ
٢ - القدس - تاريخ - عصر الفاطميين
رقم الايداع : (١٢٣٧/ ١١/ ١٩٩٤)
الملاحظات : مكان النشر : عمان
الناشر : مكتبة عمان
★ تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ساهم بنك الانماء الصناعي في اصدار هذا الكتاب تكريما لذكرى الرئيس السابق لمجلس ادارته.

بنك الانماء الصناعي، مؤسسة اقراض متخصصة منشأة بقانون، تأسس في عمان عام ١٩٦٥.

الادارة العامة : عمان، ص.ب. ١٩٨٢، تلفون : ٦٤٢٢١٦ (٠٠٩٦٢٦)، فاكس : ٦٤٧٨٢١ (٠٠٩٦٢٦).

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

في بداية كتابه **الأعمال** يتحدث المؤرخ اللاتيني المشهور وليم الصوري عن العلاقة الطيبة بين الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان، وكيف انعكست هذه العلاقة على الحياة في مدينة القدس والتي كانت نتيجة الإتفاق الذي عُقد بينهما، وأن الشروط التي اتفق عليها: « . . . كانت مصدر راحة للمؤمنين (المسيحيين)، بحيث بدوا وكأنهم يعيشون في ظل حكم الإمبراطور شارل وليس تحت حكم هارون [الرشيد] » .

ومهما كانت صحّة هذه العبارة التي كتبت في أواخر القرن الثاني عشر، فإن ما قاله عن المدينة في بقيّة الفترات يُعَبر بصورة أدق عن أحوال المدينة المقدسة :

«وهكذا فإن أسياد المدينة المقَدّسة . . . كانوا يتغيرون مراراً نتيجة تحولات الأحداث وتطورها . وقد مَرّ عليها فترات مشرقة أو غائمة حسب شخصيّة الأمراء الذين حكموها . وكانت أحوالها كأحوال الرجل المريض الذي تتحسن صحته أو تسوء حسب تصرفات الزمان، لكن الشفاء الكامل كان مستحيلا . . . » .

تحاول هذه الدراسة تتبع التطورات العامة في مدينة القدس خلال قرنين من الزمان شهدت خلالها تحولات جذريّة أحياناً في عمرانها وتَغَيّر سكانها (كلياً أحياناً) ومؤسساتها وأسلوب حياة الناس واحتفالاتهم وأعيادهم، في أوقات الأمن والاستقرار وفي أوقات الحرب والحصار والاضطراب والخراب والجلاء عن البلاد .

وتبدأ الدراسة من مطلع القرن الحادي عشر باجراءات الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله المشهورة وتنتهي بخراب المدينة ورحيل معظم أهلها ومن يسكنها عنها في اواخر الفترة الأيوبية؛ تبدأ بمدينة عامرة كثيرة السكان، وتنتهي في وقت صار اسم «القرية» كثيراً عليها. أما ما بين البداية والنهاية فقصّة المدينة، بكل تحولاتها وتقلباتها العامة، التي ترويها هذه الدراسة.

وبعد، فانني أرجو أن أكون قد وفقت في تقديم صورة واضحة المعالم، على الأقل في خطوطها الآساسية، تمكن القارىء من تكوين فكرة كأقرب ما تكون إلى ما كانت عليه المدينة المقدسة والغالية في ذلك الوقت. أمّا الخطأ في فهم النصوص والحكم على الأحداث والسهو عن بعضها أو عدم تيسر الوصول إلى معلوماتها فمسؤوليتي وحدي.

وفي الختام، يسعدني أن أتقدّم بجزيل الشكر وجميل العرفان إلى علاء الرشق وحسن البطوش ورياض ابو وندي وبكر الحياري، من أسرة المعهد الملكي للدراسات الدينية، على نشر هذا الكتاب ضمن منشوراته.

والله ولي التوفيق

الجامعة الأردنية، عمان ١٩٩٤   مصطفى الحياري

مدينة القدس في زمن الفاطميين والفرنجة

١ — القدس والاتراك السلاجقة :

في سنة ٤٨٦ للهجرة / ١٠٩٣م، أي بعد فترة نصف قرن من زيارة ناصر خسرو، الرّحالة الفارسي الاسماعيلي والدّاعي الفاطمي النَّشِيط، لمدينة القدس (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، وقبل ست سنوات فقط من سيطرة الفرنجة على المدينة المقدسة إثْرَ حملتهم الأولى المشهورة على العالم الإسلامي، قام شاب أندلسي يطلب العلم، في السابعة عشرة من عمره، بزيارة المدينة. كان هذا الشَاب المتوقِّد الذّكاء والحماس في طلب العلم هو أبو بكر إبن العربي (٤٦٨ هـ - ٥٤٣ هـ/ ١٠٧٥ — ١١٤٦م) الذي صار بَعْدُ من أعلام الفكر الأَندلسي خاصة في الفقه والتفسير[1].

كان وصول إبن العربي إلى القدس الشريف محّطة في طريقه هو ووالده إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ. ومنذ خروج الأب والإبن من الأَندلس وحتى وصولهما إلى القدس لم يتوقفا طويلاً في المراكز التي مَرّا بها إذ لم يجدا فيها من النشاط العلمي والفكري ما يدفعهما إلى ذلك. أما مدينة القدس فقد كانت في الوقت الذي وصلا فيه اليها تشهد إحياءً فكرياً ونشاطاً ثقافياً لم تعرف مثله طوال فترة القرن ونصف القرن السابقة. وكان هذا النَّشاط من التَنوّع والإثارة إلى الدرجة التي دفعت الشاب المتنقل باستمرار إلى الإقامة فيها وفي

---

(١) أنظر ترجمته في **وفيات الأعيان**. تحقيق احسان عباس. بيروت، دار صادر، ١٩٧١. ج٤ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ ومصادر ترجمته في الحاشية ؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**. تحقيق شعيب الأرناؤط. بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥. ج ٢٠، ص ١٩٧ — ٢٠٤، ومصادر الترجمة في الحاشية ص ١٩٧.

فلسطين مدة طويلة نسبياً لمتابعة دراساته واهتماماته العلميّة[٢].

وكان قد استقر في القدس في العقد التاسع من القرن الخامس الهجري (العقد العاشر من القرن الحادي عشر الميلادي) عددٌ من أعلام الفقه من أصحاب المذهب الشافعي والمذهب الحنفي الذين وفدوا إلى المدينة بعد سيطرة الأتراك السلاجقة والتركمان عليها، وعلى المناطق الجنوبية من بلاد الشام. وكان لهؤلاء الفقهاء مدارس خاصة بهم، تعقد فيها حلقات درس ومجالس علم يحضرها الطلبة والمهتمون في أوقات محدَّدة، لكنَّ أكثر ما أثار اهتمام إبن العربي ودفعه إلى الإصرار على والده في البقاء في المدينة المقدّسة هو أساليب التدريس والنقاش التي كان يتبعها هؤلاء العلماء في معالجة المسائل الفقهية والتي لم تكن مألوفة في بلده الأصلي — الأندلس[٣].

وامتدت إقامة إبن العربي في مدينة القدس وبعض مدن فلسطين — خاصة عسقلان — إلى أكثر من ثلاث سنوات. وقد كتب هذا الفقيه فيما بعد وقائع رحلته من الأندلس إلى المغرب ومصر وفلسطين والشام والعراق والحجاز، لكن هذه الرحلة ضاعت ولم يصلنا منها إلاَّ مقتطفات قليلة وقطع متفرقة حفظها هو في مؤلفاته الأخرى خاصة **قانون التأويل**. وتُصَوِّر لنا الفقرات منها المتعلقة بالقدس وفلسطين بعض جوانب الحياة العامة

---

(٢) كان أكثر ما أثار اهتمام إبن العربي في الحياة العلمية في مدينة القدس هو أساليب التدريس والنقاش في معالجة الموضوعات التي تدرّس والتي لم تكن مألوفة في بلده الأصلي الأندلس. أنظر مقال احسان عباس «رحلة إبن العربي إلى المشرق كما صورّها قانون التأويل»، **الأبحاث**، م ٢١ قسم ١ (آذار ١٩٦٨) ص ٥٩ وما بعدها. ص ٦٥ من دراسة المؤلف

(*The Arab Tribal Emirates of the Fertile Crescent*. unpublished Ph.D. Thesis. University of London, 1975.)

وص ٨١ (من مقتطفات الرحلة).

(٣) المصدر ذاته.

والفكرية في المدينة المقدسة تصويراً شاعرياً وحيّاً[٤].

وفي الفترة التي زار فيها مدينة القدس، كان الحُكْم فيها وفي معظم بلاد الشَّام الجنوبية بيد بني أُرْتُق التركمان الذين وُلُّوا عليها نيابةً عن سلاطين السلاجقة في العراق والمناطق الشرقيَّة من بلاد الخلافة العباسية. وكان هذا الحكم في القدس قد بدأ قبل حوالي عشرين سنة من قدوم صاحبنا الأَندلسي إلى المشرق، وذلك عندما تمكن أَتْسِزْ بن أوق الخُوارزمي[٥] ومن معه من الجماعات التركمانية التي دخلت الشام قبل فترة وجيزة بناء على طلب والي الفاطميين هناك[٦]، من السيطرة على هذه المناطق بالتدريج خاصة مدينة القدس التي دخلوها في شوال من سنة ٤٦٥ هجرية (حزيران ١٠٧٣ ميلادية)[٧].

(٤)وصل إبن العربي إلى القدس، كما رأينا، سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م، وبقي في القدس ومدن فلسطين الأخرى إلى سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م (أي قبل وصول الحملة الفرنجية اليها بثلاث سنوات) **رحلة إبن العربي**، ص ٨٤ — ٨٦. ونجد وصفه للقُدس والحياة فيها في أكثر من مكان من المقتطفات.

(٥) كان أَتْسِزّ أميراً تركمانياً في خدمة الدولة السلجوقية، وقد تمكن في العقد السابع من القرن الخامس الهجري من السيطرة على بلاد الشام الجنوبية والوسطى، وأقام فيها إمارة تابعة للسلطنة السلجوقية في العراق وايران. انظر المقال في دائرة المعارف الاسلامية (بالانكليزية) ط ٢، تحت "Atsiz b. Awaq"

(٦) كان دخول التركمان إلى بلاد الشام الجنوبية نتيجة دعوة بدر الجمالي، وزير الدولة الفاطمية، لهم لمساعدته في القضاء على نفوذ القبائل العربية — خاصة آل الجرّاح الطائيين — في هذه المنطقة. أنظر **مرآة الزمان**، (اسطنبول) م ١٣ ورقة ١ ق. ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**. تحقيق هـ. ف. أمدروز. بيروت، مطبعه الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩. ص ٩٩. المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**. تحقيق جمال الدين الشَيَّال. القاهرة، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية – لجنة احياء التراث الاسلامي. ١٩٧١. ج ٢، ص ٣٠٣. ومصطفى الحياري. **الامارات القبلية العربية في الهلال الخصيب**. ص ٢٣٩ — ٢٤٠.

(٧) أنظر: **مرآة الزمان** (الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة) نشر علي سويم. أنقرة، مطبعة الجمعية التاريخية التركية. ١٩٦٨. ص ١٦٩.

وشَهِـدَتْ مدينـة القـدس خلال فترة حكـم التركمان القصيرة (٤٦٦ — ٤٨٩هـ/ ١٠٧٤ — ١٠٩٦م) إحيـاءً ثقافيـاً، خاصـة في دراسات الفقـه الشافعـي والفقه الحنفي والفكـر الديني، لم تشهـد له مثيلاً خـلال فترة قرن ويزيد من حكم الدولة الفاطمية الاسماعيلية (٣٥٨ — ٤٦٦هـ/ ٩٦٩ — ١٠٧٤م) فمجير الدين العليمي (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م) الذي عُرِفَ أكثر ما عُرِفَ بتأريخه لمدينة القدس الذي جمعه في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، يؤكد هذه الحقيقة إذ لا يذكر أي عالم أو شخصيـة مشهورة خـلال هذه الفترة الطـويلـة عاش في مـدينة القـدس أو استوطـن فيها، بينما يـذكر للفترة التركمانية القصيرة عـدداً من العلماء الـذين عاشوا في المدينة أو زاروها [٨] مثل أبي الفتح نصر والطرطـوشيّ والغزالي وإبن العربي وغيرهم[٩].

وتوضح الفقرات المتبقية من رحلة إبن العربي، ومقتطفات أُخرى حفظها في بعض مؤلفاتـه، جوانب خاصة من الحياة الفكريـة والاجتماعية في مدينة القدس في الرُّبْـعِ الأَخير من القرن الخامس الهجـري. فمن ناحية يَـرِد عنده

---

(٨) أنظر مجير الدين العليمي، الأُنس الجليل في تاريخ القدس والخليل. عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣. م ١ ص ٢٩٧. ولا نجد لديه ذكر لاي شخصية علمية بـارزة أو من الرجال المشهورين في السنوات بين ٣٤١ هــ/ ٩٥٢م حتى سنـة ٤٨٠هـ — ١٠٨٧م. وانظـر المصدر ذاتـه، ص ٢٩٧ — ٣٠٣.

(٩) كان نصر شيخ الشافعيـة في بلاد الشّام في زمنه، وقد زار بيت المقدس ومكـث فيها مدة في زاويته هناك في بـاب الرحمة (داخل البـاب الذي عرف في الفترة الفـرنجية بالبـاب الذهبي الـذي يقع في الجهة الشرقية مـن سور الحرم الشريف) التي عـرفت فيما بعد بالـزاوية النّصرية. وكذلـك الغزالي الذي زار القدس في هذه الفترة (التركمانية) وأقام في نفس المكـان الذي أقام به نصر فسميت ايضا باسمـه «الغزالية». أما الطـرطوشي فقد زار القدس أيضـاً، وقد كان فيهـا عندما وصل اليهـا إبن العربي في سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م. انظر الأُنس الجليل ج ١، ص ٢٩٧ — ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١.

ذكر «لمدرستين لأهل السنـة في المدينة إحداهما لأصحاب المذهـب الشافعي والأخرى لاصحاب المذهـب الحنفي، وكلتاهما بنيتا أو أُسِّسَتا خلال الفترة التركيـة التركمانية حيـث كان العلماء مـن المذهبين يعقـدون حلقات الـدرس للطلاّب ويجرون المناقشات بصـورة منتظمة. ومن ناحية ثانيـة، تُزَوِّدنا رحلة إبن العربي بمعلومات قيمة عن المحاورات والمناقشات التي كانت تدور بين علماء مـدينـة القـدس من المسلمين والنصـارى واليهـود في مجالـس بَحْـثٍ وُمدَارَسَـةٍ تعرض فيهـا موضـوعات تهم هـؤلاء العلماء وتوضـح جوانـب من العلاقات الفكرية بين هـذه الديانات السَّماَوِيّة [١٠]. أما الناحية الثالثة التي نجـدها في رحلـة إبـن العربي فتُبْرِزُ مـوقف سُكَّـان المدينـة من الصرِّاعـات الدَّاخليَّة بين فئات الأَقليَّة التركية الحاكمـة. ويبرز هذا الموقف بصورة جلية في حادثة شاهدهـا الرَّحَّالة بعينه، والتي يؤكد في عـرضه لها أَنَّه لا يمكن أنْ يقع مثلها في أيِّ مدينـة أو بلدة من بلدان الأَندلس، مـوطنه الأَصلي. فبعد وصفه لبرج داود، يذكر ما يلي:

«ورأيت فيه (برج داود) غـريبة الدهر، وذلك أنَّ ثائراً ثـار به على واليه وامتنع فيه بالقوة، فحاصره وحاول قتاله فيه بالنشَّاب فترة، والبلد على صِغَره مُسْتَمـر على حاله، ما أُغلِقَـت لهذه الفتنة سُوق ولا سـار اليها العَامَّة بِشرّ، ولا برز للحال من المسجد الأَقصى مُعْتَكف ولا انقطعت مُنَاظَرة، ولا بطل التَّدْريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرّقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بـلادنـا (الأَندلـس) لاضْطَـرَمَـتْ نـار الحَرْب في البعيد والقـريـب، ولانقطعـت المعايـش وغلقـت الدَّكَـاكين، وبَطُـل التَّعَـامل، لكثـرة

(١٠) رحلة إبن العربي، ص ٨١ — ٨٢. المصدر ذاته، ص ٦٦ — ٦٧.

فضولنا وقلّة فُضُولهِم»[11].

وقد كان لهذه اللاّمبالاة المَدْرُوسَة من قبل سكان المدينة المقدسة ما يبررها: فقد عانت المدينة كثيراً في تاريخها السّابق من تَغَيُّر القوى التي حكمتها من ناحية، ومن الصرّاعات المستمرة بين الفئات الحاكمة نفسها من ناحية أُخرى، مما وَلَّد لدى النَّاس قناعات ومواقف أَثبتت التجربة أَنهَّا أَنْسَب من غيرها من المواقف في خدمة مصلحة الناس فيها. وإن عرضاً سريعاً لتطورات تاريخ المدينة خلال القرن الحادي عشر الميلادي يعطينا صورة واضحةً عن بعض التَّجَارب القَاسِيَة التي مَرّت بها القدس وما عانته وعاناه أهْلها من كوارث كان بعضها من صُنْع الطبيعة وبعضها الآخر من صُنْع الإنسان.

افتُتِح القرن الحادي عشر الميلادي، فيما يخص تاريخ مدينة القدس، بأمرٍ أصدَره الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م — ٤١١هـ/ ١٠٢١م) إلى والي المدينة كلَّفة فيه بهدم كنيسة القيامة، واخْتُتِم القرن ذاته بحمامات الدَّم في المدينة التي رافقت الاحتلال الفرنجي للمدينة والتي أدّت إلى قتل معظم سُكَّانها من المسلمين. وبين بداية القرن المذكور ونهايته عَرَفَتْ مدينة القدس سِلْسِلةً من الأَحداث والتَّطورات التي كان لها كبير أثر في تاريخها فيما بعد. وسنحاول في السطور التالية عرض أبْرَز هذه

---

(١١) المصدر ذاتهُ، ص ٦٦ — ٦٧. وقد اعتبر إبن العربي القدس مدينة صغيرة، وربما كان ذلك بالمقارنة مع المدن الكبيرة في الأَندلس أو التي زارها مثل القاهرة أما ناصر خسرو، الذي زار القدس قبل ذلك بخمسين سنة، فقد اعتبرها مدينة كبيرة. انظر:

Diary of a journey through Syria and Palestine, trans. by Guy Le Stronge, PPTS, Vol. 4, London, 1893 (AMS reprint, NewYork, 1971) p. 21.

ناصر خسرو، سفرنامة. ترجمة يحيى الخشاب، ط ٣. بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣. ص ٥٥ وما بعدها.

التَّطَورات والأَحـداث التي تشكـل أَساس التَّطـورات التي وقعـت في القرن التالي.

في سنة ٣٩٩هــ/ ١٠٠٩م كتب الخليفـة الفاطمـي الحاكم بـأمر الله إلى والي الدولـة الفاطمية في فلسطين، والمقيم في الـرملة عاصمـة جُند فلسطين منذ الفتـح، وبناء سليمان إبن عبـد الملك لها بعد ذلك، يـأمُرُه بالتـوجُّه إلى القدس وهدم كنيسـة القيامة وتسويتهـا بالأَرض وتَعْفِيَة آثارهـا. فاستجاب الوالي لـلأمر، وبدأ في ٥ صفـر من سنة ٤٠٠هــ/ ٢٨ أيلول ١٠٠٩م بهدم الكنيسة وتسويتهـا بالأَرض(١٢). وتبع ذلـك مباشرة تنفيـذ سياسـة مضايقـة سكَّان القدس من النصـارى والتي كانت جزءاً من سياسـة الحاكـم بأمر الله واجراءاته المتقلبة ضد النصارى والمسلمين وغيرهـم من الرَّعايا في كل المناطق التابعة له (١٣). هذه السيـاسة التـي أدت آنذاك إلى هجـرة كثير من نصـارى فلسطين إلى المناطـق الحُدُودِيَّة في الشمال من بلاد الشـام التي كانـت تخضع لنفوذ الدولـة البيزنطية أو دولة الروم. ومنـذ ذلك التاريخ وحتـى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي صـارت قَضِيَّة «كنيسـة القيامـة» القضية الـرئيسية في العلاقـات الدبلـوماسية بين الخلافـة الفاطِميَّة والإمبراطـورية البيـزنطية كما سيتضح من العرض التالي:

في ذات الفترة المذكورة، أي مطلـع القرن الحادي عشر الميـلادي، وقعت في فلسطين أَحداث بين الـدولة الفـاطمية والقبائل العـربية في بـلاد الشام، أضعفت النفوذ السيـاسي للفاطميين في كل بلاد الشـام الجنوبية، وأدت إلى

---

(١٢) أنظر يحيى بن سعيد. تاريخ يحيى بن سعيد. بيروت، ١٩٠٩. ص ١٩٥ — ١٩٦؛ اتعاظ، ص ٨١.

(١٣) أنظر عـن سيرة الحاكم بأمـر الله واجراءاته الـداخلية دراسة صـادق اسعد *The Reign of al-Hakim Bi Amr Allah* : 996 - 1021, Beirut, 1974.

والمقال في دائرة المعارف الاسلامية (الانكليزية، طبعة ٢).

سيطرة آل الجَرَّاح الطائيين على فلسطين جميعهــا من الفَرْما عنـد حدود مصر جنوباً وحتى طبريّة في الشمال فترة تزيد على سنتين ونصف[١٤]. وقام حَسَّان بن مُفَرِّج الطائي، أمير آل الجَرَّاح، بصفته صاحـب الأمر والسلطة في مدينة القدس بتنصيب بطريركاً للنصارى فيها جاء به من مدينة إقليم الجبال الذي يقـع إلى الجنوب الشرقـي مـن البحر الميـت ووادي عـربة. كما سمـح الأمير الطائي للنصـارى في القدس وفلسطين باعادة بنـاء كنيسة القيامـة. ويخبرنا المؤرخ النصراني المعـاصر يحيى بـن سعيـد الأنطاكـي أنّ إبـن الجرّاح ساهـم بنفقات إعادة البناء بما سمحت به امكاناته المادية المحدودة[١٥].

وتمكن الحاكم بأمر الله من استرضاء آل الجَرّاح، فـأعْلَنُوا طاعتهم للدولة الفاطمية، وعـادت القُدس وجميع فلسطين للنفوذ الفاطمـي، واتبع الخليفة الفاطمي سيـاسة جديدة تجاه النَّصارى الذيـن هجروا فلسطين إذ سمح لهم بالعودة إلى بلادهـم، وألغى جميع الاجـراءآت التي كان أصدرها في السابق. وربما كان هذا التغيرّ في سيـاسة الحاكم بأمر الله نتيجة للسفـارة التي أَرْسَلَها الإمبراطور البيزنطي إلى بَلاطه في القاهرة سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤ — ١٠١٥م حيث استقبل الخليفة مبعوث الإمبراطور شخصيا[١٦].

وبعد وفـاة الخليفة الحاكـم بأمـر الله سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م) تَحَسَّنَت

---

(١٤) كادت حـركات القبـائل أنْ تقضي كلياً على نُفُـوذ الفاطميين في بـلاد الشام. أنظـر: مصطفى الحياري، **الإمارة الطائيـة في بلاد الشام**. عمان، منشورات وزارة الثقافـة والشباب، ١٩٧٧. ص ٤٤ وما بعدها؛ **الامارات القبلية العربية في الهلال الخصيب** (رسالة دكتوراه غير منشورة بالانكليزية) ص ٧٨ وما بعدها؛ **اتعاظ**، ج٢ ص ١٠٧ — ١٠٨، ومقال مـاريوس كـانار عن الجراحيين (آل الجَرَّاح) في دائرة المعارف الاسلامية (ط ٢ بالانكليزية).

(١٥) يحيى بن سعيد، **تاريخ**، ص ٢٠١.

(١٦) **اتعاظ**، ج ٢ ص ١٠٧ — ١٠٨. أما يحيى بـن سعيد الأنطاكي فلا يذكـر هذه السفارة، وإنما يركز على المفاوضات التالية التي تمت في زمن الخليفة الظاهر.

العلاقات بين الخلافة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية. وجاء هذا التحسن نتيجة لمفاوضات طويلة بين الجانبين امتدت حتى سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م. ففي هذا التاريخ الأخير تم الإتفاق على عَقْدِ اتفاقية بين الطرفين، ونُصَّ في أحد بُنُودها على إعادة فتح كنيسة القيامة والسَّماح بإكمال بنائها. ويذكر المقريزي ضمن حوادث سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م أنه:

«وُقعت الهدنة بين متملك الروم (قسطنطين الثامن) وبين الظَّاهر(الخليفة الفاطمي آنذاك) عن ديار مصر والشام، وكتب بينهما كتاب، وتَفَرّدَتْ الخُطْبَة للظاهر ببلاد الروم، وفُتِحَ جامع القسطنطينية، وعُمِل له الحُصرُ والقناديل، وأُقِيمَ به مؤذن، وعند ذلك أَذِنَ الظَّاهر في فتح كنيسة القيامة التي بالقدس، فحَمَلَ اليها ملوك النصارى الأموال والآلات، وأعادوها وارتد إلى دين النصرانية كثير ممن أَسْلَم كُرهاً في أيَّام الحاكم بأمر الله» (١٧).

أما يحيى بن سعيد الأنطاكي فيقول إنَّ المفاوضات بين الجانبين امتدَّت على فترة طويلة من الزّمَن بسبب الظروف العسكرية في مناطق الحدود بين الدولتين، وإن ملك الروم طلب من الخليفة الفاطمي السَّماح له بإعادة بناء كنيسة القيامة على نفقته الخاصة وكذلك إعادة بناء بقيَّة الكنائس التي هدمت في مصر والشام، وأنْ يعين الملك بَطْرِيَركاً للقدس في مقابل إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين لدى البيزنطيين الذين أُسِرُوا خلال فترة حكمه وفترة حكم الإمبراطور البيزنطي السابق له(١٨). لكن الخليفة الظاهر لم يوافق على هذه الاقتراحات، فاستمرت المفاوضات متقطعة بين الجانبين مُدَّة بعد

---

(١٧) اتعاظ، ج ٢ ص ١٧٦.

(١٨) يذكر يحيى بن سعيد أنَّ تبادل السفراء والرسائل بين الجانبين بدأ بعد موت الحاكم بأمر الله (تاريخ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤، ٢٦٦، ٢٦٩). وانظر للشروط من الجانبين المصدر ذاته، ص ٢٧١. كما يذكر أنَّ المفاوضات استمرت لمدة ثلاث سنوات ونصف. المصدر ذاته، ص ٢٧١.

ذلك[19].

وفي أواخر سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م، أَمر الخليفة الفاطمي أَهالي القدس والمسؤولين فيها ببناء أسوار مدينتهم. ويبدو أن عملية البناء هذه قد بدأت مباشرة لكنها توقفت نتيجة للهزّة الأَرضية القَوِيّة التي وقعت في فلسطين يوم الخميس ١٠ صفر من سنة ٤٢٥هـ/ ٤ كانون الثاني ١٠٣٤م، وأدّتْ إلى تهديم نصف مدينة الرملة واجزاء من سوُرها، وخَراب معظم مدينتي أَريحا ونابلس وقراهما، وجزء من المسجد الأقصى[20].

في هذا الوقت كانت المفاوضات بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية لا تزال مستمرة حتى توصلوا أخيراً إلى شُروطٍ قَبل الطرفان بها. وفي سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م عُقد بين الجانبين اتفاقيَّة وهدنة مدتها عشر سنوات[21] وكاد الاتفاق الجديد أن ينهار إذ تُوفي الخليفة الفاطمي الظَّاهر في ذات السنة التي عقد فيها. لكن الخليفة الفاطمي الجديد المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٥هـ/ ١٠٣٥ — ١٠٩٢م) تابع سياسة والده وسلفه تجاه الدَّولة البيزنطية وقام بالمُصَادقة على الإتفاقية. وكان أبْرَز البنود في اتفاقية السَّماح للإمبراطور البيزنطي باعادة بناء كنيسة القيامة مقابل إطلاق سراح خمسة آلاف أَسير من أسرى المسلمين. ويبدو أنه نتيجة لذلك تم إطلاق الأَسرى وبدء باعادة بناء الكنيسة وإكمالها إذ يُذْكَر أنَّ الإمبراطور صرف مبالغ

(١٩) يحيى بن سعيد، تاريخ، ص ٢٧١.

(٢٠) عن أمر البناء والهزة، أنظر: تاريخ يحيى بن سعيد، ٢٧٢، وانظر سفرنامة، ص ٤ ٥ عن المكتوب في جامع الرملة عن الزلزلة التي وقعت في ١٥ محرم ٤٢٥هـ/ ١٠ كانون الأول ١٠٣٣م. أما عن الهزة الأَرضية التي ضربت فلسطين أنظر: اتعاظ ٢ ص ١٨١. وربما كانت الإشارة التي ترد عند الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات. تحقيق جانيت سورديل. دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣. تدل على الإصلاحات التي قام بها الخليفة الفاطمي الظاهر بعد هذه الهزة.

(٢١) اتعاظ، ج٢ ص ١٨٢.

كبيرة من أجل بنائها [٢٢].

وفي سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م تعرضت العلاقات الفاطمية البيزنطية لأزمة حادة نتجت، كما يبدو، عن نقض البيزنطيين شروط الاتفاقية، خاصة وأنّ مدتها لم تنته بعد. ففي هذه السنة قام البيزنطيون بحملة على المناطق الحدودية معهم من بلاد الشام الشمالية التي كانت تتبع السيادة الفاطمية، مستغلة وفاة الوالي والقائد الفاطمي القوي أنُوشْتَكِين الدِّزْبَري الذي تمكن من بسط السِّيادة الفاطميّة على هذه المناطق لأول مرة ولمدة تزيد على عِقْدٍ من الزمان. وكانت العادة أنْ تَرُد الدولة الفاطمية على مثل هذه الأعمال البيزنطية باجرآءات مناسبة، أمّا في هذه المرَّة فإنهّا لم ترد على الهجوم ولم تتخذ أيّ إجراء مضاد تجاه كنيسة القيامة أو نصارى بيت المقدس أو غيرهم من النصارى التابعين لها. وبعد هذه الأزمة بأربع سنوات (٤٣٧هـ/ ١٠٤٦م) استُؤنفت الاتصالات بين الجانبين لإعادة العلاقات بينهما، وأرسل كل من الإمبراطور والخليفة الفاطمي مبعوثين من قبله إلى بلاط الجانب الآخر وتبادلوا الهدايا فيما بينهم [٢٣].

وبعد مرور أقل من سنة على هذه التطورات البيزنطية الفاطمية، أي في رمضان سنة ٤٣٨هـ/ آذار ١٠٤٧م [٢٤] كان الرحالة المشهور ناصر خسرو قد وصل إلى مدينة القدس في طريقه إلى مقر الخلافة الفاطمية في القاهرة. ومكث ناصر خسرو في المدينة مدة لزيارة أماكنها المقدّسة ومعالمها الأُخرى. ويقدم لنا هذا الرحالة في رحلته التي دَوَّنها وصفاً يدل على ازدهار المدينة في هذه الفترة وكثرة النشاط فيها، يقول:

---

(٢٢) المصدر ذاته، ص ١٨٧. ويذكر المقريزي أنّ الاتفاقية كانت سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م.

(٢٣) اتعاظ، ج ٢ ص ١٩٤.

(٢٤) وصل ناصر خسرو إلى القدس في ٥ رمضان سنة ٤٣٨هـ/ ٥ آذار ١٠٤٧م عن طريق الرملة. سفرنامة، ص ٥٥.

«هي مدينـة مشيدة على جبل . . . والمدينة مُحاطـة بسور حصين من الحجر والجص، وعليهـا بَوّابـات حديديـة . . . وهي مـدينة كبيرة، كان بها في ذلـك الوقت عشرون ألـف رجل، وبها أسواق جميلـة وأبنية عـاليـة، وكل أرْضِهـا مُبَلّطـة بـالحجارة، . . . وفي المدينـة صُنّـاع كثيرون، لكـل جَمَاعَـة منهـم سُوق خـاصـة . . . . . . وفي بيـت المقـدس مستشفـى عظيـم عليـه أوقـاف طـائلـة، ويصرف لمرضـاه العديـدين العلاج والدّوَاء، وبـه أطبّاء يأخـذون مرتباتهم من الـوقف المقرّر لهذا المستشفى» (٢٥).

جاءت زيـارة ناصر خسرو للقدس بعـد تسع سنين مـن توقيع الاتفـاقية والهُدْنَة بين بيزنطة والخلافة الفاطمية، وفي وصفه لكنيسة القيامة ما يدل على تنفيذ بنـود الاتفاقية الخَاصَّـة بالكنيسة، إذ يـذكر: «وهذه الكنيسـة فسيحة تسع ثمانيـة آلاف رجل، وهي عظيمـة الزُّخْرف مـن الرُّخَام الملـوّن والنقوش والصور، وهي مزدانـة من الداخل بالديباج الرُّومـي والصُّوَر، وزيّنت بطِلاءِ من الذهب . . . » (٢٦).

كانت فترة العِقْدَيْن الرابع والخامس من القرن الحادي عشر الميلادي أكثر فترات العلاقات البيزنطية الفاطمية هدوءاً وازدهاراً، لكنَّ تطورات وقعت في العقد السادس من هذا القرن أدَّت إلى سوء العلاقات مرة أُخرى. وجاء هذا التطور نتيجة ظهـور قوة إسلامية جـديدة في شرق العالم الاسلامـي هي دولة الأتـراك السلاجقـة الذيـن مدّوا نفـوذهـم غربـاً حتى حـدود الإمبراطوريـة البيزنطيـة، كما بعثوا برسـل من عنـدهـم إلى بلاد الإمبراطـور في القسطنطينية لتحديـد العلاقـات بين الجانبين. وأدى ظهور هذه القـوة الإسلاميـة بجوار

(٢٥) سفرنامة، ص ٥٦ — ٥٧.

(٢٦) المصدر ذاته، ص ٧٥.

دولة الرُّوم إلى تَغَيُّرُ مـوقف الروم من الـدولة الفاطمية . فقـد منح الإمبراطور للسلاجقة حَـقّ الخطبة من على منبر مسجد القسطنطينيـة للخليفة العبّاسي في بغداد وللامير السلجوقي في خراسان من بعده . وكان ردّ الخليفة الفاطمي المستنصر بالله على هـذا التغير عنيفاً إذ أَمر باغلاق كنيسة القيـامة ومصادرة محتـوياتها وطـرد البطريـرك المقيم فيهـا واحتجازه في بيـت منفرد في المدينـة ، واغلاق الكنـائس في مصر والشام ، وزيادة الجزية على النَّصـارى ، والطلب من الرُّهبان دفع جزية أربع سنوات مقدما [٢٧].

في هذه الفترة المضطربة من تاريخ مدينة القدس ، وصلتنا أقدم الإشارات الموثقة التـي تشير إلى منح الدولة الفـاطمية جماعات من المسلين وأفـراداً من خارج حـدود بلاد الشام التـابعة لهم أَوقافاً في المدينـة المقدسة لخدمـة الزُوَّار القادمين اليهـا من هـذه المناطـق البعيدة . ففـي نقش عثـر عليه في مـدينة القدس مؤرخ سنـة ٤٤٥هـ (١٠٥٣ — ١٠٥٤م) وقف أمير ديار بكـر من بني مروان الأكراد [٢٨] بيتين متجاوريـن خارج سُور الحرم الشريـف لسكنى الزُوَّار الذين يفدون إلى المدينة مـن ديار بكر في الجزيرة الفراتية [٢٩]. ويُلاحظ

(٢٧) كان جامع القسطنطينية قد أعيد فتحه للصلاة منذ سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م . وأعلنت الخطبة فيه في ذلك الحين باسم الخليفـة الفاطمي الظاهر وحده . وأرسل الخليفة الفـاطمي القناديل والحصر من مصر إلى المسجد كما عينّ له مؤذناً . اتعاظ ، ج ٢ ص ١٧٦ . واستمر وضـع الجامـع على هذه الحال إلى سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤ – ١٠٥٥م التي فشلـت فيها المفـاوضات بين الجانبين لتجـديد الهدنة . وفي هـذه السنة أيضـاً سمحت الإمبراطـورة ثيودورا لـرسل السـلاجقة بـالصلاة بـالجامع وإعلان الخطبة العبّاسية فيه يوم الجمعة . اتعاظ ، ج ٢ ص ٢٣٠ ؛ إبن ميسر، المنتقى من أخبار مصر. تحقيق أيمن فؤاد السيد . القاهرة ، المعهد الفرنسي للآثارة الشرقية ، ١٩٨١ . ص ١٤ .

(٢٨) كان أمير ديار بكـر آنذاك نصر الدولة احمد بن مـروان ، أشهر أمراء بني مروان الأكـراد واكثرهم نشاطاً. انظر، الفارقي، **تاريخ الفارقي**. تحقيـق بـدوي عبد اللطيـف. بيروت، دار الكتـاب اللبناني. ص ٩٣ – ١٧٦ .

(٢٩) M. H. Burgoyne, "A recently discovered Marwanid Imscription in Jerusalem", *Levant*, Vol. XIV, 1982, pp. 118-121

ان هذا الأَمر تم في الوقت الذي كانت الدولة الفاطمية تسعى فيه لكسب وُدّ بني مروان الأكراد ودَعْمِهم لحركة البساسيرى التي تبنتها [٣٠] والتي هدفت إلى القضاء على الخلافة العباسية. وربما كان في القدس أوقافٌ أُخرى لجماعات من مسلمي الشرق في هذه الفترة إلاّ أنّنا لم نعثر على مخلفات مكتوبة تؤيد ذلك.

كان لقيام الدولة السلجوقية في شرق العالم الإسلامي، وسيطرتها على الخلافة العبَّاسِيَّة، ومن ثم تقدم قواتها والقبائل التركمانية التي اندفعت أَمامها باتجاه بلاد الشام، دور كبير في تاريخ فلسطين بصورة عامة ومدينة القدس بصورة خاصة. فقد تمكنت القبائل التركمانية من السيطرة على فلسطين ولم تتمكن الدولة الفاطمية من التصدي لهذا التحدي بصورة مناسبة بسبب ظروفها الخاصة والتطورات التي وقعت في مصر في العقد السادس من القرن الخامس الهجري[٣١]. وهكذا تمكن التركمان من السيطرة على القدس باسم الدولة السلجوقية وإقامة إدارة فيها امتدت أكثر من عقدين من الزمان.

وشهدت مدينة القدس خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي) تطورات وأحداثاً كان لها أثر واضح في تاريخها خلال الفترات التالية. فقد ظهر خلال هذه الفترة «حي البطريرك» الخاص بالنصارى في المدينة وبني «بيت الاسبتار» الأول لخدمة الحجاج الأوروبيين ورعايتهم مدة اقامتهم في المدينة المقدسة، واستولى التركمان على المدينة وحكموها نيابة عن السلاطين السلاجقة، وتمكن الأفضل بن بدر الجمالي، وزير الدولة الفاطمية، من استعادتها

(٣٠) انظر عن حركة البساسيري في العراق وعلاقة الفاطميين بها رسالتنا للدكتوراه الواردة سابقاً، الامارات القبلية . . .، الفصل ٤ ص ١٧٥ - ٢١٨.

(٣١) تعرف فترة العقد السادس من القرن الخامس الهجري بمصر بفترة «الشدة العظمى»، وقد أسهب المقريزي في وصفها في الاتعاظ وفي كشف الغمة باغاثة الأمة.

للدولة الفاطمية سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، واحتلهـا أخيراً الفرنجة بالقوة بعد ذلك بسنة واحدة تقريباً. وسنحاول في ما تبقـى من هذا القسم من الدراسة توضيح هذه الأحداث والتطورات.

إنشاء «حي البطريرك» أو حارة النصارى:

كان سُكّـان مدينـة القدس، في عهود الإستقـرار السابقـة للقرن الحادي عشر الميلادي في ظل الدول الإسلامية المتعاقبـة وحتى أقل من مدة عقد من السنوات من سيطـرة التركمان عليها، يعيشون - خاصة المسلمون والأكثرية النصرانية[٣٢]- بصورة عفويـة بمساكن متجاورة دون تمييز أو تـركيز في أحياء خاصة بهم. واستمـر هذا الوضع، كما يبدو، إلى أنْ تقرر إنشـاء حَيٍّ خاص بالنصارى في المدينة له صبغة قانونية محددة وذلك بناء على طلب من الرئيس الروحي للنصارى (البطـريرك) وموافقة الخليفة الفاطمـي على ذلك رسمياً. ونتيجة لـذلك تغير تـوزيع السكان داخـل حدود مدينـة القدس وأسـوارها فنشأت أحيـاء خاصـة لأصحاب الـديانـات السماوية الثـلاث. فقد أجبر المسلمون الذين يقطنـون في «الحي أو الربع» -الذي حدّد بصورة طبـوغرافية دقيقة لسكنى النصارى، وبأمر من الخليفة الفاطمي بالانتقال من مساكنهم في «حي البطريرك» إلى منازل في أجزاء أخرى داخل أسوار المدينة[٣٣].

وأمـا السبب الـذي دفـع الخليفة الفـاطمـي إلى الموافقة على هـذا التغيير الجذري في سكنى النـاس في مدينة القدس فهـو، كما يذكر المصدر الـوحيد

(٣٢) هذا على الأقـل ما كان عليـه الوضع في النصـف الثاني من القـرن الرابع الهجـري، أي في زمن المقدسي، أنظر: **احسن التقاسيم في معـرفة الاقاليم**. تحقيق م. دي خويـه. بريل، ١٩٠٦. ص ١٦٧. ولا نعرف إلى أي مدى أثـرت التطورات المذكورة آنفاً في نِسَـبِ سُكان المدينة، إذ لا تتوافر لدينا معلومات مناسبة حول الموضوع.

(٣٣) أنظر وليـم الصوري، **تـاريخ الأعمال فيما وراء البحـار** (بالإنكليـزية). ترجمة بابكـوك وكري، نيويورك، ١٩٧٦. ج ١، ص ٤٠٧.

الذي يزودنا بهذه المعلومات أنّ أسوار المدينـة كانت في حالة سيئة جداً[٣٤]. وربما كان للهزة الكبيرة التي وقعت في فلسطين يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الأولى سنة ٤٦٠هـ (١٧ آذار سنة ١٠٦٨م) وهـدمت أكثـر دور الرملـة وسورهـا وتضعضع جـامعها، وكذلـك في بانيـاس وبيت المقدس، أثـر كبير في هذا السوء[٣٥]. فقد أمر الخليفة الفاطمي سكان المدينة بترميم وإعادة بناء أجزاء من سورها. لكـن نصارى القدس لم يتوافر لديهم وقتـذاك الإمكانات المادِيَّة الكافية التي تمكنهم من القيام بالعمـل المطلوب بصورة مناسبة مما دفعهم إلى الطلـب من الخلافـة الفـاطمية السماح لهم بطلـب المساعـدة والـدَّعم مـن الإمبراطـور البيـزنطي. ووافـق الخليفـة الفـاطمـي على هذا الإجـراء، وتـم الاتصال بين النصارى والامبراطـور، ونتج عن ذلك اتفـاق عقد بين الخليفة والإمبراطور، تقـرر بموجبه أنْ يقوم الإمبراطـور بتمويل بناء الجزء مـن السُّور الذي طلـب من نصـارى القدس بنـاؤه (والذي انتهـى منه [في قـوله] سنـة ١٠٦٣م) مقابل أنْ يسمح الخليفة بجعـل الحي الذي يحيطه السُّور مَقْصُوراً على السكان النصارى في القدس لا يخالطهـم فيه أحَد[٣٦]. وكان طبيعياً أنْ يكـون الحي الجديد هـو ذلك الجزء مـن المدينة المقـدسة الـذي تقع كنيسـة القيامة في قلبه.

وقد حدّد المؤرخ الفرنجي المشهور وليـم الصوري حدود «حي البطريرك» كما تم الاتفاق عليها بين الجهات المعنية وكما عَرَفَها هو في النصف الثاني من

---

(٣٤) المصدر ذاته، ج ١ ص ٤٠٧.

(٣٥) انظر إبن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**. ص ٩٤؛ **إتعاظ**، ج٢ ص ٢٧٧؛ وليم الصوري، **تاريخ الأعمال**. ص ٤٠٧.

(٣٦) وليم الصوري، **تاريخ الأعمال**. ج ١، ص ٤٠٧،

J. Prawer, "The Patriarch's Lordship in Jerusalem", in *Crusader Institutions*. the Clarendon Press, Oxford University Press, 1980. p.296.

القرن الثاني عشر الميلادي[٣٧]، فكانت كالتالي :

«يتكون الحد الخارجي (للربع) من سُور المدينة الذي يمتد من الباب الغربي أو باب داود (باب الخليل) مروراً بالبرُج الذي يقع في الزاوية (الجنوبية والغربية والذي يعرف [في عصر المؤرخ] ببرج تانكرد (Tancred Tower)، ويمتد من ثَمَّ إلى الباب الشمالي الذي يعرف باسم الشهيد اسطفان (باب العمود أو باب دمشق). أما الحد الداخلي (للحيّ) فيتكون من الشارع العام الممتد من باب (القديس) اسطفان وحتى مكان صرّافي النُّقود (شارع القديس اسطفان في الفترة الفرنجية)، ويتجه من ثَمّ مع الطَريق العام المُمتد إلى الباب الغَرْبي» [٣٨].

كما حدّدت الإتفاقية بين الخليفة الفاطمي والإمبراطور البيزنطي الوضع القانوني للحي إذْ تقرر أنْ يوضع الحَيّ بأكمله تحت سلطة البطريرك الأرثوذكسي ونفوذه وحده، ولذلك عرف الحي في الفترة الفرنجية من تاريخ المدينة باسم «ربع البطريرك» [٣٩].

---

(٣٧) لا يذكر أي من المصادر العربية التي رجعت اليها تأسيس «حي البطريرك» أو حدوده ويبدو أن وليم الصوري كان على اطّلاع على وثائق وسجلات كنيسة القيامة. أما السبب الذي يقدمه المؤرخ الفرنجي فلا يرد في أي مصدر آخر. فناصر خسرو يذكر، كما رأينا، أنّ الأسوار كانت بحالة جيدة، ولم تحدث في الفترة بين ١٠٤٧-١٠٦٣ أي هزة قوية. وربما كان ذلك الجزء من السور مهملاً، لأن القدس لم تواجه تهديداً خطيراً منذ بداية الفتوحات الإسلامية وربما كان للاهمال، والخطر التركماني، والأزمة الاقتصادية التي شهدتها مصر خلال العقد السادس من القرن الخامس الهجري، دور في طلب الفاطميين من نصارى القدس تحصين هذا الجزء من أسوار المدينة.

(٣٨) وليم الصوري، **تاريخ الأعمال**. ج ١، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٣٩) المصدر ذاته. وانظر لتفاصيل الوضع القانوني لحي البطريرك قبل وبعد الفترة الفرنجية مقال برافر المشار إليه سابقاً.

بناء بيت الاسبتار :

ولم تكن إقامة «حي البطريرك» الإمتياز الوحيد الذي منحته الدولة الفاطمية في مدينة القدس في هذه الفترة. فقبل سيطرة التركمان على المدينة بقليل، مَنَح الخليفة المستنصر أيضاً قطعة كبيرة من الأرض داخل أسوار المدينة تقع إلى الجنوب من كنيسة القيامة في داخل حدود الحي الجديد، لتجار مدينة أمالفي(Amalfi) الإيطالية، لبناء مركز لإقامتهم ولاقامة غيرهم من النصارى الأوروبيين أثناء وجودهم في المدينة ولخدمة الحجاج الأوروبيين الذين يفدون إلى الأماكن المقدسة. وقام هؤلاء التجار ببناء دير للرُّهْبان على هذه الأرض عرف بدير القديسة ماري اللاتينية (Mary of the Latins)، ودير للراهبات عرف بدير القديسة مريم المجدلية ليكون مأوى للحَاجَّات من النساء. ثم بني على هذه الأرض فيما بعد مأوى (Hospice) وكنيسة عرفت بكنيسة القديس يوحنا، ثم تحول المأوى والمرافق التابعة له في الفترة الفرنجية إلى مستشفى القديس يوحنا (Hospital of St. John) والذي صار بعد مقراً لجماعة الفرسان الإسبتارية الدينية (٤٠).

---

(٤٠) منحت هذه الهدية لتجار أمالفي بعد إقامة «حي البطريرك» بقليل. وربما كانت الأرض التي وهبت خَرِبَة أو خالية من العمران أو من الأراضي التي آلت حكماً إلى ملكية الدولة (الصوافي) ويعتقد رايلي سميث أنّ الدير الخاص بالرهبان وكذلك دير الراهبات بنيا على أساسات لأبنية سابقة. أنظر،

The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus, C. 1050-1310, McMillan, London, St. Martin Press, 1967. P. 34-36; Chap. 2 of Pt. 1.

وبالرجوع إلى خرائط مدينة القُدس للفترة الرومانية نجد أن الأرض التي أُعطيت لتجار أمالفي هي السّاحة العامة (Forum)المجاورة للمعبد الكبير الذي بنيت مكانه كنيسة القيامة.

وبعـد حصول النصـارى المحليين في القدس والنصـارى الأوروبيين على هذه الامتيـازات مباشرة استـولى التركمان سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م على المدينة وعلى معظـم فلسطين من أيـدي الفاطميين، وأقـاموا لأنفسهـم فيها إمـارة خاصة بهم كـانت تتبع الدولـة السلجوقية في العراق وايـران. فكيف سيطر التركمان على مدينـة القدس؟ ومـا التطورات التـي وقعت فيهـا أو تتعلق بها حتـى احتلال الفـرنجة لها؟ هـذا هـو موضـوع مـا تبقى مـن هذا الجزء مـن البحث.

٢ - القدس والاحتلال التركماني :

دخلـت القبائل التركمانيـة، التـي اندفعـت أمام تَقـدُّم السـلاجقة نحـو العراق، إلى بـلاد الشام الجنوبيـة بناء على استـدعاء والي دمشق الفـاطمي، بدر الجمالي. فقد طلب هذا الوالي مساعدة التركمان للقضاء على نفوذ القبائل العربية التـي تعيث فساداً في المنطقة التـابعة له [١]، مقابل أموال واقطاعات وعدهـم الوالي بها. وقدمـت جماعات تركمانية عِـدَّة بقيادة أمير هو أتْسِـزْ بن أوق الخُوارزمي وتمكنت مـن تفريق القبائل العربية. لكـن بدر الجمالي لم يف بـالوعـود التي قطعهـا للتركمان فقام هـؤلاء بـالعيث والفسـاد في المنطقة ثـم تمكنوا، بعـد استدعـاء بدر الجمالي إلى مصر، مـن السيطرة على معظـم بلاد الشام الجنـوبية. واستطـاع بعد ذلـك أبرز مقـدّمي التركمان المذكـور سابقـاً الإستيلاء على القـدس في شوّال ٤٦٥هـ/ حزيران ١٠٧٣م، واتخَّذَها مـركزاً لاقطاعيته السلجوقية التي ضَمَّت معظم بلاد فلسطين [٢].

---

(١) كانَ بَنُـو الجَرَّاح وبنو كلـب أبرز القـوى القبلية في بـلاد الشام الجنـوبية في ذلـك الوقـت. انظر مصطفى الحياري، **الإمـارات القبليـة العربيـة في الهلال الخصيـب** (رسالـة دكتوراه غير منشـورة بالإنكليزية). ص ٢٢١-٢٣٤.

(٢) مرآة الزمان، (الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٥٦-١٠٨٦م)، (علي سويم) ص١٦٩.

وقد حفـظ لنا أحد المصادر المعـاصرة الكيفية التي تم بها استيـلاء القائد التركماني على مدينة القدس . ففي رسالة بعث بها أتْسِز بن أوق الخوارزمي إلى الخليفة العباسي في بغداد والسلطان السلجوقي(٣)، وصف مناسب لذلك . فقد تقدم أتْسِز على رأس قواته إلى القدس، فوصل إليها، وباشر حِصارها، لكِنَّه رَفـض قتال من فيها والاستيـلاء عليها بالقوة، لأن المكـان - كما قال : «حرم الله لا أقـاتله، وإنما أريـد إقامـة الدعـوة العباسيـة والسلطانيـة» (٤). فامتـدت مدة الحصار وارتفعـت الأسعار بالمدينـة بحيث بلغ سعـر غرارة (٥) القمح فيها سبعين دينارا (٦).

كان والي مدينـة القدس آنذاك، الذي قـاد عمليات الدفاع عـن المدينة، تركياً من بقايا الأتراك الذين بـدأت الدولة الفاطمية باستخدامهم في جيشها وإدارتها منذ عهد الخليفة العـزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٥هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م). وقد رفض هـذا الوالي في البداية الاستسلام للتركمان على أمـل انسحابهم أمام تحصينـاتها القـويـة، لكـن إصرار أتْسِـزْ وتـركمانـه على مـواصلـة الحصـار وإحكامه، ونقـص الأقوات في المدينة، واستشراء الغلاء فيهـا، وفقدان أيّ أَمـلٍ بوصـول نجدات مـن مصر أو الشام تسـاعد على فـك الحصار ودفـع التركمان، أدى بالوالي المتعـاطف مع أبناء جنسه الأتراك إلى مـراسلة أتسز في

---

(٣) لم تحفظ المصادر نص الرسالة كامـلاً، لكن مضمون الرسالة محفوظ في كتاب مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي المتـوفي سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، والـذي يذكر صراحـة أنه ينقل معلـوماته هـذه عن المؤرخ المعاصر والمطلـع على مراسلات الـدولة، محمد بـن هلال الصـابيء، الذي أكمل تـاريخ والده.

(٤) مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ورقة ١٤٨، والمقتطفات المذكورة سابقا التي نشرها علي سويم، ص ١٦٩.

(٥) مكيـال دمشقي للحنطـة - وهـي «العدل مـن الصوف أو الشعـر»، وتعـادل، كما ذكر هنتـز، ٢٠٤٫٥ كغم. هنتز، المكاييـل والأوزان الاسلامية. تـرجمة كامـل العسلي. عمان، ١٩٧٠. ص ٦٤.

(٦) مرآة الزمان (سويم) ص ١٦٩.

التسليم، فقد ورد على لسان رسوله إلى مُقَدَّم التركمان :

«أنا منكم، وما أقمت على الإمتناع إلاَّ وفاءً لمن كنت خادماً له وعبداً (الخليفة الفاطمي)، وقد فعلت ما يجب عليّ (الدِّفاع قدر الإستطاعة)، فإن أمّنْتني على نفسي ومالي سلمت اليك البلد ونزلت اليك»(٧).

ووافق أتْسِزْ على ما عرضه الوالي، وأعطى رسوله أماناً وأقسم له على الوفاء بجميع الشرّوط التي حَدّدها الوالي بما فيها اقطاعه ضياعاً حَدَّدها الوالي بنفسه. ففتح الوالي باب مدينة القدس، ودخل أتْسِز ورجاله اليها(٨).

وكان أَول عمل قام به الأَمير التركماني بعد دخول المدينة أَنْ بعث رجالاً إلى أسواق البلد وأحيائها للنداء بمنح الأَمان لجميع الناس في المدينة، أما العمل الثاني الذي قام به ليطمئن به الناس فهو أَمْرُه جميع رجاله بعدم التعرض لشيء من أموال الناس التي يذكر أنهَّا كانت «عظيمة»، وأقام رجالاً من جنده لحفظ أموال الناس(٩). وكان هذا أمراً لم يتوقعه الناس(١٠) إذ جرت العادة أن الفاتح يترك لرجاله نهب المدن التي يسيطرون عليها وسلب كل ما يجدونه بها.

وأما الحامية العسكرية الفاطمية التي كانت في مدينة القدس ورجال الإدارة الآخرين فيبدو أَنهَّم قَرَّروا البقاء في المدينة إذ لا ذكر لعودتهم إلى مصر

(٧) المصدر ذاته.

(٨) مرآة الزمان (سويم) ص ١٦٩.

(٩) المصدر ذاته.

(١٠) يذكر إبن هلال الصابيء «. . . فجاءهم ما لم يكونوا يظنوه».

أو تفرقهم في البلاد الأخرى. وعلى كل حال فقد كانت الحامية تتكون أساساً من الفرسان الاتراك والرّجالة السّودان وخليط من الفرسان والرجالة من المصامدة البربر[11]. أما الأتراك فقد انضموا إلى أتْسِزْ والتركمان بينما استقر الباقون كسكان عاديين. وكذلك عمل، كما يبدو، أعضاء الجهاز الإداري الفاطمي الآخرين مثل القاضي والمحتسب وصاحب الشرطة وغيرهم.

وبعد أربع سنوات من استيلاء التركمان على القدس وفلسطين، توجه أَتْسِزْ على رأس جماعاته التركمانيةإلى مصر في محاولة للاستيلاء عليها واتباعها بالتالي لنفوذ الخلافة العباسية والدولة السلجوقية. وحققت هذه الحملة في البداية نجاحاً ملحوظاً، لكن وزير الدولة الفاطمية، بدر الجمالي، استطاع بجهود كبيرة افشالها، إذ جمع كل ما تمكن جمعه من قوات منتشرة في مختلف أنحاء مصر تحت قيادته، كما تمكن من استمالة القبائل العربية التي كانت مع قوات أَتْسِزْ، وهَزَم التركمان هزيمة منكرة في رجب من السنة ٤٦٩هـ/ كانون ثاني - شباط ١٠٧٧م، واستولى على أثقالهم وأموالهم وذخائرهم، فهرب أَتْسِزْ ومن معه إلى الرملة «فخرج أهلها فقاتلوه وقتلوا بعض أصحابه، فهرب إلى دمشق . . .» بمن بقي معه من الرجال فوصلها في ١٠ شعبان من السنة (٨ آذار ١٠٧٧م)[12].

وكاد النفوذ التركماني في فلسطين أن ينهار كلياً نتيجة لهذه الهزيمة خاصة وأن سيطرتهم لم تكن قد تثبتت بعد وأن غالبية السكان في المدن والأرياف كانت لا تزال على ولائها للدولة الفاطمية التي حكمتهم مدة تزيد على قرن من الزمان. ولذلك لم يكن مستغرباً استغلال أهل الرملة للهزيمة ولا ابتداء الفتنة التي قام بها أهالي القدس.

---

(١١) كانت هذه هي العناصر الرئيسية التي يتكون منها الجيش الفاطمي آنذاك.

(١٢) مرآة الزمان، (سويم)، ص ١٨٢ - ١٨٦.

استغلت الجماعـات المؤيدة للفـاطميين من سكـان مدينـة القدس هـذه الهزائم التي مني بها التركمان، وخُلُوِّ المدينة من رئيس هذه الجماعات والقوات التركية التركمانية التي تشتت أو عادت مع أتْسِزْ إلى دمشق، فقاموا بثورة ضد من بقي في المدينة من الأتراك. وكـان على رأس هذه الثورة القاضي الفاطمي السـابق والشهـود، فهجموا على الأتـراك في المدينة، واستـولوا على الأمـوال والنسـاء والأولاد الذيـن تـركهم أتْسِـزْ وأصحـابه فيهـا «فنهبـوها، وقسمـوا التركيّـات بينهـم، واستعبدوا الأحرار واسترقـوهم» أما الاتـراك الذين كـانوا يسكنون في برج (قلعة) داود أو التجأوا إليه فقد حمتهم أسواره المنيعة (١٣).

وعندمـا عرف أتْسِـز، الذي كان قـد وصل إلى دمشـق واستقر بها، بهذه التطورات التي وقعت في القدس، جمع ما تبقى لديه من القوات التركمانية في دمشق ومنـاطق بلاد الشام الجنـوبية الأخرى، وتـوجه مسرعاً اليها فـوصلها وبدأ بحصارها.

وتمكَّن الثائرون من السَّيْطرة تماماً على جميع أَحياء المدينة، ولم يمتنع عليهم إلاّ برج داود الحصين الذي كـان فيه أَموال أتسز وأَولاده ونسـاؤه ومن لجأَ اليه من الأتراك. وتحصن أهالي المدينة داخل الأَسـوار للدفاع عن المدينة ولمقاومة الأَمير التركماني أطول فترة ممكنـة. أَمَّا أتْسِزْ فـإنَّه قـام حال وصولـه إلى أَسوار المدينة بمحاولة لاستعادة سلطته على المدينة المقدَّسَة عن طريق المفاوضات، فأرسل رسولاً إلى أَهل المدينة طالباً منهم تسليمها إليه مقابل أَمانٍ عام يمنحه لهم جميعـا. لكنَّ أَهـل القدس رفضـوا هـذا العرض وهَـدَّدُوا الأَمير التركماني بقتاله حتى خارج أَسوار المدينة. ورغم هذا التهـديد قام أتْسِزْ بمحاولة ثانية

(١٣) مرآة الزمان (باريس)، ورقة ١٦٩.

لإقناع أهل المدنية بالتسليم دون قتـال، وتَقَدَّم هو هذه المرة إلى تحت الأسوار وخاطبهم في ذلك، وكان ردهم عليه أن توَعّدُوه وسَبُّوه. عندها لم يجد الأمير بداً مـن محاربتهم والاستيـلاء على المدينة بـالقوة، فقـاتلهم يـوماً وليلـة دون نتيجـة. في ذات الـوقت قـام السُّـودان والبربـر في داخـل المدينة بمحـاولـة للهجوم على برج داود والاستيلا عليه بالقوة، لكن هذه المحاولة فشلت. أمّا المُحَاصرون في داخل البرج فقد عملوا بدورهم على إيجاد وسيلة تمكِّن القوات التركمانية مـن دُخُول البرج والمدينة، ووجدوا ذلـك في رَتْق* جانبـي في سور البرج يُؤدي منه إلى ظَاهِـر البلد، فخرجوا منه إلى أَتْسِزْ ودَلُّـوه عليه، فدخل الأمير ومعه جماعة من عسكره من هـذا الرتق إلى داخل البرج ومنه إلى محراب داود ثـم إلى البـاب المجـاور (باب داود) ففتحـوه، ودخـل جميـع العسكـر التركماني إلى المدينة (١٤).

ودخـل التركمان مـدينـة القـدس هـذه المرة بعـزم وتصميـم للقضـاء على الثـائرين والانتقـام منهـم للأعمال التـي قـاموا بها ضِـدَّ الأتـراك ونسائهـم وأولادهـم في بداية سيطرتهم على المدينة، وقتلـوا من السودانِ والبربر وغيرهـم في العمليات العسكريـة التي تلت ما يزيد على ثـلاثة آلاف نفس. كما أسَر التركمان القاضي والشهـود الذين كـانوا، كما يبـدو، رؤساء هذه الفتنـة، ثم قتلـوهــم صبراً. واحتمى جماعـة مـن المشـاركين في الفتنـة من أهـل المدينـة بالمسجد الأقصى وقُبَّة الصَّخْرة فسَلِمُـوا من القتل «لأجل المكان» - كما قال أَتْسِزْ، أي رعاية منه لحُرمة الحرم الشريف، لكنـه قرر عليهم مقادير من المال يدفعونها مقابل الإبقاء على حيـاتهم. وسمح الأمير التركماني هذه المرة لرِجَالِه بنهب الأمـوال في المدينة فأخـذوا منها «. . . شيئاً لا يبلغـه الحصر بحيث

★ الرتق أو الرتّق : خلل ما بين الأصابع. ويبـدو أن المقصود هنا فرجة ضيقة في السور تُعمل لغرض الاستفادة منها في وقت الحصار لمثل ما استخدمت لأجله أو للهرب. وربما كان هذا يشبه إلى درجة ما الـ Postern في التحصينات الأوروبية في العصور الوسطى.

(١٤) مرآة الزمان، (سويم) ص ١٦٩.

بيعت الفضة (التي نهبت) بدمشق كل خمسين درهماً بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهماً بدينار». ثم قام أتْسِزْ بترتيب أُمور المدينة وغادرها بعد ذلك إلى الرَّمْلة «فلم يـر فيها من أَهلها أحداً»[15]. ولم تقم بعد هذه الحادثة للحزب الفاطمي في القدس ومؤيديه قائمة حتى قام الأمير الأَفْضَل بن بَدْر الجمالي بحملته عليها، وأعادها للنفوذ الفاطمي، وذلك قبل استيلاء الفرنجة عليها بفترة قصيرة.

كانت مدينة القدس، كما رأينا، مقر إقَامة نساء أَتْسِزْ وأولاده ومستودع أمواله الخاصة وذخائره في برج داود قلعتها الحصينة آنذاك، أما مركز ولايته الرسمي فقد كان مدينة دمشق. ولذلك فعندما فرغ الأَمير التركماني من ترتيب أمور القدس وفلسطين عاد مع معظم قواته إلى دمشق بعد أنْ عين نائباً عنه فيها وزودّها بحامية مناسبة. وكان هذا النائب يدعى قَرْمُوش الذي أقام هو والحامية في برج داود على عادة النواب والولاة في المدينة المقدسة.

وقد مكّن نجاح أَتْسِزْ في القضاء على ثورة العناصر الفاطمية في القدس من تثبيت السلطة السّلْجُوقية فيها وبعض مناطق فلسطين الأُخرى إلا أَنَّه واجه تحديات جديدة من الدولة الفاطمية التي لم تفقد الأَمل في استعادة سيطرتها ونفوذها في بلادالشام. وتمثلت هذه التحديات بحملات إلى الشام ودمشق خاصة، مما دفع الأمير التركماني إلى طلب الإمدادات من الدولة السلجوقية التي استجابت للطلب بسرعة وبعثت الأَمير السلجوقي تتش ابن ألب أرسلان أخ السلطان ملكشاه على رأس قوة تركية إلى دمشق. وكان أَوّل عمل قام به الأمير السلجوقي قتل أَتْسِزْ (ربيع الأول ٤٧٢هـ/ أيلول ١٠٧٩م) والاستيلاء على جميع بلاد الشام الجنوبية والوسطى بما فيها فلسطين ومركزها القدس. وما أنْ تم لتتش ذلك حتى عين أَرْتُق بن

---

(١٥) مرآة الزمان، (سويم) ص ١٦٩، (باريس) ورقة ١٦٩.

أَكْسَب[١٦]، أحد أمراء التركمان نائباً عنه في القدس وأَقطعه جميع المناطق التابعة لها. وعندما وصل أرتق إلى مقر ولايته، لم يواجه أية متاعب من نائب أتْسِزْ فيها، وسَلَّم المدينة إلى الوالي الجديد دون مقاومة، خاصة وأنه قبل عرض تتش عليه بتعويضه عنها إقطاعاً مساوياً من حيث القيمة للاقطاع الذي تخلى عنه، والذي تضمن قلعة صرخد في حَوْران والبلاد التابعة لها. وأمَّا زوجة أتْسِزْ وإبنته وأحد أقاربه الذين كانوا مقيمين في برج داود فقد خافوا على حياتهم من تتش فغادروا القدس وبلاد الشام متوجهين إلى بغداد[١٧]. وهكذا بدأت مرحلة أخرى في تاريخ مدينة القدس.

حكم بنو أرتق القدس نيابة عن سلاجقة الشام مدة تقارب عشرين سنة تميزت بالهدوء والاستقرار وشهدت هذه الفترة عملية احياء لمذاهب السنة بعد قرن ويزيد من السيطرة الاسماعيلية الفاطمية، ورغم ندرة المعلومات التي توضح عملية الاحياء هذه إلاّ أن المتوافر يدل على هذا الاتجاه دلالة واضحة، ففي سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م تم بناء مسجد جديد[١٨]، داخل

---

(١٦) أرتق هو مؤسس دولة الاراتقة. كان من الأمراء في خدمة الدولة السلجوقية وتمكن أبناؤه من إقامة إمارة خاصّة بهم في منطقة الجزيرة الفراتية. انظر عنه:

Claude Cahen, "Artuk", E.I ., Second ed.

ابن خلكان، **وفيات الأعيان**.ج ١ ص ١٩١. وعنه الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج ٨ تحقيق محمد يوسف نجم. بيروت، دار نشر فرانز شتاينر، تيسبادن، ص ٣٣٦ ترجمة رقم ٣٧٦٢.

(١٧) **مرآة الزمان** (باريس)، ورقة ١٧٦.

(١٨) أنظر النقش الذي عثر عليه في مدينة القدس والذي يدل على بناء هذا المسجد:

Michael H. Burgoyne and Amal Abu Hajj, "Twenty four Medieval Arabic Inscriptions from Jerusalem", *Levant,* Vol. XI, 1979, p. 117.

وقراءة نص النقش «بسم الله الرحمن الرحيم تولى عمارة هذا المسجد المبارك و . . . ص وعليه مر (؟) الله مامه (؟) رما ما من (؟) الله وسعه (؟) الله(؟)وذلك في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة [١٠٨٩م]».

أسوار المدينة كما أعيد ترميم بناء كنيسة القديسة حَنّة (آن) وحُوِّلت إلى مدرسة للشافعية [١٩]، وأنشئت مدرسة للأحناف [٢٠] أيضاً، وبدأ بعض العلماء والفقهاء والتلاميذ بالقدوم إلى القدس للإقامة فيها أو للزيارة والتدريس والدراسة، فكان النشاط الفكري الذي ذكرنا بعضه في بداية هذه الدراسة.

وبعد وفاة ارتق بن أكسب (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) نائب تتش في القدس، أعطيت المدينة والمناطق التابعة لها مُنَاصَفَةً بين ولديه سُقْمَان وإيلغَازي، وحكم هذان الأميران اقطاعيتهما دون تحديات داخلية أو أزمات خارجية مدة تقارب عشر سنوات حتى شهر شعبان من سنة ٤٩١هـ/ تموز ١٠٩٨م، ففي هذا الشهر قاد الأَفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية حملة كبيرة من مصر باتجاه القدس، فقام بمحاصرتها في الوقت الذي كانت فيه الحملة الفرنجية الأولى قد دخلت بلاد الشام من الشمال وابتدأت حصارها لمدينة أنطاكية [٢١]، واستولت عليها.

وحاول الأَفضل في بداية حصاره للقدس الاستيلاء عليها دون قتال، وفاوض حاميتها محاولاً اقناعها بالاستسلام والخروج منها دون أَذى، لِكنَّ التركمان رفضوا ذلك، عندئذ بدأ الوزيرالفاطمي بمهاجمتها بالمنجنيقات وآلات القتال الأُخرى التي توافرت لديه [٢٢]، ويذكر إبن ميسر صاحب كتاب

(١٩ - ٢٠) يذكر إبن العربي صراحة وجود هاتين المدرستين، أنظر ما سبق ص٢، وكذلك النص في رحلته.

كما يذكر أبو الفداء تاريخاً موجزاً لكنيسة القديسة حنه وما طرأ عليها.

(٢١) بدأ حصار الفرنجة لأَنطاكية في ٢١ تشرين أول ١٠٩٨م، واستمر ذلك إلى اوائل حزيران ١٠٩٩م.

S. Runciman, *A history of the Crusades*, Vol. I, Chap III.

(٢٢) مرآة الزمان (باريس) انظر ورقة ٢٢٨، ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ٦٥ - ٦٦.

المنتقى من أخبار مصر أنه نتيجة لهذا الهجوم وقعت قطعة من سُـور المدينة فأدرك التركمان استحالـة استمرار المقاومة ووافقوا على تسليم المدينـة فأحسن الأفضل إلى أميرهـا وسمح لهما ومن معهما بمغادرة المدينـة وبلاد فلسطين إلى حيث يشاؤون بعـد أن خلع عليهما (٢٣). أما سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان، الـذي اعتمـد على مصادر عـراقيـة معـاصرة، فيقول بـأن الحصـار والقتـال امتّد فترة تـزيـد على أربعين يومـاً دون أَنْ يتمكّـن الفـاطميون مـن الاستيلاء على القدس، لكـن إلحاح الأفضل في الحصار ورمي المحـاصرين بآلات القتـال، وقلة الأقـوات، وعدم تـوقع قـدوم نجدات تـركية وتـركمانية للمساعـدة في فك الحصـار، دفعت سكـان المدينة إلى الاتصـال بالأفضـل ووعده بفتـح أبواب المدينـة له إذا أعطاهـم أمانـاً عاماً، فقبـل الوزيـر هذا العرض وفتـح السُكّان الباب، ودَخَلَتْ قـوات الفاطميين المدينة في الـوقت الذي كـان فيه إبْنَـا أرْتُق، سُقْمَان وإيلْغـازي، يغادرانها مـع من معهما مـن التركمان من باب آخر، واتجه أحدهما إلى بلدة الـرها في منطقة الجزيرة الفراتية بينما توجه الآخر إلى بغداد (٢٤).

---

(٢٣) ابن ميسر، المصدر ذاته، ص ٦٦.

(٢٤) مرآة الزمان (باريس) ورقة ٢٢٨.

٣ - احتلال الفرنجة للقدس :

في تموز ١٠٩٨م / رجب ٤٩١هـ استولى الأمير الأفضل بن بدر الجمالي على مدينة القدس من أيدي التركمان، وتمكن من استعادة النفوذ الفاطمي على كل فلسطين، لكنه لم يمكث فيها الاّ فترة قصيرة نَظَّم فيها أموره، وعين افتخار الدولة - أحد أمرائه - والياً عليها، ووضع معه حامية كافية للدفاع عنها، ثم عاد مع القسم الأكبر من قواته إلى القاهرة.

وفي ذات الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التطورات في فلسطين، كانت الحملة الفرنجية قد تمكنت (٣ حزيران ١٠٩٨م) من الاستيلاء على مدينة أنطاكية من السلاجقة بعد حصار طويل استمر عدة أشهر.

وقبل هذه الأحداث بشهرين أو ثلاثة أشهر، أي أثناء حصار الفرنجة أرسل الأفضل بن بدر الجمالي بعثةً من القاهرة إلى أمراء الحملة الفرنجية، والتقت بهم في معسكرهم أمام مدينة أنطاكية، وجرت مفاوضات بين الجانبين اقترح رسل الفاطميين فيها اقتسام ممتلكات السَّلاجِقة في بلاد الشام بين الفرنجة والفاطميين، بحيث يأخذ الجانب الأول بلاد الشام الشمالية ويأخذ الجانب الثاني فلسطين. لكنَّ أمراء الحملة الفرنجية الذين كانوا يعرفون هدفهم الأول وهو الاستيلاء على القدس، معرفة جيدة، لم يُلْزموا أنفسهم بأيِّ تراتيب محددة، لكنهم اكْرَموا الرُّسل وَزوّدُوهم بالهدايا وأعادوهم إلى القاهرة [1]، وربما كان لهذه المفاوضات، وضعف نفوذ التركمان

(١) ستيفان رنسمن :

A history of the Crusades, Vol. 1 : *The first Crusade and the foundation of the Kingdom of Jerusalem.* a Harper torchbook, New York, 1964, p. 229 and note 1.

ويرد في هذه الملاحظة ذكر المصادر الفرنجية للرسل وللحملة التي ذكرت هذه المفاوضات.

والسلاجقة في بلاد الشام، دورها في حملة الأفضل بن بدر الجمالي على القدس[٢].

ومما يؤكد عدم التزام أمراء الفرنجة بشيء نحو الدولة الفاطمية، أنهم توجهوا بعد انطاكية إلى القدس، وفي أوائل حزيران ١٠٩٩م، وصلت قواتهم أمام أسوار المدينة المقدسة وبدأوا بحصارها الذي انتهى بالاستيلاء عليها.

كانت القدس، عند وصول الحملة الفرنجية اليها، أكبر مدن فلسطين الداخلية وأكثرها حصانة، ولذلك فقد لجأ اليها عشرات الالاف من سكان فلسطين الذين هربوا أمام تقدم الحملة من الساحل اليها، إضافة إلى الحاميات الفاطميّة الصغيرة التي كانت في المناطق المحيطة بها، ولذلك فقد كانت تعج بالناس الذين التجأوا اليها طلباً لحماية أسوارها. أما نصارى المدينة فقد اجبروا على مغادرة البلد إلى الأرياف القريبة خوفاً من تعاونهم مع الفرنجة خاصة وأن نصارى بيت لحم كانوا قد أرسلوا وفداً منهم إلى الرَّملة حيث كانت الحملة قد سيطرت عليها، فطلبوا منهم الإسراع في تسلم البلدة[٣].

وصلت الحملة الفرنجية إلى القدس عن الطريق الرئيسي الذي يصل من الساحل اليها والذي يمر في الرملة وعمواس وبيت نوبة، وقاموا بمحاصرتها من الجهة الغربية والجنوبية، وتركز القسم الأكبر من قوات الحملة في الجهة الأولى بينما قاد ريموند، كند (كونت - Count) طولوز، الحصار في الجهة الثانية المقابلة لباب داود والبرج حيث كانت الحامية الفاطمية. ووجد أمراء القسم الأكبر من الحملة أن طبوغرافيَّة الجهة الغربية لا تساعد على قيادة

(٢) يبدو أن الأفضل بن بدر الجمالي قرر القيام بحملته بعد عودة رُسُله من معسكر الفرنجة خاصة وأن صاحب دمشق آنذاك، دُقَاق بن تتش، وأتابكه طُغْتَكين كانا على رأس قواتها في شمال بلاد الشام للمشاركة في التصدي للحملة الفرنجية التي استولت على أنطاكية.

(٣) أنظر Fulcher of Chartres, *A history of the expedition to Jerusalem* 1095 - 1127, trans. Harold S. fink, University of Tennesse Press, Norton & Company, New York, 1969, p. 115 - 116; William of Tyre, *History,* Vol. 1.p. 335 ff.; and S. Runciman, Ibid, p. 280 - 81; Hans E. Mayer, *the Crusades,* trans John Gillingham, Oxford University Press, 1972, p. 59 - 60.

حصار مؤثر، فانتقلوا بكليتهم إلى الجهة الشمالية للاسوار الممتدة من باب العمود (باب دمشق) وحتى برج اللّقْلَقْ الذي يقع في الزاوية الشمالية الشرقية المشرفة على وادي جهنم، وأقاموا معسكرهم في السهل الممتد أمام باب السَّاهِرَة، حيث تساعد الطبيعة الجغرافية للمنطقة على سهولة الحركة واستعمال آلات الحصار الكبيرة. ووقع عبء الدفاع عن هذه الجهة من الأسوار على سكان المدينة وبعض رجال الحامية وغيرهم من العساكر الذين لجأوا إلى المدينة.

ودام حصار الفرنجة للقدس ما يقرب من أربعين يوماً استعمل المهاجمون خلالها مختلف أنواع أسلحة الحصار التي كانت معهم أو التي استطاعوا بناءها، وفشلت معظم محاولاتهم لاختراق دفاعات سكان المدينة. وفي النهاية تمكن الفرنجة من بناء برجين خشبيين كبيرين وعاليين بأخشاب ومواد أخرى قَدَّمَها البحارة الجنَويّون الماهرون الذين انضموا إلى معسكر غودفري، وبذلك تمكنوا من التغلب على مقاومة المدافعين عن الأسوار. أما جماعة ريموند الذين كانوا في الجهة الجنوبية فقد استعملوا أولاً السَّلالم لتسلق الأسوار دون طائل، فقاموا بدورهم ببناء برج خشبي[٤]. ودافع سُكّان القدس، من الرجال والنساء، عن السُّور الشمالي للمدينة دفاعاً مستميتاً، واستعملوا بدورهم كل ما لديهم من آلات حرب ومواد عسكرية تمكنهم من ابعاد المهاجمين عن آسوارها. وقد وصف احد المصادر الفرنجية المعاصرة القتال عند السّور الشمالي وما كان يقوم المدافعون به وصفاً دقيقاً، فقال:

«كان على المهاجمين غالباً أن يتصدوا للإمدادات (التي كانت تصل من

---

(٤) كان استعمال الأبراج الخشبية من أهم آلات الحصار التي استخدمها الفرنجة في عملياتهم العسكرية خاصة حصار المدن وقد استخدمت في غالبية أعمال الحصار الناجحة التي قاموا بها.

أجزاء المدينـة الأخرى) للمـدافعين وفي ذات الوقـت أن يطلقوا المنجنيقـات وغيرها من الآلات، ويحفروا الأنفـاق تحت الأسوار، آملين أن الجوع واليأس سيجبر المدافعين على الاستسـلام. ومـع ذلـك فقـد لجأ المسلمـون لحمايـة أسـوارهـم إلى تعليـق أكيـاس كبيرة مملوءة بـالقـش وغيره من المواد، وتعليـق السجاجيد والأخشاب الطويلة والفرش المحشوة بالحرير، (لاضعاف فاعلية حجـارة المنجنيقات على الأسـوار) ومـع ذلك فقـد استمـر الفرنجـة بضرب الأسوار بقوة» (٥).

وتمكـن المدافعون بـاستعمال هذه الأسـاليـب من إفْشَـال كل المحـاولات الفرنجية بإحداث فجوة في الأسـوار أو تسلُّقها أو حتى الإقتراب منها، لكن عندمـا انتهى الفـرنجة مـن بناء الأبـراج التي لم تكـن من الآلات المألـوفة في حروب المنطقة، تمكنوا من تسلق الأسوار الشمالية ودخلوا المدنية بالقوة.

وفي يوم الجمعة، ١٥ تموز ١٠٩٩م، وعند وقت الظهيرة، تمكن غُودفري ومن معه من الفـرنجة المتمركزين في البرج الكبير من شَـقِّ طريقهم إلى أعلى السور الشمالي بين بـرج اللّقْلَقْ وباب السَّـاهرة، وهرب المدافعـون إلى داخل المدينـة عبر الطرق الضيقـة، وانـدفع الفـرنجة إلى داخـل المدنيـة يلاحقـون الهاربين من المدافعين (٦)، وتبع ذلـك مذبحـة لم تشهد المدينـة لها مثيلاً في تاريخها الطويل، إذ قتل الفرنجة المندفعون نتيجة نجاحهم في الاستيلاء على المدينة المقـدسة كل من وجـدوه في طريقهم مـن أهلها من الرجـال والنساء والأطفال، وفي الشوارع والطرق والبيوت التي دخلوها وقضوا على من فيها.

---

(٥) Roland Finucane, *Soldiers of the Faith.* London and Melbourne, J.M. Dent Sons Ltd, 1983 p. 96-97, based on William of Tyre's narrative, *History,* Vol. 1, p. 362.

(٦) Fulcher, *Expedition,* p. 121; William of Tyre, *History* Vol. 1, p. 370 ff.

والتجأ قسم كبير من الناس إلى ساحة الحرم الشريف يقدر عددهم بحوالي عشرة آلاف انسان، على أمل أن تمنع حرمة المكان من قتلهم كما كان يحصل في الماضي القريب، لكن جموع الفرنجة المنتصرة لاحقتهم إلى هناك وقتلت معظمهم(٧)، ولم يسلم من سُكّان المدينة الذين تقدر المصادر عددهم وقت الحصار بين ستين وسبعين ألف شخص الاّ أعداداً قليلة. وكان من بين الجماعات التي سلّمت الحامية الفاطمية التي كانت تتمركز في برج داود الحصين، وكل من تمكن من الهرب إلى هذا المكان قبل وصول الفرنجة اليه، فكان ذلك نتيجة اتفاق بين ريموند الصنجيلي الذي كان يحاصر المدينة من هذه الجهة وبين افتخار الدولة والي المدينة وقائد الحامية، وبموجب هذا الاتفاق سَلّم الوالي البرج إلى الأمير المذكور مقابل السماح له بمغادرة المدينة هو ومن معه بأمان وحماية إلى عسقلان ومصر(٨). ويضاف إلى ذلك ان الفرنجة أسروا بعض وجهاء المدينة وعلمائها على أمل أن يقوم المسلمون بفدائهم بمبالغ كبيرة من المال وقصة الشيخ عبد السلام الانصاري، التي يوردها مجير الدين العليمي، خير مثال على ذلك، فعندما عرف الفرنجة أنه من العلماء أسروه وداروا به فيما بعد في مختلف أنحاء فلسطين ليفتدى بمبلغ ألف دينار، ولما لم يدفع أحد من المسلمين المبلغ الذي قرره الفرنجة، قتلوه كما قاموا بقتل عالم آخر هو عبد الجبار بن أحمد الاصبهاني، وكل منهما كان

---

(٧) Fulcher, *Expedition*, p. 121-122.

أما المصادر العربية فتذكر أن حوالي مئة ألف قتلوا في ساحة المسجد الأقصى والحرم الشريف. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠ ص ٢٨٣.

المقريزي، اتعاظ، ج٣، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٣؛ أما ابن القلانسي فلا يذكر رقماً محدداً لاعداد القتلى ولكنه يقول «وانهزم بعض أهله إلى المحراب وقتل خلق كثير، وجمع اليهود في الكنيسة واحرقوها عليهم وتسلموا المحراب بالأمان في الثاني والعشرين من شعبان من السنة» ص ١٣٧.

(٨) Fulcher, *Expedition*, p. 124; See also Runciman, *History*, Vol. 1, p. 286.

من علماء الشافعية الذين قدموا إلى القدس خلال الفترة التركمانية واستقروا فيها (٩).

واستخدم الفرنجة من أُسر من سكان المدينة في تنظيف شوارعها وطرقها وساحة الحرم الشريف من عشرات الآلاف من جثث القتلى التي إمّا جمعت على شكل أكوام ثم أحرقت أو رميت من فوق الأسوار إلى الخارج، وعندما زار المؤرخ الفرنجي فولشر مدينة القدس مع الأمير بلدوين الأول صاحب الرها بعد ذلك بعِدّة أشهر، كانت رائحة الجثث البشرية المتعفنة لا تزال تملأ جو المدينة. يقول فولشر: «يا لها من رائحة كريهة جداً كانت حول أسوار المدينة من الداخل والخارج التي كانت تنبعث من الأجسام البشرية المتعفنة للمسلمين الذين قتلهم رفاقنا في وقت استيلائهم على المدينة، والملقاة في الأماكن التي اصطادوهم بها» (١٠).

وهكذا حَقّقَت الحملة الفرنجية الأولى هدفها الرئيسي بالسيطرة على مدينة القدس واخضاعها لسيطرة العالم المسيحي، واعتبر يوم الخامس عشر من تموز عيداً (وطنياً) كانت تحتفل فيه مملكة بيت المقدس الفرنجية احتفالاً كبيراً كل سنة (١١).

وفي اليوم التالي لنصرهم والمذبحة التي قضت على معظم سكان المدينة المقدسة، قام الفرنجة، الرهبان والامراء والعامة، بالتوجه وهم يُغنُّون ويقدمون القرابين والهبات إلى كنيسة القيامة وقبة الصَّخرة (المعبد بالنسبة لهم) للزيارة وشكر الرب الذي سلم اليهم المدينة (١٢). وإبتدأت بذلك

---

(٩) الأُنس الجليل، ج١، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(١٠) فولشر، الحملة، ص ١٣٢..

(١١) أنظر فيمايلي القسم الخاص من هذا البحث والمتعلق بالأعياد والاحتفالات التي كانت تقام في القدس خلال الفترة الفرنجية ص ٦٧.

(١٢) فولشر، الحملة ص ١٣٢.

مرحلة جديدة من تـاريخ مدينة القدس الطويـل والتي امتدت هذه المرة إلى حوالي تسعة عقود .

نتيجة لهذه التطورات التي ذكـرنا ، أفرغت مدينة القـدس من كل سُكَّانها السابقين ، فالمسلمون قتل معظمهـم كما رأينـا وطرد من تبقى منهم ولم يسمح لأحدٍ من المسلمين بعد بسكناها . وكـذلك كان مصير اليهود ، أما النصارى المحليون فقد غادروا المدينة كما ذكرنا ، قبـل بدء الحصار ، ولم يسمح الفرنجة بعـودتهم اليها ، ولم يبـق في القدس الاّ المحتلين الجدد مـن الفرنجـة الذيـن استولـوا على منازل المدينـة وامتلكوهـا بما فيها مـن أثاث ومتـاع ، وتم هـذا الاستيلاء طبقاً لما كـان يعرف آنذاك «بقانون الإحتلال» . ويصـف لنا فولشر كيف تم هذا الاستيلاء :

«كانـوا (أي الفرنجة) يـدخلون بيوت أهل المدينـة ويستولون على كـل ما يجدونه فيهـا ، وتم هـذا الأمر بطـريقة أن أول مـن كان يـدخل إلى بيـت من البيوت في القدس ، (ويترك أمام بابه قطعة من سلاحه أو أي شيء آخر يدل على أن بداخلـه شخصاً ما) يصبح مـالكاً لهذا البيت ولا يتحدى هـذا الأمر أي من الفـرنج الآخرين ، وكـان (المحتل الفرنجي) يشغـل البيت أو القصر ويصبح مالكه وكل ما يجده فيه كما لو كان هو مالكه الحقيقي ، وكان هنالك اتفاق متبادل بين الجميع على حق الملكية هـذا وبهذه الطريقة صار كثير من فقراء (الفرنجة) أغنياء» (١٢).

---

(١٢)فولشر، الحملة ص ١٢٣ .

٤ - القدس في ظل الاحتلال الفرنجي (١٠٩٩ - ١١٨٧م) :

ابتدأ الاحتلال الفرنجي لمدينة القدس في سنة ١٠٩٩م مرحلة جديدة من تاريخها الطويل والعريق امتدت فترة ثمان وثمانين سنة . وبالرغم من قصر هذه الفترة في سجلّ المدينة المقدسة إلاّ أنّه حدث أثناءها عدّة تغيرات في بُنَى المدينة المختلفة ، ومن بين التغيرات التي حصلت أثناء فترة السيطرة الفرنجية بعض التغَيرُّ في عمران المدينة وفي نوع الأبنية واستخداماتها إضافة إلى تغيرّات سُكّانية واجتماعية واقتصادية جَذْرِيَّة . وسنحاول في الفقرات التالية توضيح هذه التغيرات بصورة مناسبة .

ا- العمران والسكان

كانت التغيرات في عمران المدينة المقدسة في الفترة الفرنجية كبيرة نسبياً ، وتمثلت في ناحيتين رئيسيتين : الأولى تغير دَوْر بعض العمائر والأبنية الإسلامية التي كانت قائمة حتى تخدم أغراضاً جديدة ، والثانية إقامة أبنية جديدة في مختلف أحياء المدينة لتلائم أو تلبي حاجات السُكّان الجدد الذين استوطنوها بصورة تدريجية ، وعلى الرغم من هذه التغيرات التي تمت في هذه الفترة ، فإنّ ما استحدث في القدس من عمائر وأبنية جديدة لم يُشَوِّه صورة المدينة المقدسة بل أَضَافَ عمائر ومرافق جديدة زادت في جمال المدينة ، إذ مَلأت الأبنية الجديدة كثيراً من الأجزاء الخالية من العمران داخل أسوار المدينة .

وقد تأثرّت أَسْوار مدينة القدس والتحصينات التابعة لها مثل الأبراج نتيجة للحصار الطويل والعمليات العسكرية التي رافقته وخَرِبَت أو تهدَّمت بعض المواقع منها ، وقد أصلح ما لحق بهذه التحصينات من خراب بصورة تدريجية فيما بعد ، كما رُممت المواقع الضعيفة من الأسوار والأبراج ، وتشير الحفريات الأثرية إلى بعض الإضافات في التحصينات هنا وهناك ،

وكان أبرز الإضافات في تحصينـات الأسوار بناء بُرج تَنْكرِد (Toncred) [1]، نسبة إلى أحـد الأمراء الـذين شاركـوا في الحملة الأولى، في الـزاوية الجنـوبية الغربية من الأسوار في ذلك الجانب مـن «حي البَطْرِيَرْك» وتحصينات المنطقة التي عرفـت آنذاك بإسم القديسة مـريم المَجْدلِيَّة في الزاويـة الشمالية الشرقية من الأسوار، قرب المنطقة التي دَخَل الفرنجة منها إلى المدينة والتي ربما كانت أضعف المناطق تحصينا في كل أسوار المدينة [2].

وحُوِّلت المدرسـة الشَّافعية إلى كنيسة واطلـق عليها إسم كنيسة القـديسة حَنّه (أن) (Saint. Anne) وهو الإسم الذي كانـت تحمله قبل أن تتحول إلى مدرسة في الفترة السـابقة [3] . أما المسجد الأقصـى فقد صار المَقرّ الـرَّسْمي لملوك الفرنجة حتـى تم بناء قصرٍ ملكي جديد بجـانب برج داود على الطرف الشرقي للبوابة التي كانت تحمل ذات الإسم، وعندها أُعْطِيَ المسجد لجماعة فرسان الدَّاويّـة التي تأسست حديثاً ليكون مقراً لهم، ثـم صار المقر المركزي لكُلّ فرسان الـدَّاويّة والمُشرِف على كلِّ فروع هذه الهيئة العسكـرية الدينية في الشرق، فـأضافـوا اليه أبنيـة جديـدة في الـداخل والخارج ليتنـاسب البنـاء

(١) كان تَنْكـرِد أحد الأُمراء الصِّغار الـذين شاركـوا في فتح مدينـة القدس، وكان له دورٌ في مـذبحة ساحة الحرم الشريـف، وهو الذي سيطر بقواتـه القليلة على منطقة الجَلِيل كلها وأقـام فيها إمارة تابعة لمملكة بيت المقدس وصار أول أمير لها.

(٢) يبدو أن هذه المنطقة (أنظر الخارطـة) كانت خالية من السُّكَّان وقت الإحتـلال فحصنت وتركت كذلك.

(٣) يذكر أبو الفداء، المؤرخ الأيوبي من القرن الثامن الهجري، بأن بناية صند حنة (سانت آن) كانت كنيسة قبل الإسلام ثم صـارت مدرسة في الفترة قبل ١٠٩٩م، **المختصر في أخبار البشر**. بيروت، لا . ت، ج ٣ ص ٨٣.

وحاجاتهم الحياتية اليومية الدائمة، واتخذوا من الأقبية تحت أرض المسجد إسطبلاً لخيولهم الكثيرة (٤)، أما الأبنية التي كانت في الأرض التي مُنِحَت لتجار مدينة أمالفي الايطالية في أواخر الدولة الفاطمية فقد استمرت في تقديم خدماتها للحجاج القادمين من أوروبا، ثم صارت بَدوْرِها مقراً رئيساً ومركزياً لفرسان الإسبتارية الذين تحولوا تدريجيا إلى هيئة عسكرية كالدَّاويّة، وكان لهم دور في حروب الفرنجة مع المسلمين كبير.

ومن إضَافات البناء الأُخرى التي تمت داخل أَسوار مدينة القدس الفَنادِق التي بنيت لتأوي حجاج النصارى التابعين لمختلف الدول الأوروبية والشرقية في مختلف أنحاء المدينة، والكنائس والأَديرة للرُّهْبان والراهبات والتي تركز معظمها في «حي البَطْرِيَرك» وحي الأَرمن والأَحياء الجديدة التي أنشئت فيما بعد مثل حي القديسة مريم المجدليّة في حارة النصارى الشرقيين الجديدة، هذا وترد إشارة إلى بناء أَسواق جديدة مثل السوق الذي يتفرع من طريق الواد باتجاه المسجد الأَقصى والذي عرف فيما بعد بسوق القَطَّانِين (٥)، بل ربما كان يعرف بذلك الاسم في الفترة السابقة.

وتغيرت بعض أسماء أَبواب المدينة وأسماء شوارعها وبعض الأَماكن فيها، وأطلق عليها أَسماء جديدة خاصةً إذا كانت الأَسماء القديمة صعبة النطق على الناطقين باللاتينية (٦).

---

(٤) تذكر كتب الرحلات الأوروبية ذلك صراحة.

أَما الاسبتارية فقد كانت اسطبلات خيولهم تقع خارج باب القديس اسطفان.

(٥) يذكر بيرغوين Burgoyne أَن الفرنجة بنوا سوقاً كبيراً يتفرع من ذلك الجزء من طريق الواد الذي كان يعرف في الفترة الفرنجية بشارع الفرائين وهو الذي عرف في الفترة المملوكية بسوق القَطَّانين.

Mamluk Jerusalem. World of Islam festival trust, London, 1987, p. 80 col. 2.

(٦) لا نستطيع أن نُحَدِّد بدقة مدى التغير في الأَسماء لأنه لا يتوافر لدينا من الفترة السابقة، خاصة بالنسبة للشوارع والخطط الداخلية أية أسماء، أَمّا الفترات التالية فربما كان بعضها يشير إلى أسماء سابقة للاحتلال الفرنجي وربما للفترات التالية.

أما التَغيُّرات السياسية والاجتماعيَّة في مدينة القدس في هذه الفترة فقد كانت جَذْريَّة فبدلاً من المسلمين والنصارى المحليين واليهود الذين كانوا يُكَوِّنون سكَّان المدينة في السابق، صار سكان المدينة الجُدُد من الفرنجة اللاَّتين من مختلف أَنحاء أوروبا - خاصة الغربية - ومن النصارى الشرقيين الذي استقدمهم الفرنجة من المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن (من شرق الأردن) ومن أَقليَّات نصرانية شرقية متعددة خاصة الأرمن والكُرْج (سكان جورجيا). وأقيمت أنظمة سياسية وقانونية و إدارية جديدة لتحكم حياة هذه الفئات المختلفة التي تعيش في مركز المملكة الفرنجية، وتغير التنظيم الإجتماعي للمدينة المقدسة والمؤسسات والحياة اليومية فيها، كما حدث تغيرَّ أَساسي في بعض أعيادها واحتفالاتها. هذه هي الجوانب من تاريخ القدس التي سيركز البحث على ملامحها الأساسية فيما يلي :

توطين النَّاس في المدينة من جديد:

أُخْلِيَتْ مدينة القدس في تموز ١٠٩٩م، عن طريق القتل والطرد، من كل سُكَّانها السابقين، وحَلَّ مَحلَّهُم الفرنجة الذين شاركوا في الحملة التي أدت إلى الإستيلاء عليها، والذين احتلوا مساكنها وبيوتها واستولوا على كل ما وجدوه فيها من مالٍ وأثاثٍ ومتاع، لكن لم يتوطن في القدس من الذين شاركوا في احتلالها إلاَّ جزءاً صغيراً، ويرجع ذلك إلى عوامل عديدة كان أبرزها أن قسماً كبيراً ممن دخل المدينة فاتحاً غادرها بعد فترة إلى بلاده بعد أن حقق هدفه بالمشاركة في فتحها والقيام بالحَجِّ وزيارة الأَماكن المقدسة. وعاد معظم الفرنجة من الأمراء الذين غادروا فلسطين وعادوا إلى بلادهم او بلاد أخرى مثل ريموند الصنجيلي أو إلى مناطق أخرى كانت قد خضعت للفرنجة، وقسم ثالث غادر مدينة القدس إلى المدن السَّاحِلِيَّة أو الأرياف حيث كانت فرص الحصول على عيش ملائم أَكثر توفراً، ولذلك فقد كانت

أعداد الذين استوطنوا في المدينة بصورة دائمة، طبقاً لما ذكره وليم الصوري في كتابه **تاريخ الأعمال**، قليلة جداً وكانوا موزعين في مختلف مناطق المدينة، وهؤلاء القلة عاشوا في السنوات الأولى التي تلت الاحتلال مباشرة في حالة من الخوف والذُّعْر الدائم :

« . . . وحتى داخل أسوار المدينة (وفي ذلك الوقت لم يكن بأيدي الفرنج من المدن سوى القدس والرملة ويافا) وداخل جدران المنازل، لم يكن هنالك من مكان يستطيع (الإفرنج) الرُّكون فيه باطمئنان وأمان، فقد كان السكّان (الفرنجة) قلة ومبعثرين (في أنحاء المدينة) . . . وكان (المسلمون) يقتحمون هذه المدن (شبه) المهجورة التي كان المستوطنون الفرنج يعيشون فيها في بيوت متباعدة، ويدخلون عليهم في بيوتهم ذاتها، ونتج عن ذلك أن تَخلىَّ (الفرنج) عن الممتلكات التي أحرزوها سراً وعلانية، وبدأوا يعودون إلى بلادهم الأصلية »[٧].

ولم يكن فقدان الأمن هو الدافع الوحيد الذي أدَّى إلى هجرة الفرنجة من القدس وإنما كان لظروف المدينة الاقتصادية أثر كبير في ذلك. فامكانية كَسْبِ الفرنجة الذين استوطنوا المدينة رزقهم في المدينة المقدسة كانت محدودة جداً، فقد كان هؤلاء الفرنجة في معظمهم من أصول فلّاحيّة أوروبية، وليس لديهم المهارات الحِرَفيّة التي تمكنهم من المساهمة بفعالية في الحياة الاقتصادية للمدينة والإندماج فيها، ذلك أنّ اقتصاد مدينة القدس كان على الاغلب لا يعتمد على الزراعة وما يرتبط بها، وإنما تعتمد حياة سكانها أساساً على الحِرَف اليَدَويّة والتي يكثر طلب الحاج الزائر عليها والخدمات المختلفة التي يتطلبها الحاجّ والزوار الذين يَفِدُون إلى المدينة كل سنة في موسم الحج والزيارة من كل أنحاء العالم، ولم يكن غالبية السكان الجدد ممن لديهم المعرفة أو الخبرة في أي منها[٨].

---

(٧) وليم الصوري، تاريخ الاعمال، ج ١ ص ٤٠٩.

(٨) ارجع إلى مقال برافر .

ويبدو أن حركة الهجرة المُسْتَمِرَّة من مدينة القدس، بالرغم من قدوم جماعات جديدة كل سنة في موسم الحجّ، هي التي دفعت ملك المملكة الفرنجية إلى إصدار قرارٍ باجراء تعداد سنوي للسكان والمساكن في المدينة، وأنه إذا وجد أي مسكن لم يشغل من قبل صاحبه مدة سنة واحدة ويوم واحد، فإنّه يُستولى عليه، ويصبح للملك حق التصرف به كما يريد(٩). ولكن هذا الإجراء لم يكن كافياً لتوطين الناس في القدس لتقديم الخدمات الضرورية التي كان يحتاج اليها من استقر من الناس فيها وآلاف الحجاج الذين كانوا يفدون سنوياً للحج وزيارة الأَماكن المقدسة، ووجد الملك بلدوين الأَول (١١١٠ - ١١١٨م)، كما يذكر المؤرخ وليم الصوري، «بأن المدينة المقدسة كانت خالية تقريباً من السكان إذ لم يكن فيها من الناس ما يكفي للأَعمال والخدمات التي تحتاجها الدّولة الجديدة. وبالفعل فقد كان السُكّان من القلة بحيث لا يكفون، في حالة هجوم مفاجيء لعدو على المدينة، لحماية أبوابها والدفاع عن الأبراج والأَسوار فيها» (١٠).

ولتصحيح هذا الخَلَل في توطين النَّاس في المدينة المقدسة، وجد الملك بلدوين الأَول أنْ لا بُدّ له من الإستعانة بالنصارى المحليين في فلسطين وشرق الأردن، أما نصارى فلسطين من سكان المدينة فقد كانوا قد تفرقوا في الأَرياف وفي المدن التجارية التي تقع على السَّاحل، ولذلك فقد قَرَّر الملك

---

(٩) وليم الصوري، تاريخ الاعمال، ج ١ ص ٤٠٩.

(١٠) وليم الصوري، تاريخ الاعمال، ج ١ ص ٥٠٧، ويدل هذا الأمر على أنَّ المملكة اللاتينية لم تتمكن من المحافظة على الأمن في المناطق التي خضعت لها خلال العقدين الأولين بعد تأسيسها فسكان القدس التي صارت عاصمة المملكة، كانوا قلة متناثرة ولم يشكلوا إلاّ جزاءاً من عدد سكانها في الأحوال العادية والذي يقارب عشرة آلاف نسمة، انظر Josiah C. Russel, "The population of the Crusader States", in *A history of the Crusades*, Vol. 5 : *The impact of the Crusades on the Near East*, ed. Norman P. Zacour and Harry W. Hazard, Madison, University of Wisconsin Press 1985, table 2, p. 306.

إحْضَار نصارى من المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن .

وكان الملك بلـدوين الأَول قد تَعرّف على أَوضْاع هذه المنطقـة عن كثب ، وذلك أَثناء الحملات التي قادها إلى جنوب شرق الأردن ، وتعرف على أوضاع النصارى فيها [١١] ، ولذلك فقد أرسل إلى أُولئك النَّصَارى طالباً منهم القدوم لسكنى المدينة وواعداً ايـاهم بمنازل خاصة بهم وحياة أفضـل من تلك التي كانوا يعيشونها في قُرى وأرياف المنطقـة هناك ، ويبدو أنهم قبلوا هذا العرض إذ وفدت عليـه بعد فترة قصيرة اعـداد كبيرة منهم حـاملين معهم زوجـاتهم وأبنائهـم وقطعان أغنـامهم ومـاشيتهم وكـل ما يملكـون ، كما جاءَ وايَّـاهم جماعات أُخرى ممـن لم يوجه الملك اليهـم الدعوة للقدوم . ومنـح الملك لهذه الجـماعـات جـزءاً كبيـراً مـن مدينـة القـدس ووهبهـم المساكـن القائمـة فيه [١٢] . وكان هذا الجزء يقع بمحاذاة السُّور الشمالي ، أضعف جوانب المدينة تحصينا وأَكثرهـا تعرضا للخَطر ، وعُـرِفَ هذا الجزء في الفترة الفرنجية بـاسم حَيِّ (حارة) النصارى السوريين تمييزا لهم عن حارة البطريرك التي استوطنها الفرنجة وحدهم .

وهكذا ما أنْ جاءت نهايـة العقد الثالث من اتخاذ مدينـة القدس عاصمة للمملكة التـي أقامهـا الفرنجـة في بلاد الشـام حتى كـان قسمان كبيران من المدينـة يعجـان بـالسُكّـان مـن الـلاّتين والنصـارى المحليين ، الأول «حـي البطريرك» ، الذي استوطن فيه الأوروبيون المحتلون وحيّ النصارى الشاميين الـذين استقـدمهـم الفـرنجة لـلاستفـادة منهـم في حماية المدينـة وفي تـوفير الخدمات الضرورية التي تحتاج اليها . وقد بَينَّا حُدود الحي الأول (البطريرك) التي تحددت منذ العقد السابع من القرن الحادي عشر الميلادي ، في ما تقدم

(١١) المصدر ذاته .

(١٢) وليم الصوري ، تاريخ الأعمال ، ج ١ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

من بحث[١٣]، أَما الحَيّ الثاني فقد شغل الأقسام داخل المدينة التاريخية التي تقع ضمن الحدود التالية :

كـان الحد الخارجـي لهذا الحي يمتـد مـن بـاب القـديـس اسطفـان (ستيفن) (باب العمود أو باب دمشق) في الجهة الشمالية من السُّور، ويمتد حتى الـزاوية الشماليَّة الشرقيَّـة منه حيث بـرج اللّقْلَق، والمنطقة التـي دخل منهـا الفرنجـة القدس ثـم التحصينات الجديـدة التي عـرفت بتحصينـات القديسة مريم المجدليّة، وتمتـد الحدود الشرقية للحي من هذه الزاوية وتسير جنوبـاً مع الأَسـوار حتى تصل إلى بـاب جهنم يهوشـوفات Jehoshaphat (باب أَريحا سـابقاً) الذي يقـع خارج أسـوار الحرم من الجهة الشماليـة، أَمّا الحد الداخلي فيبدأ مـن هذه البَوّابة الأَخيرة ويسير مع الشـارع العام المسمى باسم هـذه البوابة ويتجه غرباً حتـى يلتقي مع شارع الإسبان (طـريق الواد فيما بعد) ثم يسير مع هذا الشارع ويتجـه نحو الشمال الغربي حتى يصل إلى باب القديس اسطفان، ويبدو أن كنيسة القديسة حَنّة لم تكن ضمن حدود هذا الحي إذ كـانت كنيسـة للاتين وبـالتالي لم تخدم السكـان من النصـارى الشرقيين. ولذلك أقيمت فيـه كنيسة القديسة مريم المجـدلية لسُكّان الحَيّ الجديد من الأَرثوذكس[١٤].

وبالإضافـة إلى هذين الحَيينّ الكبيرين اللـذين ضما اللاتين الأوروبين اتباع الكنيسة الكـاثوليكية والارثوذكس الشرقيين اتباع الكنيسـة الأرثوذكسية وفروعها الشرقيـة، فقد استوطنت في المدينة جماعات أخـرى في أجزاء أخرى

---

(١٣) أنظر ص ٢٦ - ٢٧ من هذه الدراسة.

(١٤) أنظر خـارطة القـدس في كتاب : Michel Join-Lambert, *Jerusalem*, trans. Charlotte Haldane, Elek Books, London, 1966, p. 193.

منها» وذلك خلال القرن الثاني عشر الميلادي، فقد ازداد عـدد رجال الدين الأرمن، والأرمـن عامة، بالتـدريج في القدس خلال هـذه الفترة، واستقروا في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة حـول كنيسة القدّيس جيمس الواقعة إلى الشرق من القصر الملكي الجديد وعرف هـذا الحي داخل المدينة بحي الأرمن ولا يـزال، واستقرت جماعـات أخرى في بعـض المناطـق الخالية الأخـرى في المدينة، وكان آخر هـذه الجماعات من الألمان الذين أقامـوا حياً خاصاً بهم. فعندما زار الألماني جون أف فورتزبرغ John of Wurzburg القدس في العقد السابع مـن القرن الثاني عشر شعر بخيبة أمـل كبيرة لأنّه لم يجد أي مكان في المدينـة المقـدسـة ينسـب إلى الألمان أو يسمـى باسمهـم، بـالـرغـم مـن أن مشاركتهـم في الحملة الأولى التـي نجحـت في السيطـرة على المدينة كـانت كبيرة[(١٥)].

لكن بعد سنوات قليلة وجـد في القدس شارع الألمان، وفندق وكنيسة خاصـة بهم، أقيمت جميعـاً إلى الشرق من شـارع جبل صهيـون الذي كـان يصل إلى باب المدينة المعـروف بذات الإسم[(١٦)] ويقع إلى الجنوب مـن شارع المعبـد وطريـق باب السلسلـة والشمال مـن سوق الحلال ورتـق الدبـاغين. ويذكر جون أف فورتـزبرغ أيضاً وجود مجموعات قومية ودينيـة كانت تسكن المدينـة المقدسـة وكـان لكل منهـا كنيستهـا وربما فندقهـا الـذي يأوي اليـه حجاجها:

---

(١٥) *Description of the Holy Land.* trans. Aubrey Stewart, PPTS, New York, AMS Press, 1971. Vol. V p. 40.

(١٦) John of Wurzburg, *Description,* p. 69.

«كـان (في القدس) اليـونـان والبلغـار واللاتين والألمان، والمجـريـون والإسكتلنـديـون والنـافـاريـون والبريطـانيـون والإنجليـز والفـرنـج والـروثنيايـون والبـوهيميـون والكرج والارمـن واليعـاقبـة والسوريـون والنساطرة والهنود والمصريون والأقباط . . . والموارنة وآخرون»[١٧].

وكان من نتائج إقامة مملكة الفرنجة في فلسطين وتمكنها من تثبيت نفوذها في المدن والأرياف المجاورة للقدس، والمحافظـة على الأمن على طريق الحاج الرئيسي الـذي يصل من يافـا الى الأماكن المقـدسة[١٨]، كان أن ازداد عـدد السكان في المدينة بالتدريج بحيث بلغ عـددهم في أواسط العقد التاسع من القرن الثاني عشر الميلادي عشرة آلاف نسمـة يقيمون بصفة دائمة[١٩]، لكن هذه الزيـادة المستمرة أدت، كما يبدو إلى بروز مشكلـة أساسية وهي تـزويد هذه الاعداد الكبيرة مـن السكان بحاجتهم من المواد الغذائيـة، خاصة وأن كل المواد التي كانت تدخل المدينة كـانت تدفع ضريبة للسلطات الرسمية. وهذا الوضع هو الذي دفع بطريرك المدينـة المقدسة اللاتيني آنذاك إلى تقديم طلب إلى الملك بلدوين الثاني في سنة ١١٢٠م يتمنى فيه الغاء الضريبة التي تدفـع على المواد الغذائية التـي تجلب إلى المدينة، فـأصدر الملك، استجـابة لطلب صاحب السلطة الفعلية في أكبر حي في المدينة، الأمر التالي :

---

(١٧) المصدر ذاته ص ٤١ .

(١٨) كان الطريـق بين يافا والقدس والـذي يمر بعمواس وبيت نـوبة أكثر الطرق استعمالاً مـن قبل الحاج من أوروبـا، وكان هـذا الطريق يتعـرض لغارات العـرب والمسلمين في عسقلان والمنـاطق الجنوبيـة من فلسطين، وكـان للمحافظة على الأمـن على هذا الطـريق دور كبير في قيـام المؤسسة العسكرية الدينية التي عرفت باسم (الدّاويّة).

(١٩) أنظر الحاشية رقم (١٠) أعلاه ص٥١ .

«أنا بلدوين الثاني، . . . استجابة مني لصلوات أبينا البطريرك جورمون Gaurmund واستجابة مني لرجـال الدين وأبرشية Chapter مدينة القدس المقدسـة، آمر وبموافقـة من النبـلاء (في المملكة) الآن وفي المستقبل بـالغاء الضرائب والـرسوم التـي كانـت تجبى عنـد باب المدينـة من الـذين يجلبـون الحبوب والخضروات . . . وفي الحقيقـة فقد كانـت هذه الرسـوم عبئاً (على الناس) وضـارة (بالمصلحة) ليـس فقط بالنسبـة للذين يـأتون لزيـارة كنيسة القيامة وإنما أيضاً لكل سكان المدينة المقدسة، ولذلك فإنني أسامح كل من يرغب بإحضار الحبوب والخضروات والفاصوليا والعدس والبازيلا إلى داخل أبواب القدس من دفع أي شيء، وستكون لهم الحرية بالمجيء اليها والخروج منها وان يبيعوا دون أي اعـاقة في أي مكان ولأي كان سواء أكـان (البائعون) من النصارى أو المسلمين» [٢٠].

وفي مجتمـع مـدينة القـدس هـذا، المتنـوع الاجنـاس والمذاهب الـدينيـة المسيحيـة كان يمكـن التمييز بين الفئـات المختلفـة التي استـوطنت المدينـة بسهـولة، وذلـك من طـريقة لبـاسهـا والاسلوب الـذي كان رجـالها يربـون لحاهم. فـالحاج المجهول الـذي زار المدينة المقـدسة قبـل أقل مـن سنة مـن استيلاء صـلاح الدين عليها سنـة ١١٨٧م، والذي دون اخبار زيارتـه هذه فيما بعد، يقدم لنـا وصفاً دقيقاً لمعظم الجماعـات الدينية التي كـانت تسكن المدينة، بحيـث كان يستطيع أي متجول في شـوارعها وأحيائهـا أن يميز بين مختلف الجنسيات والفئـات الدينية التي كانت فيهـا، ونستطيع أن نتبين من ملاحظاته الفئات الرئيسية وملامحها المميزة الخاصة بها كالتالي :

(٢٠) أنظر : : *Cartulaire Sepulchre*, 1849, p. 83-85 as translated in Peters, *Jerusalem* : *The Holy City in the eyes of the Chroniclers* . . . . . , Princeton, Princeton University Press, 1985, p. 306.

«كان (اللاتين أو الفرنجة) متمرسين في القتال(ويبدو ذلك من ملامحهم) وكانت رؤوسهم عارية من أي لباس، والوحيدين (من بين رجال المدينة) الذين يحلقون لحاهم.

أما اليونانيون فأذكياء ومهرة، ويربون شعر لحاهم طويلاً وباسلوب معين خاص بهم، لكنهم لم يكونوا متمرسين في استعمال الاسلحة.

ويختلف النصارى السوريون عن كل الجماعات الأخرى (التي كانت تسكن المدينة) فهم عديمو الفائدة في الحرب من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا على الأغلب لا يتركون لحاهم تنمو طويلة كاليونانيين وإنما يقصونها بأسلوب معين، وكانوا (يخضعون) وتابعين في كل مكان للشعوب الأخرى، وكانوا يتحدثون اللغة العربية، وكانوا مع ذلك يشبهون اليونانيين في جوانب أخرى من حياتهم.

وأما الأرمن الذين كان عددهم كبيراً في المدينة آنذاك [٢١]، فيختلفون في كثير من المجالات عن اللاتين وعن اليونانيين، فلهم لغتهم الخاصة بهم، كما كان لديهم بعض الخبرة في استعمال الاسلحة.

والكرج (سكان جورجيا الواقعة بجانب أرمينيا) فلهم أيضاً لغتهم الخاصة بهم، وأسلوب خاص في تربية لحاهم وترتيبها، ويلبسون نوعاً خاصاً من القبعات، فقد كانوا يتركون شعورهم تطول كثيراً ويلبسون قبعات مكعبة وطويلة.

وجميع الكرج، من رجال الدين ومن الرجال العاديين، كانوا يلبسون

---

(٢١) يظهر ذلك من الاشارات التي ترد في المصادر العربية التي عالجت فتح صلاح الدين للقدس واعداد الأرمن التي سومحت من دفع الإتاوة لشفاعة أمراء الجزيرة الفراتية بهم على أساس أنهم من رعاياهم.

الـ Tonsure حيث يكون مـدوراً عند الفئة الأولى ويكون مـربعاً عند الفئة الثانية . . . ويقلدون اليونانيين في كل ما عدا ذلك»[٢٢].

هذا ولا تزودنا المصـادر المعاصرة بأوصاف مشابهة أو موازيـة للباس نساء مختلف الفئات المذكورة التي كانت تقطن في مدينة القدس ، ويبدو أن طبيعة الحيـاة الاجتماعية لهن كـان لها أثـر في ذلك ، لكـن لا بـد مـن وجود بعـض الاختلافـات نظراً لاختـلاف الجذور التاريخيـة والبيئية والعـادات والتقاليـد الاجتماعية للفئات والجماعات المختلفة التي استوطنت في المدينة التاريخية .

---

(٢٢) *Anonymous pilgrims*, in *PPTS*. New York, AMS Press, 1971, (Rep. of 1894 ed.) Vol. 4, p. 27-29.

٢ - المجتمع والحياة الاجتماعية

كـان لمدينة القـدس، قبل احتـلال الفـرنجة لها سنـة ١٠٩٩م، تكويـن اجتماعي واداري مثل أي مدينة إسلاميـة أخرى في بلاد الشام تماثلها في عدد السكان، ومع ذلك فقد كانت تختلف عن المدن الاسلامية الأخرى في بعض جوانب تكوينهـا ونظام حياتها نظراً لكونها مدينة مقدسـة تضم فئات بشرية تمثل أتبـاع الديانات السماويـة الثلاث. وأوجد هذا التعـدد والاختلاف بين سكان المدينة نشاطات دينية واجتماعية مميزة وخاصة بها، وبصورة عامة فقد كان مجتمع القدس في القرن الحادي عشر الميلادي يتكون من فئتين رئيسيتين هما فئة الخاصة وفئة العـامة، فأما فئة الخاصة فقد كانـت تتكون من الوالي، الذي كان على الأغلب قائد الحامية العسكرية، وكبار رجال الإدارة في المدينة وأفراد الحامية العسكرية الفاطمية التي كـانت تتكون من عناصر مختلطة من الأتـراك (الفرسـان) والسودان والبربـر (الرجـالة) وعنـاصر أخرى، أو مـن الاتراك والتركمان في فترة حكـم هؤلاء للمدينة والتـي تحدثنا عنها سـابقا [١].

وأما عـامة النـاس من سكـان المدينة فقد كـانوا يتكـونون مـن العلماء وكبار التجار الذين كانوا يشكلون القيادة لفئـات العامة وحلقة الوصل بينها وبين فئـات الخاصـة، واصحـاب المهـن والحرف المختلفـة، الـرفيعـة منهـا أو الوضيعة، كما يظهر ذلـك واضحاً من الاسواق المتخصصة بأنـواع معينة من السلع أو المنتوجات والأعمال، التي يـذكرها ناصر خسرو في رحلته [٢]، وغير هؤلاء مـن فئات العامـة الذين كـانوا يقدمـون الخدمات المختلفة التـي كان سكان المدينة يحتاجونها.

---

(١) ينطبـق هذا الـوصف على ممثلي السلطـة في المدينة، وكـان للنصارى واليهـود فئاتها الخاصـة على الأغلب والتي تتمثل برؤسائها خاصة بطريرك المدينة.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامة. ص ٥٤ - ٥٧.

وتركـزت ادارة المدينة في الفترة السابقـة للاحتـلال الفرنجي حـول الوالي، ممثل الخليفـة الفاطمي أو السلطـان السلجوقـي، في القدس والمناطـق التي كانت تتبعها، والذي كان في الوقت ذاته قائد الحامية العسكرية في المدينة، وكان يساعد الوالي في ادارة المدينة والولاية موظفون خاصون يمثلون الدواوين المركزيـة الرئيسية، وكان القـاضي أبرز هؤلاء الموظفين في أي مدينـة من المدن الكبيرة التي كـانت مـراكز لـوحدات إداريـة خاصـة، وكان يتبعـه الشهود والكتاب الـذين كـانوا مسـؤولين عن الأعمال الكتـابية التـي يتطلبها عمـل القضاء والأحكام. وكان القاضي يدير شؤون القضاء في المدينة والمناطق التي حـددها عهـد ولايتـه طبقـاً لأحكام الشريعـة الإسـلاميـة، الفقه الشيعـي الإسماعيلي بـالنسبة لقضـاء الدولـة الفاطميـة، والفقه السنـي (الشافعـي) بالنسبة لقضاة التركمان - الأتراك، ويخضـع للقاضي كل المسلمين في المدينة وما يقـع من خصـومات وجنايـات بينهم، مـا عدا المظالم التـي كانـت من اختصاص الوالي الذي كان يقوم بحلهـا على الأغلب في مجالس خاصة تعقد بحضور القـاضي ليسترشد الوالي بـرأيه عند الحاجـة، أما أهل الكتـاب من النصـارى واليهود فقـد كانـت تحكمهـم تشريعاتهم الخاصـة بهم ومن قبـل قضاتهم، ما عـدا الأمور التي يكون أحـد المسلمين طرفاً فيها مـع أحد أهل الكتاب، فترجـع القضية عندئذ إلى القاضي المسلـم. وإضافة إلى مـا تقدم فقد كان في المدينـة مؤسسات الشرطة والحسبة، ولكـلٍ صاحبها الخاص بها (وربما جمعت مـع بعض) والقاضي وأعوان تـابعين له ورجال بعددٍ منـاسـبٍ للقيام بإدارة الشؤون الخاصة بهم في المدينة (٣).

---

(٣) تمثل هذه المؤسسات التي ذكرت المؤسسات التي كانـت عادة في مركز ولاية متوسطة الحجم، وقد كانت القـدس مركز ولاية مـن هذا النوع في الفترة الفاطميـة والفترة التركمانية، وتذكر بعـض هذه المؤسسات في المصادر العربية أما البعض الآخر فيمكن استخلاصه من معلومات متأخرة، وخير مثال على ذلك وجود المحتسب في الادارة الفرنجية للمدنية والذي استخدم بلفظ Methessep.

وبعد احتـلال الفرنجـة للقدس في سنـة ١٠٩٩م تغيرت كل هـذه البنى الاجتماعيـة والادارية في المدينـة وحلت محلهـا بنى جـديدة تتنـاسب وحيـاة الجماعات البشرية المختلفـة ذات الأصول الاجتماعية والثقافيـة المختلفة التي استوطنت في المدينة العريقة .

كان السكـان الجدد في القدس ، في بـداية سيطـرة الفرنجـة عليها ، مـن الأصول البشريـة اللاتينيـة التي شاركـت في الحملة الفـرنجية ، وكـان هؤلاء يتكونون من الفئات الاجتماعية التالية :

رجال الـدين ، الفئـات الخاصة وفئات العـامة . وشكـل رجال الـدين ، بـرئاستهم المتمثلـة ببطريـرك اللاتين ، فئـة كبيرة كان لها امتيـازاتها الواسعـة خاصـة داخل مدينـة القدس ، وكـان لها دور كبير في حياة المدينة ، أمـا فئة الخاصة فكانت تتكون من الملك وخاصته وكبار النبلاء وتابعيهم والبارونات والفرسان ، واستوطن هؤلاء جميعاً في المدن [٤]، خاصة مدينة القدس ، ومنهم كانت تتكون الطبقـة الحاكمة في مملكة بيت المقدس الفرنجيـة والقوة المقاتلة الأساسية فيهـا ، وتكونت فئات العامـة من بقية الجماعات التـي شاركت في الحملة والتي كانت على الأغلب من فئات الفلاحين الأوروبين الذين دفعهـم الحـماس إلى مشاركـة الفئات الأولى في التوجـه إلى فلسطين ، يذكر ج . برافر J. prawer "علينا أن نبحث بين هؤلاء Pedites الأحرار الذين صاروا كذلك نتيجة للمشـاركة في الحملة الصليبيـة لمعرفـة العناصر التي شكلـت فيما بعد طبقة البرجوازية »[٥](أو الطبقة المتوسطة في الإمارات الفرنجية) .

---

(٤) أنظر J. Prawer, "Social Classes in the Latin Kingdom" in *A history of the Crusades,* Vol. V, p. 130.

(٥) المصدر ذاته ، ص ١٤٥ .

ومن الواضح أن غالبية من استوطن في مدينة القدس في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، أي في بدايات تـأسيس المملكة الفرنجية، كانـوا يرجعون إلى أصول فـلاحيَّة أوروبية، ولـذلك فقد كـانوا لا يملكون المؤهـلات الفنية في المهن والحرف والخدمـات التي كـانت تشكـل الأساس في اقتصـاد المدينة. والحادثة التالية خير دليل على مستوى المهارات المهنية لهذه الجماعات، فأثناء حصار القدس الذي تم في حزيران - تموز ١٠٩٩ لم يتمكن الجيش الفرنجي في البدايـة «من بناء أبراج الحصـار وغيرها من الآلات إلاَّ بعد وصـول بعض سفن الجنويين إلى ميناء يـافا محمّلة بالمواد الضرورية لذلـك، وبالعمال المهرة ذوي الخبرة في مهارات البناء المعقدة» (٦).

ولكـنَّ استقرار هـؤلاء الفلاحين في القـدس وعيشهم فيهـا بصورة دائمـة اضطـرهم بصـورة تـدريجية إلى التكيّـف مع أنماط الحيـاة الاقتصـادية فيهـا ليتمكنـوا من كسـب معيشتهم، وبـدأت تظهر في المدينـة بالتـدريج طبقـة جـديـدة مـن السكـان مـن غير النبـلاء والأشراف والفـرسـان أصحـاب الاقطاعـات، وهي الطبقة الوسطـى التي صار لها دور كبير في حيـاة المدينة الإقتصاديـة وغير ذلك مـن الفعاليات كـالمشاركة في الـدفاع عنهـا في حال تعرضها لهجوم خارجي.

وينسب ج. برافر بـدايات ظهور أو تكون هذه الطبقة في مـدينة القدس إلى الامتيازات التي منحها الملك بلدوين الأول إلى(Cannons) رجال الدين في كنيسة القيامـة وبموجب هذه الامتيـازات سمح الملك لرعيتـه من النبلاء والفرسـان والطبقـة المتوسطـة بهـبة مداخيلهـم أو أجـزاء منها إلى كنيسـة القيامة (٧)، وكان ذلك أول مرة يرد فيها ذكرهم كفئة مميزة في البنية الاجتماعية للمدينة.

(٦) وليم الصوري، تاريخ الاعمال. ج ١ ص ٣٥٥.

(٧) J. Prawer, *Social Classes* . . . . . , p. 145.

وتحددت مكانة هذه الفئة الاجتماعية في التنظيم الاجتماعي للمدينة المقدسة بعدد من العوامل منها كونها تعيش داخل أسوار المدينة، و عدد أفرادها الكبير بالنسبة لمجموع السكان من اللاتين، والحرف والمهن التي يعملون بها (٨). ويذكر جان ريشار في كتابه عن تاريخ المملكة اللاتينية ما يلي : «من المحتمل أنه كان . . . للبرجوازية في مدينة القدس دور غير عادي تقوم به، وأنه لم يكن يفصل أعلاهم (في المكانة الاجتماعية في طبقته) عن فئة صغار الفرسان الاّ القليل (من حيث البنية الاجتماعية للمدينة) (٩)، فقد شكل هذا الدور الذي كانوا يقومون به في المدينة عصب الحياة الاقتصادية فيها، كما كانوا يقدمون للجيش في وقت الحرب حوالي خمسمائة سرجندي (Sergeants) (١٠)، وهو عدد كبير بالنسبة لعدد سكان المدينة ككل. وكان يُنظم حياة هذه الطبقة في المدينة قوانين خاصّة بهم تقوم بتنفيذها محاكم خاصة هي ما عرف بمحاكم البراجسة (burgesses) نسبة اليهم، والتي كان يخضع لسلطتها الفرنجة من السكان فقط «لأن البراجسة (الطبقة المتوسطة) في القدس لم يشملوا اطلاقاً السكان النصارى المحليين» (١١).

وشكلت الهيئات العسكرية الدينية فئات اجتماعية متميزة من بين سكان المدينة فقد كانت الدّاويّة والإسبتارية، اللتان جعلتا من مدينة القدس مقراً

---

(٨) المصدر ذاته، ص ١٥٠ .

(٩) J. Richard, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, trans Janet Shirley, Amsterdam, North-Holland publishing company, 1979,p. 122.

(١٠) المصدر ذاته، ص ١٢٦ .

(١١) أنظر : J. Prawer, "Social Classes . . . ." ; " The origins of the court of Burgess- es" in *Crusader institutions;* p. 263-295.

رئيساً لهما من أبرز فئات السكان فيها، ولم تكونا تشكلان جزءاً عضوياً مكملاً لبقية الفئات التي ضمها المجتمع الطبقي المجاور الذي أقامه الفرنجة في مدن الشرق الاسلامي، ككبار النبلاء والفرسان والبرجوازية ورجال الدين على الرغم من الدور العسكري الكبير الذي كان لهما في خلال القرن الثاني عشر الميلادي / القرن السادس الهجري. وكان أبرز ما يميز وضعهما القانوني في المدينة أنهما لم تكونا تخضعان لسلطة الملك المباشرة أو المؤسسات المختلفة التي أقيمت لتنظيم حياة المجتمع، وإنما كانتا تخضعان لمجموعة الأنظمة والقواعد التي وضعت لهما [١٢]، من قبل الكنيسة الكاثوليكية أو حظيت بمصادقة البابوات. وحتى بطريرك كنيسة القيامة، الذي كان بدوره تابعاً للبابا، لم يكن له نفوذ فعلي عليها، إذ كان ارتباطها - كهيئات مستقلة بالبابا نفسه، وبذلك فقد شكلت هاتان الهيئتان مجتمعات صغيرة متكاملة داخل المجتمع الفرنجي الأوروبي، وكان يمكنهما - على هذا الأساس - التعامل مع العالم الخارجي، مثل العلاقات مع الإمارات الإسلامية، بصورة مستقلة تماماً عن ملك بيت المقدس أو الإمارات الفرنجية الأخرى.

أما النصارى المحليون من سكان القدس فكانوا يشكلون المجموعة الأكبر من العناصر غير الأوروبية التي كانت تقطن المدينة، ولكن مكانتهم الاجتماعية في البنية الطبقية للسكان لم تصل حتى إلى مستوى أقل المجموعات الأوروبية وأدناها في السلم الاجتماعي في عاصمة المملكة الفرنجية اللاتينية، بالرغم من الدور الكبير الذي كان لهم في حياة المدينة. وكان أساس تعامل الدولة معهم قائماً على عدم الثقة بهم خاصة فيما يتعلق

---

(١٢) أنظر عن الأنظمة والقواعد التي كانت للداوية Stephen Howarth, *The knights Templer.* London, Collins, 1982. Chap. 2

أما بالنسبة للاسبتارية فانظر : J. Riley - Smith, *The knight of St. John,* Part 2.

بالأعمال العسكرية، وكانت هذه الفئة من السكان تقطن في حيِّها الخاص بها، مثلما كانت الفئات الدّينيّة العرقية الشرقيّة الأُخرى كالأرمن والكرج. وكانت أمور هذه الفئات تنظمها قوانينها وشرائعها التقليدية، كما كان لها محاكمها الخَاصَّة التي فيما بينها تفصل ببعض الأمور التي تخصها، إضافة إلى «محاكم الرؤساء» (للمجتمعات الصغيرة) التي كانت تقضي كما يقول جان ريشار، بالقضايا المتعلقة بالأمور الثانوية، طبقاً لعادات كل مجتمع منها الخاصّة (١٣).

كانت مدينة القدس، طوال فترة السيطرة الفرنجية الأولى، عاصمة المملكة الفرنجية اللاتينية في فلسطين، وكان الملك الفرنجي هو رأس دولتها وادارتها، وكان ينوب عن الملك في ادارة شؤون المدينة ما كان يعرف بالـ Viscount (الكونت النائب) (١٤)، وكان هذا الاداري مسؤولاً عن الادارة المالية وجمع الضرائب التي تستحق للدولة على النشاطات الاقتصادية المختلفة في المدينة ورأس الادارة الامنية فيها وغيرها من الأمور. ويبدو أن من أبرز مساعدي هذا النائب في مجالات محددة هو المتحسبْ (Methessep) الذي كان يُشرف على الأسواق في المدينة وما يتم فيها من بيع وشراء. وربما كانت هذه الوظيفة الفرنجية منقولة عن وظيفة المحتسب الإسلامية التي عرفتها كل المدن الإسلامية (١٥). ويبدو هذا التأثير الكبير واضحاً من الواجبات والأعمال التي كان يقوم بها «المتحسب»، والتي حددها القانون الفرنجي بدقة كما يتبين لنا من النص التالي:

---

(١٣) أنظر: J. Richard, *The Latin Kingdom*, Vol. A., p. 223

وأيضاً John La Monte, Feudal Monarchy in the *Latin Kingdom of Jerusalem*. New York, 1970, (reprint of 1932 ed). p. 108.

(١٤) كان نواب الكونتات على الأغلب، كما يقول جان ريشار، من الفرسان، المصدر ذاته ص ٢٢٢، أما بالنسبة لـ ج. برافر، فقد كان باستطاعة حاكم المدينة أن يعين نائب الكونت دون موافقة من البراجسة، لكن كان عليه أنْ يأخذ بنصيحتهم عند إعلانه قرارات تتعلق بالمدينة.

(١٥) أنظر: Peters, *Jerusalem*, p. 301.

«واجب المتحسب ان يذهب كل يوم إلى الأماكن العامة، وبمعنى آخر (عليه أن يذهب) إلى دكاكين اللحّامين وإلى الأماكن التي يباع فيها الخبز والنبيذ وغيرها من الأشياء، وعليه أن يهتم ويتأكد (بأن المعاملات من بيع وشراء) لا يقع فيها أي (غش) أو خداع وأن ليس من نقص في كميات الخبز (في الأسواق) كما أمرت المحكمة، وأن الأسعار المقررة (والمُعْلَنة) يجب أن تراعى خاصَّة بالنسبة للخبز والنبيذ وأثمان الأطعمة والسمَك . . . ولذلك فعليه أن يدور (على أسواق) المدينة للإشراف على هذه الأمور . . . . .

«ولتحقيق هذه الأهداف يجب أن يكون عنده (المتحسب) عدد من المفتشين (الأعوان) (في الأسواق) يقدمون له التقارير عن المخالفات التي تقع والتي لا يستطيع اكتشافها بنفسه، وعليه بدوره أن يقدم تقريراً بما توصَّل إليه من مخالفات الى الكونت النائب. وإذا اكتشف أنَّ أحد الأفراد يتصرف بصورة غير لائقة أو اتهم بذلك، فيجب عليه أن يوقف ذلك الشخص من قبل سرْجَنْدي أو اثنين اللذين يجب أنْ يكونا معه معظم الأوقات وقدر الإمكان، وأن يحضر المتهم أمام الكونت النائب ويوضح له التهمة أو الجريمة، وإذا لم يكن بمقدور النائب، لسبب ما الاستماع للتهمة، فإن المتحسب يستطيع القيام بذلك ومعاقبة المتهم بالسجن، ثم يعرض القضية في أقرب فرصة ممكنة على الكونت النائب. وعليه فإنَّه يستطيع اعتقال أي شخص ويودعه في السجن، ولكنه لا يستطيع ويجب أنْ لا يعطى الحَقّ باطلاق أحدٍ من السجن دون أمر من الكونت النائب أو المحكمة . . . وهو مسؤول أيضاً وبمعاونة أو مرافقة السرجندية، على مرافقة المحكوم عليهم إلى مكان عقابهم، وكذلك الذين حكم عليهم بكسرٍ أو قطع (فقدان) أحد أطرافهم أو قتلهم . . . . »[١٦].

---

(١٦) هذا النص ترجم من ترجمة بيترز الإنكليزية في *Jerusalem*, p. 301 - 302

النص في *Recuiel Lois* الجزء الثاني ص ٢٤٣ - ٢٤٤

وكانت السلطات التي أعطيت للكونت النائب أو المتحسب تشمل كل السكان في مدينة القدس الذين يعملون في الحرف والمهن، وكان مكان عملهم عادة في الأسواق، حيث كان يتجمع أصحاب كل مهنة أو حرفة معينة في سوق أو منطقة خاصة بهم كما كان الحال في المدينة قبل احتلال الفرنجة لها، مما كان يسهل عمل المتحسب وأعوانه من المشرفين والمفتشين. ولذلك نجد في المصادر المتوافرة لدينا إشارات لوجود أسواق أو أماكن خاصة في مدينة القدس للطباخين وصرافي النقود من الاوروبين والسوريين المحليين، والحَدَّادين وأصحاب صناعة الجلود والدَبَّاغين والقطانين وغيرهم، إضافة إلى أسواق للحبوب والماشية (١٧)، أما في الجوانب الأخرى من حياة هؤلاء الناس فقد كانوا يخضعون لمحاكمهم الخاصة بهم أو للمحاكم العليا في البلاد.

ومن مظاهر الحياة العامة البارزة في مدينة القدس، كثرة الاحتفالات الدينية والأعياد وغيرها من المناسبات والتي كانت تشارك بها أعداد كبيرة من الناس والحجاج القادمين من مختلف أنحاء العالم المعروف آنذاك. وكان عدد هذه الاحتفالات والمناسبات في المدينة المقدسة خلال القرن الثاني عشر الميلادي في ظل السيطرة الفرنجية كبيراً جداً، خاصة ما تضمنته قائمة الكنيسة من مثل هذه الاحتفالات. وكانت احتفالات عيد الفصح المجيد كل سنة أهم هذه الاحتفالات والمناسبات الدينية على الاطلاق.

وقد أضيفت إلى الاحتفالات والأعياد الدينية أعياد ومناسبات جديدة خلال الفترة الفرنجية مثل الاحتفال السنوي بيوم استيلاء الفرنجة على المدينة في الخامس عشر من تموز، والاحتفال كل سنة بذكرى انتخاب الدوق غودفري حاكماً للمدينة بعد ذلك بثلاثة أيام، والاحتفال بتتويج الملك عند

(١٧) هذه المعلومات عن الأسواق تجدها في كتب الرحلات وزيارات الحُجَّاج لمدينة القدس خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

إختيـار ملـك جديـد. وقـد أدخلـت هـذه الاحتفـالات كجزء مـن أعيـاد واحتفالات المدينة المقدسة بعد سنة ١٠٩٩م[١٨].

كان الاحتفال بعيـد الفصح المجيد بمدينة القدس أهـم الاحتفالات التي تشهدهـا المدينة على الاطـلاق، وهو احتفـال قديـم جداً ويـرتبط بـالمدينة المقدسة. وقد استمر هذا الاحتفال خلال الفترة الاسلامية خاصة زمن حكم الفاطميين لها حيث اشتهـر في سجلات مصر حج الأقباط السنـوي اليها. فقد ذكـر المقريزي «أن النصارى الأقبـاط في مصر كانوا يخرجون كـل سنة في موسم الحج بـأعداد كبيرة وبتجمل عظيم - مثلما يعمل المسلمـون في موسم الحج إلى مكة - لأداء الحج والقيام باحتفالاته بكنيسة القيامة بالقدس»[١٩]. أما يحيى بن سعيـد الأنطاكي، الذي عاصر الربـع الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فيذكر أنه كان من عادة نصارى القدس في كل سنـة أن يحملوا في أحد الشعانين شجـرة زيتون في احتفال كبير يبـدأ من كنيسة اللعـازارية في ضواحـي القدس إلى كنيسـة القيامة، حيـث يمرون في شوارع المدينة رافعين الصليب عـالياً ويصلون ويترنمون بالأناشيـد الدينية، وكان الوالي يركب مع رجاله معهم ليمنع الناس من التعرض لهم بأذى[٢٠].

وأما خلال الفترة الفرنجية فقد اختلفـت احتفالات أحد الشعانين بعض الشيء عن السابق، ويتوافر لدينا عنها تفاصيل دقيقة، حيث كان الاحتفال يجري كالتالي:

---

(١٨) لوصف مفصل لهذه الاحتفالات انظر:

J. Prawer, *The Latin Kingdom of Jerusalem*. London, Wieden field and Nicolson, 1972, p. 176 ff, and the sources in his notes.

(١٩) اتعاظ، ج ٢، ص ٧٤ - ٧٥.

(٢٠) يحيى بن سعيد، تاريخ، ص ١٩٤.

فقبل شروق الشمس يوم الأحد المذكور كان يتجمع رجال الدين من جميع كنائس القدس وما حولها من جبل صهيون وجبل الزيتون ووادي جهنم، وعلى رأسهم البطريرك، ويتوجهون إلى اللعازارية وكان صاحب خزائن كنيسة القيامة يحمل الصليب المقدس إلى نفس المكان، وفي ذات الوقت الذي يتوجه به رجال الكنيسة إلى هذا المكان، كان يتجمع سكان المدينة ومن فيها من الحجاج في ساحة قبة الصخرة، التي تحولت آنذاك إلى كنيسة لاتينية، وهم يحملون عيدان النخيل وأغصان الزيتون. وكان يقوم أحد كبار رجال الدين الذي يرافق هذه الجماهير بمباركة ما كان يحمله السكان من عيدان وأغصان، ثم يقود المحتفلين من ساحة الصخرة إلى باب أريحا (يهوشوفات) ومن ثم يخرجون عبر هذا الباب إلى وادي جَهَنّم.

وفي هذا الوادي كان يلتقي رجال الدين والبطريرك حاملين الصليب مع جماهير النَّاس المحتفلين ويتحرك الموكب الذي يقوده البطريرك ورجال الدِّين بعد ذلك باتجاه البوابة الذهبية (باب الرَّحمة في المصادر الإسلامية) الذي يُفْتَحُ خصيصاً كُلّ سنة من أجل هذه الاحتفالات، ثم يعاد سَده بعدها، حيث يدخلون إلى ساحة قبة الصخرة، وبعد إدارة الصليب المحمول في ساحة المسجد الأقصى بعض الوقت، كانت الاحتفالات تنتهي باقامة الصلوات في ساحة قبة الصخرة(٢١)، وبعدها يتفرق الناس. ومن إحتفالات عيد الفصح المجيد الهامة والقديمة التي ترد في المصادر الإسلامية والفرنجية احتفال ظهور (النار المقدسة) والتي وصفها بدقة وتفصيل الحاج والرحالة الروسي دانيال(٢٢)، والتي كان يحضرها الملك الفرنجي وكبار رجال دولته ورجال مختلف الكنائس والحجاج وغيرهم من سكان المدينة من النصارى.

(٢١) أنظر: J. Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 178

(٢٢) أنظر: *The Pilgrim of the Russian abbot Daniel in the Holy Land*, 1106 - 1107, A.D. Trans. C. W. Wilson (AMS Press, New York, 1971 (reprint of 1895 ed.) in PPTS, Vol. 4, P. 74 ff.

وكان من بين الأعياد الجديدة التي استحدثها الفرنجة في القدس الإحتفال بيوم الخامس عشر من تموز كل سنة، وهو اليوم الذي تمكن فيه الفرنجة من اقتحام أسوار المدينة والإستيلاء عليها. ففي الصباح الباكر من هذا اليوم، كان البطريرك اللاتيني يقود مسيرة من كنيسة القيامة إلى معبد الرب (قبة الصخرة) داخل حدود الحرم الشريف، وهناك كانت تتوقف المسيرة بعض الوقت لإقامة الصلوات أمام المدخل الجنوبي لقبة الصخرة في الساحة الواقعة بينها وبين المسجد الأقصى. وبعد الانتهاء من الصلاة كان المجتمعون يتوجهون إلى خارج الأسوار في الجهة الشمالية حيث قبور الفرنجة الذين سقطوا أثناء دخولهم المدينة. وبعد الإنتهاء من ذلك كانت المسيرة تعود إلى المدينة وتعبر الشّارع العام (يهوشوفات) الواقع خارج أسوار الحَرَم الشمالية، وتسير باتجاه السُّور الشمالي للمدينة حيث المنطقة التي دخل الفرنجة منها إلى المدينة والتي تقع قرب برج اللقلق(٢٣)، وفي هذا المكان كان البطريرك يلقي موعظةً بالنّاس المجتمعين ثم تقام صلوات الشكر، وبعدها يتفرق النّاس.

وبعد هذا الاحتفال بثلاثة أيام، كان يقام الإحتفال بالذكرى السنوية للدوق غودفري أول حكام المدينة الفرنجة، وكان هذا الاحتفال، كما يذكر الحاج الألماني جون اف فورتزبرغ، احتفال يهتم سكان المدينة فيه بإعطاء الصدقات الكثيرة في الكنيسة كما كان يفعل غودفري نفسه عندما كان حيا(٢٤).

وكان تتويج ملك جديد لمملكة بيت المقدس من المناسبات التي تقام فيها احتفالات خاصة في عاصمة المملكة، وكان تتويج الملوك، منذ بلدوين الثاني، يتم في كنيسة القيامة، فبعد الإنتهاء من المراسيم الدينية للتتويج في

---

(٢٣) John of Wurzburg. *Description*, p. 39 - 40.

(٢٤) المصدر ذاته، ص ٤٠

الكنيسة تبدأ الإحتفالات بمسيرة عبر شوارع المدينة تبدأ من كنيسة القيامة وتنتهي بقصر الملك حيث تقام وليمة كبيرة كان يُدعى اليها كل نبلاء المملكة وفرسانها، وكانت العادة المتبعة والمعروفة في هذا الاحتفال أن أفراد الطبقة المتوسطة في القدس هم الذين يقومون بإعداد هذه الوليمة [٢٥].

هكذا كانت أوضاع مدينة القدس خلال الفترة الفرنجية على الأقل بخطوطها العامة والتطورات التي شهدتها في مدة تقارب تسعة عقود لم يتعرض فيها خلالها أهلها من الفرنجة ومن النصارى الشرقيين لأي خطر خارجي خطير خاصة بعد استقرار الأوضاع في مملكة بيت المقدس الفرنجية. وفي العقد التاسع من حكم الفرنجة للمدينة إزداد تَحدِّي صلاح الدين لإمارات الفرنجة، وتوج هذا التحدي بمعركة حطين (تموز ١١٨٧م) الحاسمة وما تبعها من سيطرة أيوبية على معظم فلسطين ودرتها القدس.

(٢٥) J. Richard, *The Latin Kingdom,* Vol. A., p. 129

٥ - بعد حطين : إعادة المسلمين والحياة الإسلامية إلى القدس زمن صلاح الدين

قال برنار دي بلانك فورت، (Bernard de Blanquefort)، مقدَّم هيئة الدَّاويّة العسكرية الدينية، الذي رأس هذه الهيئة في أواخر العقد السادس وخلال العقد السّابع من القرن الثاني عشر الميلادي/ السابع من القرن السادس الهجري، في الوقت الذي كان الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي يقود عملية المواجهة العسكرية مع كُلّ الفرنجة في بلاد الشام، قال مرة في رسالة بعث بها إلى أوروبا، بأن أعظم خوف لديه بالنسبة للإمارات الفرنجية في بلاد الشام، هو أن يتمكن أمير مسلم واحد من أن يعيد توحيد مملكتي القاهرة ودمشق القويتين، (وبالتالي) سيقضي على اسم المسيحيين (في الشرق) [1]. ولم يكن مقدم الداوية هذا الوحيد من بين الفرنجة الذي كان يخشى توحيد مصر والشام تحت قيادة واحدة وتركيز الجهد فيها في مواجهة التحدي الكبير الذي واجهته المنطقة بسيطرة الفرنجة على سواحل الشام وبعض المناطق الداخلية فيها، فوليم الصوري الذي عاصر المقدم المذكور، وعاصر تحقيق توحيد مصر والشام، عبر عن آراء مماثلةٍ في أكثر من مكان في مؤلفه المشهور: **تاريخ الأعمال فيما وراء البحار**[2].

(١) Stephen Howarth, *The Knights Templers*, p. 125.

(٢) أنظر وليم الصوري، **تاريخ الأعمال** (بالانكليزية) ج ٢ ص ٢٢٥ (عن نور الدين) و ص ص ٤٠٦ - ٤٠٨، ٤٩٠ - ٤٩١. ويقول وليم بالحرف الواحد «وهكذا . . . فإنّ كُلّ الممالك حولنا تطيع (أو تخضع) لحاكم واحد، ويعملون حسب إرادة رجل واحد، وبقيادته وحده فقط، وهم مستعدون ولو بتَرَدُّد، كوحدة واحدة، لحمل السلاح لإيذائنا (الفرنجة) . . فهذا هو صلاح الدين . . الآن يملك تحت سيطرته كل هذه الممالك». المصدر ذاته، ص ٤٠٨.

وظهر هـذا القائد الكبير الذي كان الفـرنجة يخشون ظهـوره، في شخص صلاح الدين يوسف بن أيـوب، الذي تمكَّنَ في أقل من خمس عشرة سنة من سيطرتـه على مصر من الـدولة الفـاطمية (١١٦٩م - السنـة التي تـوفي فيها مقدم الدَّاويـة المذكور) من توحيد ليـس فقط مصر وبلاد الشَّام التـي كانت بيد آل زنكي، وإنما أيضاً القسم الأكبر من منطقة الجزيرة الفراتية، وابتدأت بذلك مرحلـة جديدة من الصراع بين المسلمين والفرنجة كـان لصلاح الدِّين والوحـدة التي حققهـا الدَّوْر الأكبر في تحديـد تطوراتها، إذ تغيرت مـوازين القوى في المنطقة وأعاد كـل جانب منهما حساباته على ضـوء التطورات التي وقعت.

أ - القدس والحملات الفرنجية بعد حطين :

بعد أن تمكن صلاح الدين من تحقيق هدفه بتوحيد الإمارات الإسلامية في جبهة واحدة متماسكـة سياسياً وعسكريـاً تحت قيادته، بدأ مبـاشرة بمهاجمة مملكة بيت المقدس، التـي كانت أكبر الإمارات الفرنجية وأهمهـا التي كانت تسيطر على فلسطين أو على الجسر بين مصر وبـلاد الشام. وتتـوجت هـذه الأعمال العسكرية المتتـابعة بمعركة حطين الحاسمة التي فتحـت الطريق إلى القدس وكل فلسطين[٣]. ففـي الرابـع من تموز سنـة ١١٨٧م / ٢٦ جمادى الأول سنة ٥٨٣هـ قضت قـوات صلاح الدين (المكونة مـن قوات من مصر وكل إمارات الشـام ومنطقة الجزيرة الفراتيـة) على القوة العسكرية الضـاربة ليس فقط في مملكة بيـت المقدس وإنما أيضاً القوات التي قدمـتْ للمشاركة من الإمارات الفرنجية الأخرى. وبعد هذه المعركة التاريخية بثلاثة أشهر فقط استولى صلاح الـدين على مدينة القدس متـوجاً بذلك جهـوده الطويلة بهذا الفتح الكبير.

(٣) تمكن صلاح الدين بقواته والقوات التي قدمت لمساندته من السيطرة على كل فلسطين في أقل من سنة، ولم يبق بيد الفرنجة سوى بعـض القلاع الحصينة في المنطقة الشمالية، الجليل الأعلى وبعض المدن الساحلية.

كان تحرير القدس من أيدي الفرنجة القضية الأساسية التي شغلت القادة والعلماء والفقهاء والشعراء في العالم الإسلامي. وعندما كان صلاح الدين لا يزال مجرد قائد في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، كان يُذكّر من قبل الشعراء والعلماء - خاصة عماد الدين الإصفهاني القاضي ووزيره الثاني فيما بعد - بواجبه بتخليص القدس والحرم الشريف من أيديهم، كما ساعدت كتابات المؤرخين ووعظ الوعاظ - وبعضهم كان من ضمن حاشية صلاح الدين - بتذكيره بالمذابح التي ارتكبها الفرنجة في المدينة المقدسة في تموز ١٠٩٩م. ولذلك فقد توجه القائد الأيوبي المسلم بعد حطين مباشرة إلى القدس، وكانت الطريق من قرون حطين إلى القدس طريقان : أما الطريق الأقرب والأسهل فيمر عبر الهضبة الجبلية مروراً بمدنية نابلس وغيرها من المدن والقرى إلى جبال القدس والمدينة الحصينة، لكنّ المرور من هذه الطريق سيترك المدن الساحلية الحصينة الممتدة من عكا وحتى حدود مصر، حيث الكثافة البشرية للفرنجة وحيث مراكز الاتصال وخطوط التموين والتمويل الرئيسي مع أوروبا الفرنجية، مفتوحاً؛ أما الطريق الثاني فهو الذي يمر عبر الطريق الدولي الساحلي الذي يصل بين دمشق ومصر ويؤدي للسيطرة على المدن الساحلية ويفتح طريق الاتصال بين مركزي قوته مصر والشام، ويقطع الإتصال وخطوط التموين بين أوروبا والمدينة المقدسة. ولذلك كان طبيعياً أن يتوجه صلاح الدين مباشرة إلى الساحل فاستولى بسرعة على عكا وحيفا ويافا والرملة وعسقلان، ثم اتجه بعد ذلك مباشرة إلى القدس التي عُزلتْ كلياً عن بقايا الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، حيث وصل أمام أسوارها في العشرين من أيلول سنة ١١٨٧م / رجب ٥٨٣هـ.

---

(٢١) يظهر ذلك من الاشارات التي ترد في المصادر العربية التي عالجت فتح صلاح الدين للقدس واعداد الأرمن التي سوحمت من دفع الإتاوة لشفاعة أمراء الجزيرة الفراتية بهم على أساس أنهم من رعاياهم.

وصل صـلاح الديـن إلى القدس على الطـريق الـرئيسي الذي يصـل بين الساحـل والمدينة والـذي يمر بالـرملة واللطـرون ومن ثم بيـت نوبـة المشرفة عليها . ولذلك فقـد بدأ السلطان بحصارها من الجهة الغـربية ، ولكنه وجد - مثل الفـرنجة قبل ثمان وثمانين سنـة -استحالـة الاستيلاء عليها مـن هذه الجهة ، فانتقل هـو بالقسم الأكبر من الجيش إلى الجهة الشماليـة من السور، بينما قاد أخوه الملك العادل بقية القوات إلى جبل صهيون لمحاصرتها من تلك الجهة . ومن بداية الحصار والعمليات العسكرية ، كان صلاح الدين مُصَمِّماً على الاستيلاء على المدينة بقـوة السلاح ، كما استولى عليها الفـرنجة قبل ثمان وثمانين سنة ومن ذات الجهـة من السور التي كـانت تاريخياً تشكـل أضعف جهات المدينة تحصيناً ، بسبب طبيعة بنيتها الجغـرافية وتضاريسها ، وكانت المدينة تَغُصُّ بعشرات الآلاف مـن سكانها ومن الناس من فـرنجة ونصارى محليين الـذين لجأوا اليهـا مـن كـل مناطـق فلسطين السَّـاحليـة والجنوبيـة والوسطـى طلباً لحماية أسـوارها الحصينـة ، بحيث صار فيهـا عشرة أضعاف عدد سكانها في الأحوال العاديةوملأوا البيـوت والكنائس والساحات العامة والشوارع .

وضغطت قـوات صلاح الـدين على المدافعين عـن السّور في هـذه الجهة باستمرار، وحفـر أصحاب النقوب (الأنفاق تحت الأرضيَّة) مـن الحجَّارين والنقابين في الصخر تحت السـور في عدة مواضع كما كانـت العادة المتبعة في عمليـات الحصار الكبيرة ، وسقطـت قطعـة صغيرة مـن السور نتيجـة لهذه العمليات ، وتقدمت مجموعة من جنـد صلاح الدِّين ونَصَبَتْ رايته الصَّفْراء على أعلى السور في هذه المنطقـة ، لكن المدافعين في ذلك المكان تجمعـوا من جـديد وأجبروا الـذيـن يحملون الـراية على الانسحـاب . ووجـد البطريـرك الفرنجي وباليان صاحب نابلـس - الأمير الفرنجي الذي تمكن الإفلات من حطين إلى صور ثـم طلب من صلاح الـدين الإذن بدخول القـدس لاخراج

زوجته – اللذين كانا يقـودان المدافعين الفرنجة عن المدينة أنهما لا يستطيعان الاستمرار في القتال إذ لا مجال لوصول إمدادات فرنجية من أي مكان تساعد في تخفيف الحصـار أو مشاغلة قـوات صلاح الـدين، فطلب التفـاوض مع صلاح الـدين لتسليـم المدينة اليه مقـابل شروط منـاسبة للجـانبين. ورفض السلطـان الأيـوبي في البـدايـة عـرض التفـاوض، وأصرَّ على الاستمـرار في الحصار والقتال حتى يدخل المدينة بـالقوة ويثأر لمأساة سنة ١٠٩٩م. وأمام هذا الإصرار لجأ باليان إلى التهديد بأنـه إذا لم يوافق صلاح الدين على تسليم المدينة بشروط منـاسبة للفرنجـة سيقتل الأسرى المسلمين في المدينـة، والذي قيل أن عددهـم كان خمسة آلاف، ويقتـل النساء والأطفال الفرنجة في المدينة حتى لا يقع أحـد منهم أسيراً في أيدي المسلمين، وأنه سيقاتل هـو والرجال الذيـن معه حتـى آخر واحد منهـم، ويهدم الأماكن الإسـلامية المقـدسة في المدينة. ولا نستطيـع أن نقدر في ضـوء المعرفـة المتوافـرة، مدى صـدق هذا التهديد، لكن الشروط التي عُرِضَتْ ألاَنَتْ موقف أمراء السلطان، فقد مال هؤلاء الأمراء الذين أرهقهـم طول البقاء في ميدان القتال الذي امتد لأكثر من سبعـة شهـور، إلى القبول بتسليـم الفـرنجـة المدينة إلى السلطـان دون قتـال وخروج الناس منها، خاصة وأنّ الهدف الأساسي في استعادة المدينة المقدسة للمسلمين سيتحقق دون إراقة دماء. ووافق صـلاح الدين على الشرُّوط التي تضمنت من بين ما تضمـنت خروج جميع الفـرنجة وغيرهـم من سكان المدينة من المدينـة بسلام حـاملين معهم مـا يستطيعون حملـه من أمـوال وممتلكـات شخصيـة على أن يتركـوا وراءهـم الخيـول والآلات والأدوات العسكـريـة والسلاح، وأن على كل من يغادر المدينة أن يدفع فدية حُدِّدَت بحيث يدفع الـرجل عشرة دنـانير والمرأة خمسـة دنانير والأطفـال مـن أولاد وبنات دينـار واحد(٤). وخرج الفرنجة من مدينة القدس في فترة قصيرة، حاملين معهـم من

---

(٤) أنظر : العماد الاصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**. نشر محمد صبح، القاهرة (لا . ت) ص ١٢٦؛ ابن الاثير، **الكامل**، ج ١١، ص ٥٤٩؛ **الأنس الجليل**، ج ١ ص ٣٤٨؛ نسمان، تاريخ، (E) ج ٢ ص ٤٦٦ – ٤٦٧.

المواد ما حددته اتفاقية التسليم، وزودهم صلاح الدين بحاميات عسكرية تحرس قوافلهم وتخفرها من المسلمين في الأريـاف حتى وصولهم إلى مأمنهم. أما السكان من **النصارى المحليين** فقـد قرروا البقـاء في المدينـة وطلبوا مـن السلطان السماح لهم بذلك والعيش كأهل كتاب للمسلمين يتابعون حياتهم وأعمالهم كما كانوا فوافق السلطان (٥).

وهكذا فقد شهدت القدس وللمرة الثانية خلال أقل من قرن من الزمان، تغيرات أسـاسيـة في بعـض مظاهـر عمـرانها، وفي بنيـة سُكـانها وإدارتها، وحياتها اليومية. وقد تم بعض هذه التغيرات مباشرة بعد الفتح الصلاحي، وتم البعـض الآخر بصورة تدريجيـة في عهد خلفائه. ونظرة سريعـة إلى هذه التغيرات المختلفة ضرورية لبيان أوضاع المدينة في الفترة التي تلت عودتها إلى السيادة الإسلامية :

بقيـت الملامـح العامـة لمدينـة القـدس كما كـانت عليـه، فـالتغيرات في طبوغرافيتهـا وفي عمرانها لم تتغير كثيراً، كما بينا، خلال الفترة الفـرنجية عما كانت عليه في السـابق الاّ في المجالات المحدودة التي ذكرنـا، وربما كان هذا الوضع يرجع إلى أن أساليب العمران والهدم في عالم العصور الوسطى لم تكن متطورة إلى الـدرجة التي تمكـن من إحـداث تغيرات جذرية في التضـاريس الطبيعية أو التخريـب والتهديم الكبير. وكانـت التغيرات التي تمت في هذا المجال في الفترة الـلاتينية قد هدفـت إلى خدمة أغراض السكـان الجدد من مختلف النواحي خاصة الدينية والاجتماعيـة. وعند الفتح الصلاحي هدمت بعض الأبنية التي أقامها الفرنجة، وتغير الغرض من استخدام البعض الآخر ليخدم الجماعات الإسـلامية الجديدة التي استـوطنت في المدينة بعدمـا حُرم المسلمون مـن السكنى فيهـا طوال حكم الفـرنجة. فما الأعمال التـي قام بها

---

(٥) أنظر : الكامل، ص، ٥٥ .

صلاح الدين وخلفاؤه لإعادة المدينة إلى الصورة الإسلامية، وما الإضافات العمرانية التي تمت في الفترة التالية (٢ تشرين الأول ١١٨٧م) بعد دخول صلاح الدين المدينة و إقامة الخطبة من على منبر المسجد الأقصى وقبة الصخرة للخلافة العباسية ولنفسه؛ لم يستقر فيها ولم يسمح لقواته بالبقاء فيها، وإنما أقام في معسكره الذي كان أقامه خارج أسوار المدينة على رأس جبل الزيتون، إذ كان عليه أن يتابع مهمته في تحرير بقية المناطق التي كانت لا تزال بيد الفرنجة.

كان تحرير القدس هو محور الجهد السياسي والعسكري الذي قام به صلاح الدين الأيوبي والإمارات الاسلامية التي خضعت لنفوذه أو ارتبطت به، وصار هذا المحور بعد سنة ١١٨٧م هو بقاء المدينة بيد المسلمين بصورة دائمة، ومن هنا كانت جهود صلاح الدين تجاه المدينة خاصة عمليات تحصين الأسوار التي كان يَعْرف أنها الأساس في السياسة الجديدة في المحافظة على إسلامية المدينة. لكن بعد سنة ١١٨٧م مباشرة لم تكن الظروف مناسبة للبدء بذلك، ولذلك فقد اهتم السلطان خلال الفترة القصيرة التي تلت الثاني من تشرين الأول بأمور أكثر إلحاحاً خاصة وأنه لم يكن هنالك من خطر مباشر يتهدد المدينة. كانت عمارة الأسوار ممكنة في أي وقت ولذلك اهتم باجراء التراتيب الإدارية والدينية في المدينة قبل المغادرة إلى مناطق أخرى، وكان أول اهتمام للسلطان هو إعادة منطقة الحرم الشريف إلى ما كانت عليه، ولذلك فقد أمر أمراءه بإزالة كل الإضافات العمرانية والإضافات الأخرى التي أدخلها الدَّاوية ورجال كنيسة القديس أوغسطين في المسجد الأقصى وقبة الصخرة خلال الفترة الفرنجية، مثل الكنيسة وقاعة الطعام وأماكن السكن التي أقامها الدّاوية في المسجد الأقصى والرسوم والصور في داخل قبة الصخرة، ثم نظفت كل منطقة الحرم وغسلتْ بالماء، أما منطقة الصخرة المشرفة فقد غسلت بماء الورد الذي أحضره الأمير تقي

الديـن عمـر بن شـاهنشاه إبـن أيـوب مـن بلاد حماه وغيرهـا خصيصاً لهذه الغاية(٦). وجَدَّد محراب المسجد الأقصى وغطي بـالرخام، وأحضر المحراب المشهور الـذي كان نـور الدين محمـود بن زنكي قـد أمر بعملـه في حلب في حياتـه خصيصاً للمسجد الأقصى، مـن دمشق ونصب في مكانـه، وأعيد بناء وتجديـد المساجـد التي كـانت مهملـة لفترات طويلـة، وعين السلطان الأئمة والخطبـاء وغيرهم من الأشخاص الـذين يحتاج اليهـم للإشراف على هذه المساجد والقيام بالمهام المختلفـة التي تحتاجها، كما عين والياً للمدينة، ووضـع في البرج والقلعة حـامية منـاسبة لحمايتهـا، إضافـة إلى إمام ومـؤذن للمسجد الذي فيها. وحول السلطان كنيسة القديسة حنة (Saint Ann) إلى مدرسة للشَّافعيـة كما كانت في الفترة السابقة لاحتلال الفـرنجة، وعين فيها اولاً مدرسـاً مؤقتاً، ثـم بعد انتهاء الحملـة الثالثـة، القاضي بهاء الديـن ابن شداد، صـاحب سيرة صلاح الـدين المعـروفة **بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، أول شيخ كبير مسؤول عنها(٧)، كما صار والد إبـن واصل مؤرخ الدولـة الايوبية، شيخها في النصـف الأول من القرن الثالـث عشر الميلادي لمدة طويلة(٨) وعرفت هذه المدرسة بعد بالمدرسة الصلاحية.

---

(٦) العماد الإصفهاني، الفتح القسي، ص ١٤٠ - ١٤٤.

(٧) **المصدر ذاته**، ص ١٤٥، ٦١١ - ٦١٢؛ **الأنس الجليل**، ١ ص ٣٤٠ - ٣٩١؛ ابن شـداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**. تحقيق محمـد جمال الدين الشيال، القـاهرة، ١٩٦٤. ص ٢٣٩.

(٨) ابن واصـل، **مفرج الكـروب في أخبار بنـي أيوب**. تحقيـق حسنين محمد ربيـع، القاهـرة، دار الكتب، ١٩٧٢، ج ٤ ص ١٤١ - ١٤٢، ٢٠٨، وقد تحددت أوقات هـذه المدرسة في وقفية السلطـان عليها، أنظـر: **أوقـاف وأمـلاك المسلمين في فلسطين**. نشر محمـد إبشرلي، مركـز الابحاث والتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول، ١٩٨٢. ص ٣٥ والملحق الخاص في هذه الدراسة.

ومن الاجـرآءات الأخرى التـي اتخذها صـلاح الديـن خلال فترة إقـامته القصيرة في المدينة بعـد الفتح وقـف بعض عمائر ربـع «حيّ البطـريرك» على وجوه الخير والمصالح العـامة. فقد صار هذا الربع، الذي كـان مركز الحياة الدينية والمدنية في المدينة زمن الفرنجة، خـالياً من السكان بعد خروجهم من المدينة عنـد الفتح الصـلاحي، وقد أوقـف، بعد استشـارة العلماء والفقهاء والصوفية، قصر بطريـرك الفرنجة، رباطاً للصوفيـة، ووقف عليه وقفا كبيراً للقيام بمصالحه كما تدل على ذلك حجـة وقفه التي وصلت الينا [٩]، ووقف أيضاً كنيسـة في مجمع الاسبتاريـة الكبير مارستانا جهـزه بكل ما يحتـاج اليه ووقف عليـه أوقافاً كثيرة تكفـي بمصاريفـه، وجلب اليه الأدويـة والعقاقير النادرة من مختلف المناطق[١٠].

وبعـد الانتهاء مـن هذه التراتيـب الضرورية، وتـزويد القـدس بحامية وخزانة سـلاح مناسبتين [١١]، توجـه صلاح الديـن إلى دمشق، وشُغـل بعد ذلـك لمدة تزيـد على ثلاث سنـوات بحروب متـواصلـة مع بقـايا الإمـارات الفرنجية في بلاد الشام، ولم تؤد هذه العمليات العسكرية الأخيرة إلى القضاء على الفرنجة في السـاحل الممتد من أنطاكية وحتى صور جنوبا مما أبقى خطر عودة الفرنجة إلى فلسطين وقلبها القدس قـائماً. وزاد هذا الخطر شدَّة وحدة بحصار فرنجة الشرق لمدينة عكا وقدوم الحملة الفرنجية الثالثة التي انضمت إلى الفـرنجة الـذين كـانوا يحاصرون عكـا، عنـد ذلك صـار تحصين مدينـة القدس في مقدمة أولويات السلطان الأيوبي.

---

(٩) قام بنشر حجـة وقف ربـاط الصُّوفيّـة (الخانقاه الصـلاحية) كـامل العسلي ضمـن كتاب **وثائق مقدسية تاريخية**. عمان، ١٩٨٣. ج ١ ص ٩١ وما بعدها، أنظر الملحق.

(١٠) العماد الإصفهاني، **الفتح القسي**، ص ٦١٢؛ **الأنس الجليل**، ج ١ ص ٣٩١.

(١١) قام الملك العزيز عثمان، أحد أبناء صلاح الدين، بتقديم كل خزانة سلاحه للمدينة.

كان خوف صلاح الـدين من عودة الفرنجة إلى القـدس وسيطرتهم عليها من جديد، يشكـل أساساً ثابتاً في سياسته تجاه الفـرنجة بعد سنة ١١٨٧م، ولذلك عنـدما تمكن فرنجة الشـام ومن شارك في الحملة الثالثـة من السيطرة على عكـا والسَّـاحـل الجنوبي لفلسطين حتـى عسقـلان اضطـر السلطـان للتضحيـة بعسقلان ذات الأهميـة الإستراتيجيـة كبـوابة مصر مـن الشمال. وعندمـا استولى صلاح الديـن على عسقلان في ٥ أيلول سنـة ١١٨٧م أبقى عليها وحصنهـا وشحنها بـالمقاتلـة للمحافظـة على خطوط مـواصلاتـه مع مصر، لكنه لم يعتبر السيطرة عليها الاّ خطوة أسـاسية في تحرير القدس الذي تم بعد ذلك بشهـر تقريباً. ولما كان سقوط عكا بيد الفـرنجة وجد السلطان صلاح الدين أنه بالامكانات التي كـانت متوافرة لديه آنذاك (سنة ١١٩١م) لا يستطيع المحـافظة على المدينتين الهامتين (القـدس وعسقلان) في الـوقت ذاته، ولذلك فقد ضحى بعسقلان من أجل تركيز جهوده كلها على القدس وتحصينهـا وشحنها بـالرجـال والسـلاح. ونتيجة لهذا القـرار الصعب أمـر السلطان صـلاح الديـن بهدم مدينـة عسقلان مـن أساسـاتها، وذلك بعـد مشاورات بين السلطان وأمرائه، وحسابات دقيقة للموقف العسكري. وقد اتخذ السلطان هـذا القرار، كما تـذكر المصادر وهـو يبكي. وبـدأ الحجارون والنقابون عملهم بهدمهـا بصورة منظمة بدءاً بالأسوار ثـم الاسواق والمنازل، حتى لا يتمكن الفرنجة من التحصن بها من جديد. وعندما انتهى من ذلك عاد صـلاح الديـن إلى القدس، فاستـولى الفرنجـة بعد ذلـك على عسقلان وبدأوا بعمارتها من جديد[١٢].

---

(١٢) سبـط ابـن الجوزي، مرآة الـزمان. حيـدر أبـاد الـدكن، مطبعـة دائرة المعـارف العثمانيـة، ١٣٧٠هـ، ١٩٥١م ج ٨ ص ٤١٠، ٤١٣؛ ابن الاثير، الكامل، ج ١٢، (بيروت ١٩٧٩)ص ٦٩ وما بعدها.

وصل صلاح الدين بقواته إلى القدس ، واستقر به المقام هذه المرة داخل أسوارها واتخذ بيت الأقْسَاء فيها المجاور لكنيسة القيامة مقراً له ، وبدأت عملية تحصين المدينة وبناء الأسوار وحفر الخنادق . يذكر عبد اللطيف البغدادي الذي زار القدس في هذه الفترة بالذات وحضر مجلس صلاح الدين في قصره المذكور :

«وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون بأصناف العلوم، وهو يحسن الإستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع، وكان مهتماً ببناء سُور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأتى به جميع الناس، الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر ويأتي داره، ويمد الطعام، ثم يستريح، ويركب العصر ويرجع في المساء، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل غدا» (١٣).

وأصلحت الأسوار المتهدمة، وأعيد بناء أجزاء كاملة منه وحصنت بأبراج عالية ووثيقة، وحفر خندق عميق في الصخر الصلد في الجهة الشمالية، واستخدمت الحجارة المستخرجة منه في بناء السور والأبراج . واستخدمت في عملية البناء أعداد كبيرة من الناس من بينهم ألفا أسير من الفرنجة وخمسين حجاراً متمرسين أرسلهم صاحب الموصل، وكل من كان في المدينة من الجند والأمراء وحتى العلماء والكتاب، وكذلك اخوان السلطان وأولاده (١٤)، وكل أمرائه، حتى تم العمل بأسرع ما يمكن. وقام الملك العادل، أخو السلطان، بتحصين الجزء الجنوبي الغربي من السور الذي يقع على جبل صهيون، بحيث أدخلت الكنيسة المشهورة هناك والأبنية حولها والمنطقة التي تبعد عن السور الأصلي مسافة رمية سهم مرتين في داخل السور الجديد (١٥).

(١٣) عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار. نشر أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٣ . ص ١٥١ .

(١٤) العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٥٧٨ ؛ ابن الاثير، الكامل، م ١٢ ص ٧٤ .

(١٥) ابن الاثير، الكامل، م ١٢ ص ٨٦ – ٨٧ .

ب - الحملة الفرنجية الثالثة

وما كاد صلاح الدين ينتهي من تحصين مدينة القدس وشحنها بكل ما توفر لديه من سلاح ورجال آنذاك حتى توجه قسم من المشاركين في الحملة الفرنجية الثالثة من الإنكليز والفرنسيين بقيادة رتشارد قلب الأسد من عسقلان ومن غيرها من الجهات باتجاه مدينة القدس بغية حصارها [١]، ووصلت قوات الفرنجة إلى اللطرون (٩ حزيران) وفي اليوم التالي عسكروا في بيت نوبة القريبة من القدس[٢]. ووصلت أخبار تقدم الفرنجة إلى صلاح الدين في القدس عن طريق عيونه، فأحضر أمراء الجند وضرب مشوراً فيما يفعل، وكانت خلاصة الرأي أن تقسم الأسوار على الأمراء ويخرج ببقية العساكر جريدة إلى جهة العدو، فإذا عرف كل قوم موضعهم من السور واستعدوا له، خرجوا إنْ دعت الحاجة اليهم، وان دعت الحاجة الى ملازمة مواضعهم لازموها، فكتبت الرقاع وسيرت إلى الأمراء [٣].

وكانت حالة ترقب وخوف شديد في القدس من تمكن الفرنجة من السيطرة على المدينة من جديد بالرغم من كل الحشد العسكري والاستعدادات للقتال. وامتدت هذه الحال مدة تزيد على شهر وقعت خلالها مناوشات مستمرة بين الجانبين كان أهمها استيلاء الفرنجة على قافلة كبيرة محملة بالميرة قادمة من مصر باتجاه القدس وبلاد الشام [٤]، وترتب على

---

(١) أنظر : *The Third Crusade*, an eye witness account at the campaigns of Richard Coeur de - lion in *Cyprus and the Holy Land*, ed. with an introduction by Keneth Fenwich, London, 1958, p. 128.

(٢) المصدر ذاته، ص ١٢٩ ؛ النوادر السلطانية ص ٢١٢ .

(٣) النوادر السلطانية، ص ٢١٢ .

(٤) المصدر ذاته، ص ٢١٣ - ٢١٥ .

هذه العمليـة أن تشجع الجيـش الفرنجـي على مهاجمة القـدس . يذكـر ابن شداد : «وصَحَّ عزمهـم على القدس ، وقويت نفوسهم بما حصلـوا عليه من الأموال والجمال التي تقل الميرة والأزواد . . . واوفـدوا . . . إلى صور وعكا وطرابلس يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس» .

ولما عـرف صلاح الـدين بهذه التطـورات عمـد إلى الأسوار فقسمهـا على الأمراء وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ بإفساد المياه ظاهر القدس ، فأخرب الصَّهَاريج والجباب ، بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلا [٥] . . . وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد[٦] .

أما الوضع في المعسكـر الفرنجي في بيت نوبة فقـد تمثل في اتجاهين : فقد أبدى عامـة الجند (خاصة الفرنسيون) تـذمراً شديداً من تأخـر الملك رتشارد في الهجوم على القدس وتخليصها من أيدي المسلمين ليتمكن الحاج المسيحي مـن زيارتها ومشـاهدة الأمـاكن المقـدسة . أمـا الملك رتشـارد الذي شغلتـه الأخبار بالتطورات السيئة في بلاده والتي دفعته إلى الدخول في مفاوضات مع السلطـان صلاح الـديـن عـن طريـق أخيـه الملـك العادل وإبـن الهَنْفِـري الفرنجي[٧] ، فقد كـان يميل إلى التريـث ، ولذلـك فقد دعـى رتشارد أمـراء الجيش إلى عقد اجتماع لمنـاقشة إمكانية الهجوم على القـدس أو عدمها . وفي المناقشات ألح الفرنسيون على القيام بـالهجوم فوراً ، لكن الملك هَدَّد بالتخلي عن قيادة القـوات لإعتقاده بعدم جدوى الهجـوم نظراً لقلة القوات المتـوافرة لديه وقال :

---

(٥) يؤيد ذلك ما ورد في المصدر الفرنجي المعاصر المذكور.

(٦) النوادر السلطانية ، ص ٢١٥ .

(٧) النوادر السلطانية ، ص ١٩٠ وما بعدها .

«ألا تظنون أن صلاح الـدين يعرف بكل ما يجري في معسكـرنا؟ وهل تعتقدون أن وضعنا الضعيف قد خفي عليه؟ (وأجاب) : (السلطان) على وعي بقوتنا بدقة . . . واضـافة إلى ذلك فإن أسوار القدس - كما نسمع - عظيمـة الدور، وعلينـا أن نقوم بمحاصرتها بـإحكام بقـواتنا القليلة الآن والتي لن تكون كافية للقيام بالحصار أو حتى حماية أولئك الذين يحضرون الإمدادات من هجمات الاتراك . . .

ويضاف إلى ذلك أننا جميعا (القادة وعامة الشعب) نجهل هذه المنطقة وطرقهـا وأوديتها . . . ورأيـي هو أن نطلـب النصيحة مـن مواطنـي البلاد (من الفرنجة) الذين يتشوقون إلى إستعادة أراضيهم وممتلكاتهم، ونطلب منهـم أن يقترحوا علينا أفضل مـا يمكن عمله أو القيـام به. وكذلك فإنني أعتقد أنه يجب استشارة الداوية والإسبتارية، وأن نأخذ برأيهم وحكمهم بـالنسبة للإقدام على حصار القـدس أولاً أو القاهرة (الأصل : بابل) أو بيروت أو دمشق» [٨].

واتفق أخيراً في الإجتماع على اختيار هيئة مكونـة من عشرين عضواً من الداويـة (٥ أعضاء) والاسبتاريـة (٥ أعضاء) والنبـلاء الفرنسيين (٥ أعضـاء) وفرنجـة الشرق (٥ أعضـاء) لـد راسة اقتراح الملـك رتشـارد وتقديم توصيتهم بأسرع ما يمكن، فاجتمع هؤلاء الاشخاص، وبعد المداولة لبعض الـوقت اتفقوا على القول «بـأن أكثر الخطـط قبولاً هو التقدم مباشرة (نحو مصر) وحصار القاهرة» [٩].

ونتيجة لهذة التطورات قرر الفرنسيون مغـادرة المعسكر إلى يافا والساحل، وتلكأ رتشارد وقواته بعـض الوقت في بيت نوبة حيث كانـوا يتعرضون خلالها

(٨) *The Third Crusade*, p. 133 - 134.

(٩) المصدر ذاته، ص ١٣٤ .

لغارات قوات صغيرة من جيش صلاح الدين، ثم تراجعوا أخيراً إلى المدن الساحلية [١٠].

وهكذا زال خوف السلطان صلاح الدين وأمرائه وقلقهم على المدينة المقدسة خاصة بعد توقيع صلح الرملة [١١]، مع ملك الإنكليز وعود هذا إلى بلاده.

وترتب على هذا الصلح أمران بالنسبة للمدينة: الأول السماح للحجاج الفرنجة بزيارة كنيسة القيامة والأماكن المقدسة الأخرى داخل المدينة [١٢]، والثاني موافقة السلطان على طلب أسقف سالزبوري الذي استضافه عند زيارته المدينة، بالسماح «لراهبين لاتينيين واثنين من الأعوان (Deacons) الأقل مرتبة منهما باقامة الخدمة الربانية (عند قبر السيد المسيح)، إضافة للنصارى السوريين، كما طلب أيضاً السماح لأعداد مماثلة في كل من كنيسة (المهد) في بيت لحم وكنيسة الناصرة [١٣]. ووافق السلطان على هذه المطالب فعين الأسقف من القساوسة اللاتين المرافقين له في كل من الأماكن المذكورة، وعاد إلى عكا. وهكذا انتهت الحملة الفرنجية الثالثة وزال خطرها المباشر على مدينة القدس التي نعمت بعد ذلك بفترة استقرار وازدهار قصيرة امتدت حتى أواسط العقد الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. لكن هذه التطورات لم تكن نهاية طمع الفرنجة في الغرب والشرق وعملهم لاستعادة نفوذهم وسيطرتهم على المدينة المقدسة بصورة أو بأخرى كما يتضح من الصفحات التالية.

---

(١٠) *The Third Crusade*, p. 141 - 142

النوادر السلطانية، ص ٢١١ وما بعدها.

(١١) عن صلح الرملة أنظر: النوادر السلطانية ص ٢٣٤ – ٢٣٥؛ *The Third Crusade* p. 157

(١٢) النوادر السلطانية، ص ٢٣٦ *The Third Crusade* p. 160ff.

(١٣) *The Third Crusade* p. 161 - 162.

٦ - القدس والفرنجة في فترة خلفاء صلاح الدين

بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي (جمادي الأول سنة ٥٨٩هـ/ آذار سنة ١١٩٣م) اهتم خلفاؤه بعمران مدينة القدس وتوطين المسلمين فيها واعادة صورتها كمدينة اسلامية لها مكانتها الخاصة. ففي بداية هذه الفترة تبعت المناطق الفلسطينية التي كانت بيد الأيوبيين ومركزها القدس، إدارياً لملكة دمشق الأيوبية، وكانت هذه المملكة قد صارت، عندما وزع صلاح الدين البلاد الخاضعة له بين أبنائه وأقاربه، من نصيب ابنه الملك الأفضل نور الدين علي الذي حكمها مدة عشر سنوات تقريباً (٥٨٢ - ٥٩٢هـ/ ١١٨٦ - ١١٩٦م). وقام هذا الملك الأيوبي بمتابعة أعمال والده في اعادة الطابع الاسلامي إلى مدينة القدس، فكان أن اتخذ الاجراءات التي أدت إلى اقامة حارة كاملة جديدة داخل أسوار المدينة بالقرب من المسجد الأقصى، ووقف منطقة كاملة للمغاربة الذين كانوا يعيشون في المدينة آنذاك والذين سيفدون اليها للاقامة أو الزيارة، وبنى فيها فيما بعد مدرسة للمالكية إذ كان معظم سكانها من أتباع هذا المذهب [1]، وقد عرفت هذه الحارة فيما بعد بحارة المغاربة. ويذكر مجير الدين العليمي أن وثيقة الوقف الأصلية كانت مفقودة وأن المسؤولين قاموا بتثبيت نص الوقف فيما بعد وسجل وحفظ في سجلات المحكمة الشرعية في القدس [2]، وتم ذلك، كما يشير النص الملحق بهذه الدراسة، في شهر رجب سنة ٦٦٠هـ/ ايار ١٢٦٢م، أي في بداية الدولة المملوكية، ومن هذه الوثيقة نستطيع تحديد المنطقة التي ضمتها حارة المغاربة تحديداً دقيقاً، كالتالي:

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ١٢، ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) الانس الجليل، ج ٢، ص ٤٩.

الحد القبلي وينتهي إلى سور مدينة القدس و إلى الطريق المسلوكة إلى عين سلوان، والحد الشرقي وينتهي إلى حائط الحرم الشريف، والحد الشمالي وينتهي إلى القنطرة المعروفة بقنطرة أم البنات، والحد الغربي وينتهي إلى دار الامام شمس الدين قاضي القدس الشريف ثم إلى دار الأمير عماد الدين موسكي ثم إلى دار الأمير حسام الدين قايماز (٣).

وتم في الفترة بين سنة ٥٨٩ - ٦١٦هـ / سنة ١١٩٣م - ١٢١٩م من تاريخ مدينة القدس اعادة توطين المسلمين بالتدريج فعمرت حاراتها وأسواقها، وكثرت المدارس فيها وانتشرت زوايا الصوفية ووقفت الأوقاف الكثيرة على هذه المؤسسات، وازدهرت الحياة في المدينة خلال هذه الفترة التي لم تتعرض فيها لخطر الفرنجة، لكن التطورات التي شهدتها المنطقة في السنوات الأخيرة من هذه الفترة، وقدوم الحملة الفرنجية الخامسة اليها، غيرت حالة الأمن والاستقرار والازدهار.

بقيت أحوال مدينة القدس مستقرة على الرغم من الصراعات المستمرة بين ملوك البيت الأيوبي ومؤامراتهم ضد بعضهم من أجل السيطرة والنفوذ، حتى قدوم الحملة الفرنجية الخامسة وحصارها لمدينة دمياط ومن ثم احتلالها لهذه المدينة في ربيع سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م. وقد أدى هذا الحادث إلى انتشار الذعر في ممالك الأيوبيين في بلاد الشام، وانتشرت الاشاعات، التي ربما كانت صحيحة، بنية الفرنجة بالتقدم من مصر إلى فلسطين للاستيلاء على القدس، وربما كان لغياب القوة العسكرية لمملكة دمشق عن البلاد دور في زيادة هذا الخوف، ذلك أن الملك المعظم عيسى كان قد توجه على رأس قواته إلى مصر لمساعدة أخيه الملك الكامل بن العادل سلطان مصر آنذاك. تذكر المصادر أن المعظم عيسى جمع أمراءه في مصر للتشاور فيما يجب عمله بالنسبة لهذه الاشاعات، فكان رأيهم أن الشام قد خلى من الجند وأنه إذا

(٣) A Tibawi, *The Islamic pious foundations in Jerusalem.* London - the Islamic cultural centre, 1978, Append. II.

تمكن الفـرنجة من الاستيلاء على القـدس فإنهم سيسيطرون على كل ممـالك الأيوبيين في بلاد الشام[٤]. لذلك كان لا بد من اتخاذ ما يمكن من اجراءات لمنع الفـرنجة مـن الاستيلاء على القـدس والتحصن بها، فكـان قرار الملـك المعظم الذي كان له أكبر الآثار على تاريـخ المدينة المقدسة فيما بعد. فعندما وجـد ملك دمشـق أنـه لا يستطيع التخلي عـن مسـانـدة أخيه في الظـروف الصعبة التي كان يمر بها حكم الأيـوبيين بمصر، والتوجه إلى مملكته لحمايتها وحماية القدس درة الفتوح الأيوبية الصلاحيـة، أصدر أوامره إلى أخيه العزيز عثمان وأستاذ داره عز الدين، اللذين كـانا كما يبدو في مدينة القدس، بهدم أسوارها من الأساس حتى لا يتمكن الفرنجة في حال احتلالها من البقاء فيها والاستقرار داخل تحصيناتها المتينه، ولكن عثمان وأيبك حاولا التأني في تنفيذ قرار الملك، وأرسلا إليه رسولا أخبره أنهما لن يقوما بهدم السور، وأنهما قادران بما لديهما من قوات الحاميـة وغيرهـم من الدفاع عنها وحمايتهـا، لكن المعظم الذي يبدو أنـه كان يخشى أن يقع في القـدس من المذابح وسفك الـدماء ما حدث في تموز ١٠٩٩م اذا تمكـن الفرنجـة من احتـلالها من جـديد، كتـب اليهما مرة أخـرى مشدداً على وجـوب تعفية الأسوار مـن أساسـاتها بسرعة، ويذكـر على لسانه قـوله : إنه إذا تمكن الفـرنجه من الاستيـلاء على القدس فإنهم سيقتلـون كل مـن فيها ويسيطـرون بعدهـا على الشام وبـلاد الاسلام جميعها[٥].

وحتى يضمن الملك المعظم تنفيذ ما أمر بـه، أرسل مع كتابة مجموعة من المختصين بعمليات الهدم مـن المهندسين والحجـارين والنقـابين، وفي شهر محرم سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م بـدأت عملية هدم أسوار مدينـة القدس بصورة

---

(٤) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج ٨ ؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج ٦ ص ٢٤٤.

(٥) سبط ابـن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨ ؛ ابـن تغري بـردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

منظمـة ولم ينج مـن ذلـك الا برج داود حيـث كان يتمـركـز الوالي والحاميـة العسكرية [٦]. وكان هـذا الاجراء فاجعـة حقيقية لسكان المدينـة كما شكل ضربة قوية للسمعة الطيبة التي حققها صلاح الدين للأسرة الأيوبية في العالم الاسلامي آنذاك.

وكانـت ردة الفعل المباشرة لسكـان المدينة على تخريب السـور أن تجمعت أعداد كبيرة من الرجال والنساء والبنـات والشيوخ في ساحة المسجد الأقصى احتجاجـاً على هذا العمـل، ومزقـت النساء ثيـابهن وشعورهـن، ثم قـرروا بصورة عفوية وفي حالة من الذهول ترك المدينة والتوجه إلى مناطق أكثر أمناً، وساروا دون أن يأخذوا شيئاً من ممتلكاتهم وأموالهم وحتى دون رؤية أقاربهم، متوجهين في مختلـف الاتجاهات، فذهـب بعضهم إلى دمشـق وبعضهم إلى الكـرك وبعضهـم إلى مصر، ومـات الكثير منهـم مـن الجوع والعطـش في الطريق، ونهبـت الأموال التي كانـت لهم بالقدس، وبيعت للنـاس بحيث «بلغ ثمن القنطار الزيت عشرة دراهم والرطل النحاس نصف درهم» [٧].

وهجر معظـم سكان القدس مدينتهـم، نظراً لفقدان الاحساس بـالأمن والاطمئنان والحمايـة، ونقص عـدد سكان المد ينـة إلى درجة كبيرة، ولم يبـق فيها إلا الحاميـات العسكرية ورجـال الدولـة الآخرون، وبعض النـاس من المتعبدة والمجاورين وغيرهم، وصارت المدينـة بالنسبة لعامة المسلمين وكأنها مكان يـزار، لكن ليس مكانـاً للقرار. وأصبحت القدس بعـد سنة ١٢١٩م ولمدة تزيد على قرن من الزمان لا أكثر مـن قرية صغيرة، وحتى هذا الوصف لم يكن، في نظر إبـن فضل الله العمري، صحيحا اذ يذكـر أنها لم تكن حتى أواخر العقد الثاني من القـرن الرابع عشر الميلادي تعتبر في المصطلح الاداري

---

(٦) يبدو أن برج داود كان مقر الوالي والحامية منذ زمن الفاطميين على الأقل.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٢٤٥.

المملوكي قرية، وأن وجودها أو عدمه سيان، لأنه لم يكن لها تحصينات [٨]، أما القلعة التي أبقي عليها في سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م فقد هدمت سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، وبقيت خراباً حتى سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م عندما أعاد بناءها بكتمر الجوكندار كافل الممالك المملوكية آنذاك [٩].

تغير سكان مدينة القدس بعد صيف سنة ١١٨٧م مرة أخرى، لكن هذا التغير لم يكن جذرياً وتاماً كما كان الأمر بعد صيف سنة ١٠٩٩م، خاصة وقد آثر سكان المدينة النصارى المحليين في التاريخ المذكور البقاء في المدينة كأهل الكتاب للاسلام والمسلمين كما بينا. وكان عدد سكان القدس في الوقت الذي بدأ فيه صلاح الدين حصارها، قد ازداد أضعافاً نتيجة للعمليات العسكرية بين المسلمين والفرنجة، ففي الفترة بين ٤ تموز وحتى أواخر أيلول سنة ١١٨٧م، صارت المدينة مركز التجمع للفرنجة الذين اضطروا نتيجة الحرب وسيطرة صلاح الدين على الساحل الجنوبي لفلسطين إلى اللجوء اليها طلباً لحماية أسوارها وتحصيناتها، ويؤكد هذه الحقيقة القاضي الفاضل في إحدى رسائله إذ يذكر أنه لم يبق على السلطان صلاح الدين إلا مدينة القدس التي تجمع فيها الفرنجة الهاربون من كافة البلاد [١٠]. وعندما

---

(٨) ابن فضل الله العمري؛ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، جزء نشره ايمن السيّد، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ج ١ ص ١٣٨. ولا تزودنا المصادر بمعلومات عن مصير سكان المدينة من النصارى المحليين، لكن يبدو أنهم غادروا المدينة أيضاً. ويذكر ابن واصل، الذي رافق والده عندما عين مدرساً في الصلاحية ومسؤولاً عنها (كان ذلك بعد ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م مباشرة)، بأن اكثر السكان غادروها ولم يبق الآ القليل. **مفرج الكروب**، ج ٤ ص ٣٢.

(٩) ابن فضل الله العمري، **المصدر ذاته**، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(١٠) **الأنس الجليل**، ج ١ ص ٣٤٥.

سلمت مدينة عسقلان لصلاح الـدين (آب - أيلول ١١٨٧م) وخرج أهلها الفرنجة منها، توجه قسم كبير منهم إلى القدس، وزودهم السلطان بالخفراء لايصالهم إلى مأمنهم[١١]. ووصلت إلى المدينـة أيضاً أعداد كبيرة من الفـرنجة الذيـن هربوا مـن مدن وحصون الفـرنجة في جنوب فلسطين مثـل عسقلان وغزة والـرملة والقـرى الكثيرة حولها. ووصـل الازدحام في القـدس إلى الحد الذي امتلأت فيه الكنائس والشوارع بحيث كان الحال فيها أن الانسان كان لا يستطيع المشي في شوارعها إلا بصعوبة من كثرة الناس[١٢].

ولكـن هذا التجمـع البشري الكبير في المساحـة المحـدودة التي ضمتهـا أسوار المدينـة المقدسة، والـذي وصل الى أكثـر من سبعة أو ثمانيـة أضعاف سكانها في الأحوال العادية تبدد في أيـام قليلة بعد الاتفاق على تسليم المدينة لصلاح الـدين، فقد رحـل كل الفرنجـة الذيـن تجمعوا فيها، وخـلا «حي البطريرك» من السكان، كما رحل معظم الفرنجة أصحاب الأسواق والتجار والمؤسسات الدينية والعسكرية، ولم يبق فيها من الفرنجة إلا أولئك الذين لم يتمكنوا من دفع الفدية المقررة عليهم، والذين أسروا وسبوا[١٣].

---

(١١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٤٦.

(١٢) المصدر ذاته، ص ٥٤٩ - ٥٥٠. ويـرد في المصادر تقديرات مختلفـة حول عدد الناس الـذين كانوا في المدينة اثناء حصـار صلاح الدين لها. يذكر العماد الكاتب انّ عددهـم كان أكثر من مائة الف نسمـة (اي عشرة أضعاف عددهم في الاحـوال العادية) كان منهـم ستون الفاً من المقـاتلة. الفتح، ص ١٢٨. ويبدو ابن الأثير أكثر تأكداً من العدد حيث يذكر أنه كان فيها ستون الفاً من الفرسان والرجالة إضافة إلى الرجال والنساء. ولا يستغرب ابن الأثير هذا الرقم لأن المدينة كانت، في رأيه، كبيرة. ويمكن حساب العدد التقريبي من عـدد اولئك الذين دفعوا القطيعة للخروج: ٢٠,٠٠٠ دفعوا (من اللاتين)، ١٨,٠٠٠ من الفقراء الـذين اطلقهم باليان، ١٥,٠٠٠ أسروا (٧ آلاف رجال، ٨ آلاف نساء)، ١٥٠٠ من الأرمن الذين اعفوا من دفع القطيعة، ٥٠٠٠ أسير مسلم. والـرقم الكلي ٦٠,٠٠٠. يضاف إلى ذلـك النصارى المحليين الـذين سمح لهم بـالبقاء كأهل كتاب للمسلمين.

(١٣) الكامل في التاريخ، ج١١ ص ٢٥١ - ٢٥٢. وقد قـام النصارى المحليون والتجـار في جيش صلاح الدين بشراء معظم ما باعه الفرنجة وبأسعار رخيصة جداً.

وبقي أيضاً في المدينة فئات السكان من غير الفرنجة، من النصارى الشرقيين المحليين الذين كانوا يقيمون في حيهم الخاص بهم في الجهة الشمالية من المدينة، وبعض رجال الدين من اليونانيين وغيرهم من أتباع مذاهب الكنيسة الارثوذكسية الشرقية مثل الأرمن والكرج. أما نصارى القدس المحليين فقد أدخلوا بداية في شروط تسليم المدينة، ولكنهم آثروا البقاء، كما ينسب اليهم تعاونهم مع صلاح الدين أثناء الحصار، وقد دفعوا كما يبدو ما قرر عليهم من مال الفدية، ووافقوا على دفع الجزية عن رؤوسهم للدولة الجديدة، وطلبو من صلاح الدين البقاء في منازلهم، يتابعون حياتهم في المدينة كالمعتاد(١٤).

وتوافد المسلمون بعد الرابع من تشرين الأول سنة ١١٨٧ بالآلاف على القدس الشريف لزيارة الأماكن المقدسة التي حرموا من زيارتها مدة سيطرة الفرنجة عليها، ولكن القسم الأكبر من هؤلاء غادرها بعد اقامة قصيرة إلى مكة لتأدية فريضة الحج أو عائدين إلى أوطانهم(١٥)، اما السلطان صلاح الدين فقد أقام في معسكره على جبل الزيتون شرقي المدينة، لمدَّة كافية حتى يتمكن من ترتيب شؤون المدينة، ثم رحل في آخر شهر تشرين الأول إلى دمشق لمتابعة العمليات العسكرية ضد جيوب الفرنجة المتبقية في بلاد الشام.

---

(١٤) الفتح، ص ١٣٦ ؛ الكامل في التاريخ، ج ١١ ص ٥٥٢ - ٥٥٣.

(١٥) الفتح، ص ١٣٤.

وكان من أبرز التراتيب الادارية التي اتخذها السلطان أن عين ضياء الدين عيسى الهكاري، أحد رجاله الأكراد الموثوقين، والياً على المدينة، والذي أناب بدوره أخاه الظهير مكانه، وعين سياروخ التركي ناظراً للحرم الشريف الذي انتقل بعد ذلك إلى ولاية المدينة والمناطق التابعة لها [١٦]، كما رتب السلطان حامية مناسبة في القلعة.

مما تقدم نرى أن المجموعات الأولى من المسلمين الذين توطنوا في القدس بعد سنة ١١٨٧م كانوا من الجند ورجال الدولة الذين تولوا المراكز الادارية فيها وأفراد عائلاتهم إضافة إلى العلماء والفقهاء والصوفية الذين رُتبوا للتدريس في المدارس التي أنشئت والأربطة التي وقفت لرجال الصوفية ونظار الأوقاف والمساجد والوعاظ والمؤذنين في المسجد الأقصى وغيره من المساجد، وسكنت هذه الفئات جميعاً حول المسجد الأقصى وفي مختلف أجزاء «حي البطريرك» الكبيرة.

وعندما عاد السلطان الأيوبي إلى مدينة القدس في ذي القعدة سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م للإشراف على تحصينها، كانت الحياة العادية قد بدأت تعود اليها بالتدريج، واهتم صلاح الدين في هذه الزيارة، كما ذكرنا، ببناء الأسوار واقامة البيمارستان وتجهيزه، وزيادة الأوقاف على المؤسسات الخيرية التي أقامها في السابق.

واستمر عمران المدينة بعد وفاة صلاح الدين، وأقيمت فيها أحياء جديدة في عهد خلفائه من ملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام، ومن هذه الحارات

---

(١٦) المصدر ذاته، ص ٥٧٩. ويورد مرسوم تعين سياروخ ص ٥٨٠ - ٥٨١. وقد مات الظهير سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م وتوفي عيسى في نهاية السنة ذاتها. ولم يعين صلاح الدين والياً بعد عيسى مباشرة حتى عيّن سياروخ. وعين عز الدين جُرديك والياً سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. **النوادر السلطانية**، ص ٢٤٠.

الجديدة التي أقيمت واستمرت بعد ذلك، حارة المغاربة وحارة اليهود، أما حارة المغاربة فقد تحدثنا عنها في السابق[١٧] وأقيمت حارة اليهود إلى الغرب من الحارة السابقة، وكان يفصل بينهما حارة الشرف التي سكنها، كما يبدو، وجهاء المدينة في ذلك الوقت.

في بداية احتلال الفرنجة للقدس لم يسمح لليهود بالسكنى فيها، أما في أواخر هذه الفترة فيرد ذكر لعدد قليل من الأفراد الذين سُمح لهم بالاقامة فيها[١٨]، وكانوا يسكنون قرب القلعة وقصر الملك الفرنجي. واتخذ صلاح الدين من التسامح سياسة تجاه اليهود الذين أذن لهم بالسكنى فيها، فبدأوا بالتوافد اليها بأعداد كبيرة بحيث صار لهم حارة خاصة بهم، وكان من أوائل الجماعات اليهودية التي سكنت القدس في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين، حسب ما ذكر برافر، ثلاث فئات: يهود عسقلان في الفترة الفرنجية الذين انتقلوا اليها بعد تهديم عسقلان سنة ١١٩١م، ويهود من المغرب الذين هربوا من هناك إلى الشرق حوالي سنة ١١٩٨ - ١١٩٩م، ويهود من فرنسا الذين هاجروا إلى فلسطين على دفعتين سنة ١٢١٠م والذين قدر عددهم بثلاثمائة عائلة[١٩]. ثم هاجر يهود القدس من المدينة إلى الساحل الفلسطيني نتيجة للتطورات التي وقعت في القدس في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي. فهدم المعظم عيسى لأسوار المدينة أدى إلى ترك معظم سكانها لها، إذ لم تعد مكاناً آمناً يشعر أهله بالاطمئنان على حياتهم وأعمالهم، ثم كان التطور الكبير الثاني الذي أثر على اليهود بصورة خاصة، عندما سلمت القدس إلى الامبراطور فردريك الألماني

---

(١٧) أنظر ص٨٧ اعلاه.

(١٨) أنظر رحلة بنيامين التطيلي.

(١٩) J. Prawer, "Minorities in the Crusader States", in *A History of the Crusades*, Vol. V, p. 97.

في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م أصدر تشريعات جديدة ضد اليهود، وتمثلت بمنعهم من السكن في المدينة مرة أخرى كما كان الوضع في الفترة اللاتينية الأولى، لكن بعد مفاوضات بين اليهود والسلطات الفرنجية سمح لعائلة يهودية واحدة بالعيش في المدينة لتكون دارها محطة للحجاج اليهود الذين يسمح لهم بزيارة القدس[٢٠].

يمكن تقسيم فترة الستين سنة من تاريخ المدينة المقدسة بعد سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م إلى فترتين متميزتين، كما يمكن اعتبار السنة التي هدمت فيها أسوار المدينة وتحصيناتها الجيدة التي أقامها صلاح الدين كحدٍ فاصلٍ بين هاتين المرحلتين.

كان من أبرز متطلبات الحياة في المدن والبلدان في العصور الوسطى في بلاد الشام، هو توفير الأمن والإستقرار اللذين يمكنا الناس من متابعة حياتهم العادية وممارسة أعمالهم دون خوف أو قلق. وكان يمكن توفير الحد الأدنى من هذه المتطلبات عن طريق التحصينات بأنواعها المختلفة من أسوار منيعة وأبراج وخنادق وفصائل، وشحن هذه المدن بالحاميات العسكرية المناسبة التي تستطيع الدفاع عن المدينة ودفع هجوم القوى التي تهاجمها وتزويدها بآلات الحرب والأسلحة التي يحتاج اليها في مثل هذه العمليات إضافة إلى المؤن والاقوات.

في سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م حرمت مدينة القدس فجأة من معظم، إن لم يكن كل، هذه الاساسيات الدفاعية: فقد سويت أسوارها بالأرض، ونقلت حاميتها إلى أماكن أخرى، ونقلت خزائن السلاح التي كانت فيها إلى مدينة دمشق[٢١].

---

(٢٠) برافر، المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٢١) كانت خزائن السلاح في مدينة القدس تتكون من الأسلحة التي تركها الفرنجة عند مغادرتهم المدينة، كما قام العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين، عند دخول والده المدينة، بترك كل خزائن سلاحه من مختلف الأنواع فيها. الفتح، ص ١٤٤.

ورغم ذلك فقد كان من الممكن أن يتحمل سكان المدينة هذا الوضع لو كانت الظروف السياسية للمنطقة تساعد على ذلك عن طريق توفر الأمن والاستقرار ووحدة البيت الأيوبي بصورة خاصة .

فصلاح الدين يوسف ، الذي بنى وحدة العالم الإسلامي في مواجهة الفرنجة وحقق ما حقق من نجاح ، كان قد توفي في بداية الفترة المذكورة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) أما رفيق دربه الطويل وساعده الأيمن ، وأكبر سياسي البيت الأيوبي ، الملك العادل ، فقد توفي قبل تهديم أسوار القدس بسنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) . من ناحية أخرى تمكن فرنجة الحملة الخامسة من الاستيلاء على دمياط ، وصاروا يهددون ليس فقط مركز السلطنة الأيوبية وإنما بلاد الشام جميعها ، وأدى ذلك كله إلى القرار الخطير الذي اتخذه الملك المعظم عيسى والذي كان له أبعد الأثر على تاريخ المدينة المقدسة لمدة تالية تزيد على قرن من الزمان ، وكان مما ساعد على نجاح هذا القرار في التأثير على تاريخ المدينة ، استمرار النزاعات والخلافات بين أبناء البيت الأيوبي على السلطة والنفوذ . ويضاف إلى ذلك كله أن مملكة القدس الفرنجية كانت لا تزال ، من مركزها في مدينة عكا ، تسيطر على الساحل الفلسطيني حتى حدود مصر جنوباً ، وعلى عدد من القلاع والحصون المنيعة التابعة للداوية والاسبتارية .

في مثل هذا الوضع المضطرب في المنطقة ، والحالة التي وصلت اليها أوضاع القدس فقد هجر معظم السكان المسلمين الجدد المدينة ، كما هجرها معظم النصارى المحليين إلى أماكن جديدة حيث يمكنهم العيش بأمان واطمئنان .

وانتهى تهديد الحملة الفرنجية الخامسة ، وانسحبوا من دمياط ، ولم تتحقق الإشاعات التي انتشرت في المنطقة ، ولم يشكل فرنجة الساحل تهديداً

لمدينة القدس آنذاك. وربما أدى هذا الاستقـرار النسبي، الذي استمر عشر سنوات، إلى عودة بعض سكان المدينة اليها، إذ كان النفوذ الأيوبي في المدينة لا يزال قـائماً، كما أن المؤسسات التي أقامهـا صلاح الدين وبعـض خلفائه كانت لا تزال تؤدي مهامها بصورة أو بأخرى حتى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م.

وفي سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) وقع تطور جديـد في تاريخ القدس وشكل تكملة للتطور الـذي وقع قبل ذلك بعشر سنين، فنتيجـة للصراع بين ملوك الأيوبيين المستمر، خـاصة ما كان بين السلطان في مصر وصـاحب دمشق، اتخذ السلطـان الملك الكـامـل قراراً حقـق للفرنجـة مـا لم تحققه العمليـات العسكرية الفرنجية التي تمت بعد صـلاح الدين، والذي أثار ضجة كبيرة في كل العالم آنذاك، فبعـد مفاوضات بين هذا السلطان والامبراطور فـريدريك الثاني، وافق السلطان الأيوبي على تسليم القدس - ما عدا منطقة الحرم التي أبقيت بيد المسلمين - للفرنجـة، وكانت حُجَّة الملك الكامـل في عمل ذلك أنه لم يكن بامكانه في تلك الظروف أن يحمـي المدينة ويدافع عنها أمام قوات الحملة التـي قادها الامبراطور الالماني. واضطـربت الحياة في المدينة المقـدَّسة من جديد.

وامتدت سيطـرة الفرنجـة هذه المرة عشرة سنـوات (٦٢٦هـ - ٦٣٦هـ ١٢٢٩م - ١٢٣٩م) لكنهم لم يتمكنوا من تثبيت سلطتهم فيها نظراً لعلاقة الأمبراطور فريـدريك الثاني السيئة مـع الكنيسة الكاثوليكيـة ومملكة القدس الفرنجيـة التابعة لها، وهيئات الفـرسان العسكريـة. وفي سنة ١٢٣٩م، أي بعد انتهـاء مدة الاتفاق بين الأمبراطـور والسلطان الكـامل (ت ١٢٣٥م)، تمكـن ملك الكـرك الأيوبي مـن الاستيـلاء على القدس بسهـولة وضمَّهـا إلى المناطق التـي كانت تخضع لنفوذه، ثـم قام بهدم آخر الأماكـن المحصّنة فيها وهو بـرج داود الذي كان الفـرنجة قد زادوا في تحصيناتـه أثناء اقامتهـم هذه

المدة، مما قضى على آخر ملجأ أمين لسكان المدينة [٢٢].

وعاد الفرنجة إلى القدس مرة أخرى بعد سيطرة صاحب الكرك بأربع سنوات (١٢٤٣م) وقبل أن يتمكنوا من تثبيت نفوذهم فيها (١٢٤٤م) استولى الخوارزمية الذين هربوا من الشرق أمام الزحف المغولي عليها، ونتج عن هذه التطورات المتلاحقة التي أصابت القدس والتهديد المستمر لها من قبل بقايا الفرنجة في فلسطين أن صارت خرابا. يذكر ابن فضل الله العمري أن حالة الخراب هذه امتدت حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي[٢٣].

وليس أدل على وصف مقدرات القدس خلال الفترة التي عالج خطوطها العامة هذا البحث من النتيجة التي توصل اليها مؤرخ الفرنجة في الثمانينات من القرن الثاني عشر الميلادي، عندما ذكر في مؤلفه المشهور :

«وهكذا فإن المدينة المقدسة . . . . بأحداثها المتغيرة باستمرار التي كانت تؤدي إلى تغير أصحابها، وقد مرت المدينة بفترات مزدهرة وأخرى صعبة طبقاً لشخصيات الأمراء الذين حكموها، وكانت أحوالها كأحوال الرجل المريض تتحسن أو تسوء حسب تصرفات الزمان، لكن العافية التامة كانت مستحيلة»[٢٤].

---

(٢٢) أنظر الملحق الخاص بوصف هذا البرج وكيفية الاستيلاء عليه من قبل الناصر داود الأيوبي، في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة العبّاسي. ابن شدّاد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية. دمشق، ١٩٦٢. ص ٢٢٦ - ٢٣٣.

(٢٣) أنظر ما تقدّم ص ٨٩ - ٩٠.

(٢٤) وليم الصوري، **تاريخ الأعمال** (بالانكليزية)، ص ٦٣ - ٦٤.



الملاحق

القدس في أواسط القرن العاشر الميلادي

(أبو عبد الله محمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. ط ٢. تحقيق دي خوية. ليدن، ١٩٠٦. ص ١١٥ - ١١٨).

«ليس في مدائن الكور أكبر منها . . . . لا شديدة البرد، وليس بها حَرّ، وقل ما يقع فيها ثلج . . . بنيانهم حَجَر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها ولا أكثر من مشاهدها، عنبها خطير . . . وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب ولا تخلو كل يوم من غريب . . . . . . ثم لا ترى أقذر من حَمَّامَاتها، ولا أثقل مؤونة، قليلة العلماء، كثيرة النَّصارى، وفيهم جفاء، على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال على ما يباع، فيها رجالة على الأبواب فلا يمكن أحد أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس الاّ بها، مع قلة يسار وليس للمظلوم أنصار، والمستور مهموم والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهور، لا مجلس نظر ولا تدريس، قد غلب عليها النصارى واليهود، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس.

وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة، عليها حِصْن بعضه على جبل وبقيته على خندق ولها ثمانية أبواب حديد :

باب صَهْيُون، باب التيه، باب البلاط، باب جُبْ إرميا، باب سِلوان، باب أريحا، باب العَمُود، باب مِحْراب داود.

والماء بها واسع، ويقال ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والأذان، وقل دار ليس بها صهريج وأكثر، وبها ثلاث برك عظيمة : بركة بني إسرائيل، بركة سليمان، بركة عياض، عليها حمّاماتهم لها دواع من الأزقةِ».

« . . . وحد القدس (الولاية) ما حول ايلياء* إلى أربعين ميلاً يدخل في ذلك القصبه ومدنها واثنا عشر ميلاً في البحر وصغر ومآب وخمسة أميال من البادية، ومن قبل القبلة إلى ما وراء الكسيفة وما يحاذيها ومن قبل الشمال تخوم نابلس . . . » ص ١٧٣.

من وصف ناصر خسرو للقدس

(سفرنامة. ترجمة يحيى الخشاب. ط ٣. بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣. ص ٥٦ - ٥٧.

«في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ (هـ/ ٥ آذار ١٠٤٧م) بلغنا بيت المقدس. وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية، وطوال رحلتنا لم نقر في مكان قط ولا وجدنا راحة كاملة. وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس (القدس). ويذهب إلى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات، فيتوجه إلى الموقف ويضحِّي ضحية العيد كما هي العادة. ويحضر هناك لتأدية السُّنَة، في بعض السنين، أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذي الحجة، ومعهم أبناؤهم. كذلك يأتي لزيارة بيت المقدس، من ديار الروم، كثير من النصارى واليهود، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش هناك. وهناك كنيسة عظيمة سيأتي وصفها في مكانه. وسَواد وَرساتيق بيت المقدس جبلية كلها، والزِّراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة، وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين الف مَنٍ من زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى أطراف العالم. ويقال إنّه لا يحدث قحط في بلاد الشام. وسمعت من ثقات أن ولياً رأى النبي عليه السلام في المنام فقال له: «ساعدنا في معاشنا يا رسول الله»،

* الاسم الروماني للمدينة المقدسة.

فأجابه النبي عليه السلام : «عليّ خبز الشام وزيته». (ص ٥٥ - ٥٦).

وصف بيت المقدس :

«هي مدينة مشيدة على قمة الجبل، ليس لها ماء غير الأمطار، ورساتيقها ذات عيون. والمدينة محاطة بسور حصين، من الحجر والجص، وعليها بوابات حديدية. وليس بقربها أشجار قط، فإنها على رأس صخر. وهي مدينة كبيرة كان بها، في ذلك الوقت، عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة، وقد سّووا الجهات الجبليَّة والمرتفعات، وجعلوها مُسَطَّحَة. بحيث تُغْسَل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار. وفي المدينة صنَّاع كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاصة، والجامع شرقي المدينة وسوره هو سورها الشرقي. وبعد الجامع سهل كبير مستوٍ يسمى «الساهرة» يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر. . . وبين الجامع وسهل السَّاهرة واد عظيم الإنخفاض كأنه خندق، وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين. ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر أعجب منها، حتى أن الناظر اليها ليسأل نفسه كيف رفعت في مكانها؟ ويقول العامة إنها بيت فرعون. وإسم هذا الوادي «وادي جهنم». وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل إنَّ عمر رضي الله عنه أنزل جيشه أيام خلافته في سَهْل السَّاهِرة هذا، فلما رأى الوادي قال : هذا وادي جهنم. ويقول العوام إنّ من يذهب إلى نهايته يسمع صياح أهل جهنم، فإنّ الصدى يرتفع من هناك، وقد ذهبت فلم أسمع شيئاً . . . وحين يسير السائر من المدينة، جنوباً، مسافة نصف فرسخ، وينزل المنحدر، يجد عين ماء تنبع من الصَّخْر، تسمى عين سلوان. وقد اقيمت عندها عمارات كثيرة. ويمر ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين. إن من يستحم من ماء هذه العين يشفى مما الَمَّ به من الأوصاب والأمراض المزمنة. وقد وقفوا عليها مالاً كثيراً. وفي بيت المقدس مستشفى

عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقرر لهذه المستشفى. ومسجد الجمعة على حافة المدينة من الناحية الشرقية، وإحدى حوائط المسجد على حافة وادي جهنم. وحين ينظر السائر من خارج المسجد يرى الحائط المطل على هذا الوادي يرتفع مائة ذراع من الحجر الكبير الذي لا يفصله عن بعضه جص». (ص ٥٦ – ٥٧).

كنيسة بيعة القمامة :

«وللنصارى في بيت المقدس كنيسة يسمونها «بيعة القمامة» لها عندهم مكانة عظيمة. ويحج اليها كل سنة كثير من بلاد الروم، ويزورها ملك الروم متخفياً، حتى لا يعرفه الناس. وقد زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله فبلغ ذلك الحاكم، فأرسل اليه أحد حراسه – بعد أن عرفه أن رجلاً بهذه الحلية والصورة يجلس في كنيسة بيت المقدس – وقال له : «اذهب عنده وقل له : ان الحاكم ارسلني اليك ويقول : لا تحسبني أجهل أمرك، ولكن كن آمناً فلن اقصدك بسوء»، وقد أمر الحاكم هذا بالإغارة على الكنيسة فهدمها وخربها. وظلت خربة مدة من الزمان. وبعد ذلك بعث القيصر اليه رسلا، وقدم كثيراً من الهدايا والخدمات وطلب الصلح والشفاعة ليؤذن له بإصلاح الكنيسة فقبل الحاكم وأعيد تعميرها.

وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل، وهي عظيمة الزخرف، من الرخام الملون والنقوش والصور، وهي مزدانة من الداخل بالديباج الرومي والصور، وزينت بطلاء من الذهب. وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام راكباً حماراً، وصور الأنبياء الآخرين مثل : ابراهيم وإسحق ويعقوب وأبنائهم عليهم السلام. وهذه الصور مطلية بزيت السندروس. وقد غطي سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على قدها، بحيث لا يحجب منها شيء وذلك حتى لا يصل الغبار اليها وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم. وهناك عدا ذلك عدة مواضع أخرى كلها مزينة، ولو وصفتها لطالت كتابتي».

وصف ابن العربي للقدس (٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)

ذكر دخول بيت المقدس

(«رحلة ابن العربي». **الأبحاث**، ١٩٦٨ ص ٧٩ - ٨٢)

« . . . فدخلنا الأرض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة فاستنرت به أزيد من ثلاثة أعوام. وحين صلّيت بالمسجد الأقصى فاتحة دخولي بها، عمدت إلى المدرسة الشّافعيّة بباب الأسباط فألفيت بها جماعة من علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى الذي كان استخلفه عليهم شيخنا الإمام الزاهد نصر بن ابراهيم النابلسي المقدسي وهم يتناظرون على عاداتهم . . . واقمت حتى انتهى المجلس، فكررت راجعاً إلى منزلي وقد تأوبني حرصي القديم، وغلبني على جدي في التحصيل والتعليم . . . (وقراره البقاء في القدس للدرس) ومشيت إلى شيخنا أبي بكر الفهري (الطرطوشي) . . . وكان ملتزما في المسجد الأقصى - طهّره الله - بموضع يقال له الغُوير، بين باب أسباط ومحراب زكريا . . . . . . فاتخذت بيت المقدس مباءة، والتزمت فيه القراءة . . . وخصوصاً بقبة السلسلة، منه تطلع لي الشمس على الطور وتغرب على محراب داود . . . وأدخل الى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف، لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي وتقاة عدو».

« . . . وكنا نفاوض الكرامية والمعتزلة والمشبهة واليهود، وكان لليهود بها حبر منهم يقال له التستري لقناً فيهم ذكياً بطريقتهم. وخاصمنا النصارى بها، وكانت البلاد لهم يأكرون (يؤجرون الارض مُزارعة) ضياعها ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها . . . .

وقد حضرنا يوما مجلسا عظيما فيه الطوائف . . . »

محراب داود – قلعة القدس

من قانون التأويل، لأبي بكر بن العربي

(أبو بكر محمـد بن عبد الله ابن العربي . احكـام القرآن، تحقيق محمـد علي البجاوي . ط ١ . القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٨، ق٤، ص ١٥٨٦).

« . . . شاهـدت محراب داود عليه السلام في بيت المقـدس، بناءً عظيماً من حجـارة صلدة لا تؤثـر فيه المعاول، طول الحجـر خمسون ذراعاً وعـرضه ثلاثـة عشر ذراعاً وكلما قام بنـاؤه صغرت حجارته، ويـرى له ثلاثـة أسوار، لأنه في السحـاب أيام الشتاء كلهـا، لا يظهر لإرتفـاع موضعه وإرتفـاعه في نفسه، له بـاب صغير ومَدْرَجَة عريضـة، وفيه الدُّور والمساكـنْ، وفي أعلاه المسجد، وفيه كُوَّة شرقيَّة إلى المسجد الأقصـى في قدر الباب ويقول الناس : إنّه تطلـع منها على المرأة حين دخلـت عليه الحمامة، وليـس لأحد في هـدمه حيلة، وفيـه نجا مـن نجا مـن المسلمين حين دخلها الـرُّوم (الفرنـج) حتى صالحوا على أنفسهم بأن سَلَّموه اليهـم، على أن يَسْلَمُوا في رقابهم وأموالهم، فكان ذلك وتخلوا لهم عنه.

ورأيت فيـه (المحراب)، غـريبة الدَّهْـر، وذلك أن ثـائراً ثار بـه على واليه وإمتنع فيه بالقوة، فحَاصَره، وحاول قتاله بالنشَّاب مدة، والبلد على صغره مستمرة على حالـه، ما أغلقت لهذه الفتنة سُـوق، ولا سار اليها من العـامة بشر، ولا برز للحال مـن المسجد الأقصى معتكف، ولا انقطعـت مناظرة، ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سـائر الناس لذلك حـركة، ولو كان بعـض هذا في بلادنا (الأنـدلس) لاضطرمـت نار الحرب في البعيد والقريـب، ولانقطعت المعايـش، وغلقت الدكاكين وبطل التعامل، لكثرة فُضُولنا وقلَّة فضولهم».

حالة مدينة القدس - لمؤلف مجهول
(٥٨٣ - ٥٨٤هـ/ ١١٨٧ - ١١٨٨م)

(*Anonymous Pilgrims* in PPTS. New York, AMS Press, 1971, pp. 8,11,15, 24, 25)

«في مدينة القدس أربعة أبواب رئيسية تقع متقابلة في كل جهة من الأسوار وبين الرتوق (Posterns) وسأسميها كالتالي :

يقع باب داوود في الجهة الغربية (من السّور) ومقابل تماماً للباب الذّهبي (في سُور الحرم الشرقي) الذي يقع في الجهة الشرقية خلف قبة المعبد (الصخرة) ، وهذا الباب جزء من برج داوود ولذلك سمي بذلك الإسم. وتعبر داخل هذا الباب إلى جهة اليمين إلى شارع . وقرب برج داوود يمكن أن تذهب إلى جبل صَهْيُون عن طريق الرتق هناك ، وعندما تسير باتجاه هذا الرتق في هذا الشارع تجد إلى يسارك كنيسة القديس جيمس شقيق القديس يوحنا المعمدان . . .

والشارع الأعظم الذي يتجه من برج داوود ، باستقامةٍ إلى الباب الذهبي يسمى (من بدايته إلى موقع منصات الصرافين) بشارع داوود . ويوجد إلى اليسار من برج داوود مكان كبير (وواسع) كانوا يبيعون فيه القمح . وبعد السير قليلاً في شارع داوود تجد إلى الشمال شارعاً يدعى بشارع البطريرك لأن البطريرك كان يسكن عند رأسه . وهنالك باب في الجهة اليمنى (للصاعد) من شارع البطريرك ، يدخل منه إلى داخل بيت الإسبتارية ، وبعد هذا الباب هنالك باب آخر هو الذي يدخل منه إلى كنيسة القيامة لكنه ليس ا الباب الرئيسي لها .

وعندما تصل إلى موقع منصات الصرافين حيث ينتهي شارع داوود يوجد شارع جبل صهيون لأنه يذهب باستقامةٍ إلى جبل صهيون . ويقع إلى اليسار من موقع منصات الصرافين شارع مسقوف (مغطى) بقناطر يدعى سُوق العَطارين حيث يباع جميع أنواع الأعشاب والفواكة والتوابل في المدينة . وعلى رأس هذا الشارع مكان يباع فيه السمك ، وإلى اليسار خلف هذا المكان الأخير مكان يباع فيه الجبنة والبيض والدَّجاج والطيور الأخرى . أما إلى اليمين من هذا فتقع دكاكين صاغة الذهب من النصارى السوريين (النصارى المحليون) وهنا أيضا تباع(Palms) العطور التي يحضرها الحجاج من وراء البحار . وإلى اليسار من هذا السوق تقع دكاكين صاغة الذهب اللاتين ، وفي نهاية هذه الدكاكين يقع دير للراهبات يسمى دير القديسة مريم العظيمة ، وبعده دير للرهبان السود يسمى باسم القديسة مريم اللاتينية ، ثم بعد ذلك يأتي بيت الإسبتارية حيث يقع هنا الباب الرئيسي (لبيت) الإسبتار .

وإلى اليمين من بيت الإسبتار يقع الباب الرئيسي لكنيسة القيامة حيث يوجد أمامه ساحة مكشوفة جميلة مرصوفة (مبلطة) بالرخام . . . . (ص ٨) .

(ص ١١) . . . . . وأعود إلى موقع الصرافين ، فقبل هذا الموقع يقع شارع قرب شارع العطارين يسمى شارع اللحَّامين(Nal-quisinat) حيث يطبخ فيه الطعام للحُجّاج ويباع ، كما يغسلون رؤوسهم ويذهبون منه إلى كنيسة القيامة . وأمام هذا السوق سوق آخر يدعى السُّوق المغطى (المسقوف) لأنه مسقوف كلياً ويبيعون فيه مواد مختلفة . ومن هذا الشارع يذهب الإنسان إلى كنيسة القيامة .

نترك الآن موضع الصرافين ونتجه إلى الباب الذّهبي (باب الرّحمة) ، والشارع الذي يقع بين هذين الموضعين (الأصح إلى باب الحرم [السِّلْسِلة]

يسمى شارع المَعْبَد الذي سمي بهذا الإسم لأنه يوصل إلى المعْبَد (قبة الصخرة) والباب الذهبي.

وعندما تسير في هذا الشارع (باتجاه الباب الذهبي) تصل إلى موضع اللحّامين الذي يقع إلى اليسار وحيث يباع كل لحم المدينة. وهنالك شارع إلى الجهة اليمنى يوصل إلى المستشفى الألماني ويسمى شارع الألمان؛ وفي هذا الشارع إلى جهة اليسار وعلى الجسر تقع كنيسة القديس غيلز (الصنجلي). وعلى رأس هذا الشارع يقع باب يسمى بالجميل الذي يقع في السور بين المدينة (والحرم) حيث الباب الذهبي. . .

(ص ١٥) . . . سأذكر الآن البابين الباقيين الذي يقع الواحد منهما مقابل الآخر فالباب الذي يقع في الجهة الشمالية يدعى باب القديس اسطفان، ومن هذا الباب دخل الحُجّاج إلى المدينة (سنة ١٠٩٩م)، وكل من يصل إليها عن طريق عكا أو عن طريق البرّ من النهر أو من البحر جهة عسقلان.

وعندما يقترب المرء من هذا الباب للدخول يجد إلى اليمين كنيسة تسمى باسم القديس اسطفان . . . وأمام هذه الكنيسة إلى اليسار تقع بناية كبيرة كانت اسطبلا لخيول وحمير الإسبتارية وقد هدمت هذه الكنيسة من قبل اللاتين قبل حصار المدينة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) نظراً لقربها من الأسوار، أما الإسطبل فلم يهدم، وكان له فائدة فيما بعد لخدمة الحُجاج من المسيحيين الذين وفدوا إلى القدس خلال الهُدْنة، عندما صارت المدينة بأيدي المسلمين، إذ لم يسمح للحجاج بالبقاء في داخل المدينة، وإنما في هذه البناية . . . فقد كان بقرب المستشفى رَتْق يسمى باسم القديس لادر، فمن هنا كان المسلمون يقودون (الحجاج) المسيحيين إلى داخل المدينة ثم إلى كنيسة القيامة، لأنهم لم يرغبوا بأن يرى المسيحيون ما يجري في المدينة . . .

عند دخول المدينة من باب القديس اسطفان تصل إلى (مفرق) شارعين

أحدهما إلى اليمين ويتجه إلى باب جبل صهيون في الجنوب الذي يقع في مقابل باب القديس اسطفان أما الشارع إلى اليسار فيتجه باستقامة إلى الرتق الذي يدعى بالقطانين (Tannery) ويمر تحت الجسر. هذا الشارع الذي يتجه إلى باب جبل صهيون يدعى شارع القديس اسطفان إلى أن تصل إلى (موضع) الصرافين السوريين.

وعندما يصل (السائر في هذا الشارع) إلى (موضع) الصرافين السوريين يجد إلى اليمين شارع (كنيسة) القيامة . . . وأما م موضع الصرافين السوريين (النصارى)وعند الإتجاه إلى اليمين يوجد سوق مغطى على شكل قناطر يصل (الماشي) عن طريقه إلى كنيسة القيامة. ويبيع السوريون في هذا الشارع أشياءهم (أغراضهم) ويصنعون الشموع.

وأمام موضع الصرافين أيضا يبيعون السَّمك. وعند (طرف) هذه الشوارع الثلاثة يقع موضع الصرافين السوريين كما يقع عند (طرفها) الآخر موضع الصرافين اللاتين. وأحد هذه الشوارع يسمى بالشارع المغطى، وفيه يبيع اللاتين بضائعهم، ويدعى الثاني شارع العَطارين والثالث شارع الطعام. وتسير في شارع العطارين فتصل إلى شارع جبل صهيون وبذلك تصل إلى بوابة جبل صهيون بعد قطع شارع داوود.

ومن الشارع المغطى تمر بموضع الصرافين اللاتين إلى شارع يدعى بشارع قنطرة يهودا ثم تقطع شارع المعبد. ويتجه هذا الشارع باستقامة إلى جبل صهيون ويسمى هذا الشارع بشارع قنطرة يهودا، ويقع إلى اليسار من هذا الطريق كنيسة القديس مارتن وكنيسة القديس بطرس التي تقع بقربها . . .

(ص ٢٤) . . . وأعود الآن إلى كنيسة القديس اسطفان وإلى الشارع الذي يتجه إلى اليسار (بعد مفترق الطرق المذكور سابقاً). ويصل هذا الطريق إلى رتق القطانين فبعد المسير بعض المسافة في هذا الشارع (شارع الإسبان) تجد شارعاً إلى اليسار منك يسمى شارع الأسباط (Jehoshaphat) وبعد مسافة قليلة تجد تقاطعاً للطرق، فالطريق إلى اليسار منك تأتي من

جهـة المعبـد وتتجـه إلى كنيسـة القيامـة. . . أمـا إلى اليمين وبعـدمـا تعبر الطريق. . . فتقع كنيسة يوحنـا المعمدان والتي يتبعها بيت كبير للسكن، وهي (الكنيسة والسكن) تـابعة لراهبات اللعازارية اللواتي أقمـن فيه عندما نشبت الحرب مع المسلمين.

وأعود إلى شارع (الأسباط) ويقع بين هذا الشارع وأسوار المدينة إلى اليسار (المتجة إلى البـاب) شوارع (كثيرة) حتـى تصل إلى البـاب. (وهذه المنطقـة) تشبه المدينة وفيهـا يقطن معظم النصارى السُّوريين، وكانـت هذه الشوارع تسمى بحـارة اليهود في السـابق (Jewry). وفي هذه المنطقـة كنيسة مـريم المجدلية، ويـوجد قربها الرتـق (المسمى بذات الإسم) ولا يمكـن من هناك الذهاب إلى الحقول في الخارج، وإنما الى منطقة محصورة بين سورين.

أما إلى اليمين من شارع (الأسباط) فتقع كنيسة الراحة (Rest). . .

(ص ٢٥) . . . وإلى اليســار مـن شـارع (الأسبــاط) تقـع كنيســة (للراهبـات) تدعى صنـد حنة، وأمام الديـر هنالك نـافورة تدعـى البركة، فوقها كنيسة . . . .

سكان المدينة

سكـان مـدينـة القدس بعضهـم مـن المسيحيين وبعضهـم غير ذلـك، والمسيحيـون فيها مـن أجناس مختلفـة وينقسمون إلى مـذاهـب كثيرة، ومـن بينهـم يأتي الفـرنجـة (أو بصورة أدق) الـلاتين أولا، وهـؤلاء رجال محاربـون ومتمرسون في استعمال السـلاح ولا يلبسون شيئاً على رؤوسهـم، والـوحيدون من بين هـذه الاجناس الـذين يحلقـون رؤوسهـم ويقـال لهـم (اللاتين) لانهم يستعملون هذه اللغة.

وصف برج داود واحتلاله سنة ٥٣٣ - ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م

(ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في امراء الشام والجزيرة : قسم لبنان وفلسطين والأردن**. تحقيق سامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٦٢. ص ٢٢٦ - ٢٣٣).

وكتب كتابا بيده (اي الملك الناصر داود) الى الخليفة المستنصر من انشائه :

أدام الله ظلَّ الدّيوان العزيز النبوي ما دامت الأيام والسّنون، وفتح بعزمه مُسْتَغلق الحُصُون، وأذاعَ ببركته سرّ النَّصرْ المَصُون، وأطلع البشائر ببابه يانعة الثمار، ناضرةِ الغُصُون، وقضى لأوليائه بنَيْل المُنى، ولأعدائه بنيل المنون.

العَبْدُ يقبل القبة الشريفة التي تُسر بتقبيلها القُلوب، وتقر بتقريبها العُيُون وتودّ لو اكتحلَت باثمد تُرابها الجُفُون، ويصف شوقَه إلى الخدمة التي تحقّق في نعمها الآمال وتصدُق في كرمها الظنون، ومواظبته على الطاعة التي هو وأسلافه عليها يحيون، وعليها يموتون.

وينهي أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، انفساخ عقدتها وعند ذلك أخلى الفرنجة — خذلهم الله — القدس الشريف من سكانه، وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ما صيره من أوطانه، وأقام به كند من كنودهم، ومقدّم من جنودهم وهو فارس مشهور من فرسانهم، وطاغية يذكر من شجعانهم، كان قد عمر قلعة القدس في مدة الهدنة وحصنها، وملأها بالعدد والآلات وشحنها، ووصلها ببرج يقال له «برج داوود» النبي - عليه الصَّلاة والسَّلام - ابتناهُ لنفسه مسجداً، واتخذه لخلوته معبداً.

وهو برج عظيم المقدار والحجم، مبارٍ في المنعة الجبل وفي الرفعة النجم ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير، ويتهم الراوي في خبره ولو أنه به خبير، قد بني بالصُّفاح والعَمَدِ، وتأنق بانوه في احكامه فيما طال عليهم الأمد.

وهو مـن أسفله إلى ثلثه قـد صُبَّ فيـه الحجر والكلس صبـا ، وردم بقوة بحيثُ لو حضره يأجـوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهـروه ولا استطاعوا له نقبا ، فكأن الله قـد الان لداود الصّخر كما الان له الحديد في بنيانـه ، أو كأنه إستعان في اتقـانِه بجن سليمانه ، واستغـرى اللعين معه طائفة مـن شجعان الأبطـال وأبطال الشجعـان ، ومـن المشهوريـن بـالشـدة والبأس اذا التقـى الجمعان ، قد ركبوا في الغيّ رؤوسهـم ، ووطنوا على القتل نفوسهم ، يتهافتون على نار الحرب تهافت الفراش ، ويردون حياض المنون ورود الإبل العطاش ، لا يلتقون سهام القسيّ إلاَّ بنُحُـورهـم ، ولا حجارةَ المنجنيق الاّ بصـدورهم ، وبايعوه على الموت وحالفوا ، وطاوعوه على الضَّلال فما عصوا ولا خالفوا .

ثـم عمـدوا إلى القلعـة والبرج فستروهما بـالسّتَـائر المخلـدة ، والخشـب المسنّدة ، والعمد الممددة ، وأوقدوا للحرب نارَ الشيطان الموصدة ، لا بل نارَ الله الموقـدة ، فنزل العبـد عليهم بطـائفة مـن عسكره ، وراوحَهـم وغاداهـم بالمناوشة في أصائل الحصار وبكره ورجا بـالمطاولة أن يسلموها من غير إراقَة دمّ ، أو قتل موحدٍ يُفتدى من المشركين بأمم .

فتجمَّعُوا على الضَّلال وتألبوا ، وحادوا عن طريق الرَّشاد وتنكَّبُوا ، وتوثبوا لنَصرْ الصليب وتصلبوا .

فقاتل العبد صليبهم بصليب من الـرأي لا يعجم عوده ، وقابل جأشهم بجيْش من المُصَابرة لا يفَلّ جنوده ، وجَرَّد لهم جماعة من عبيد الدّيوان تُرسل اليهم البوائقَ من نبالها ، وتشهر عليهم الصواعق من نصَالها .

ونصَب عليها المجانيقَ التي تزاحـم الحُصونَ بمناكبها ، وتحرقُ شياطينَها برُجُـوم حجارتها بـدلاً من نُجوم كـواكبها ، ومن شـأنها أنها إذا قابلـت بلدة اخذتْ بكظمهـا وقضت بـرغْمها ، وأنـزلتْها على حُكمهـا ، فرمتهـم بثالثـة الأثافي مـن جبالها ، وسحرت أعينَهـم إلا أن الله ما أبطل سحـرَ عصيّها ولا سحْرَ حبالها .

وأخذ النقابون في الأسوار نقوباً سفـرت نقابها ، ورمى الزراقون في السَّتائر

نيراناً هتكتْ حجابها .

وكان المَلاعين قد طمحتْ إلى المُمانَعة عيونُهم ، وغلقت بالمصابرة زهونهم ، وظنُّوا أنهم مانعتهم حُصونهم ، فأتاهـم الله من حيث لم يحتسبوا ، وجزاهم بما كَسَبوا ، ومكّن أيدي المؤمنين من نواصيهم ، وأنزل الـذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم .

وطلعتْ على الأسـوار المنيعة ، من الأعلام الشريفـة ، الراية التـي أعادت بسناها آية الليـل لكن من آياته النهار إبصاراً ، وأعظـم من النيرّين الشمس والقمر ضياء وابداراً .

وأخذ العبد القلعة وتسلّمها ، وافترع ذروتها العُلْيـا وتسنَّمها ، وتبرّجتْ له أبراجها المصونه وتجَلت ، ومدت له أرضها فألقت ما فيها وتخلّت .

ولجأت من الملاعين طـائفة إلى «بـرج داوود» ترجو حقـن دمائهـا ، وتقنع بسلامـة ذمائها ، ومـا علموا أنهم دخلوا منه سجنـاً لا حصناً ، ونزلـوا به قبراً جعل لهم وهـم في قيد الحياة دفناً .

وسيرَّوا رسـولاً يطلـب لهم الأمـان على نُفـوسهـم وأمـوالهم ، والخروج بما يقدرون عليـه من أسلحتهم وأثقالهم ، فما سمـع العبد لرسولهم كـلاماً ، ولا شفا لغلته أواما ، ولا عـرج على مخاطبته حتى يقول لجهالته سـلاماً ، بل أمر الحجـارين أن يجدوا في نقـب جـداره من جميـع أقطـاره ، ويجتهدوا في قطـع حدّماره بقلع أحجاره ، ويوقد على عدوّ الله نـاراً تحرقه في الدنيا قبل أن يحرقه الله في الآخرة بنـاره ، فعادوا بعد ذلك سـألوا الأمان على نفـوسهم ، والخروج بمجرد نفوسهم ، فأجابهم العبد إلى هـذه المسئلة الهيّنة الممكنة ، وخرجوا وقد ضربت عليهم الذلَّة والمسكنة .

وصارتْ إلى العبـد القلعة إرثـاً عن أبيـه ، والبرج إرثاً مـن سميّه ، وهَطـل عليهم سحابُ بركـة الديوان العزيز بوسميه ووليّه ، واجتمـع شملُ المساجد الثلاثـة بما منح الله من التـأييد ، فافترق شمـل تثليث الشرْك باجتماع ثـلاثة

التوحيـد، وعطفَ الله على حزب الايمان بـالنَّصر، وعادَ على حـزب الطغيان بالكسر، وأضحى الباطل وقد عاوده ذلّه، ورد الله الحقَّ إلى نصابه واليه يرجع الأمر كلّه.

والعبد يظـن أن الله تعالى ما أعـاد هذا البيـت إلى العدوّ بعد فتـوحه، ولا نقله عن الهداة من أمة محمد إلى الغواة من عبدة مسيحه، إلاّ ليسطر فتحه في سيرة مولانا أمير المؤمنين، كما سطـره في سيرة أمير المؤمنين جده، ويجري على يد العبد وذويه فيكون قد جرى على يد عبد الديوان ويد جنده.

وكلما يجدد الله للعبد من قصر عزيز، وظفر وجيز، فهو بعناية إمامه الذي يستخرج له التوفيـق من وعائه، ويمد في القرب بجيوش عسـاكره وفي البعد بجيوش دعائه.

وقد سير العبـد عبد الديـوان «سرخاب» رسولـه ليتلوَ «سورة الفتـح» من حفظه، ويشرح صـورة الأمر من لفظه، فـإنه كان للفتوح حـاضراً، ولقتال العـدو مباشراً. والعبـد متردد بين أن يجعـل عين هـذه القلعة بـالهدم أثـراً، وعيانها بالردم خبراً، ليخمد سرر شرّها، ويؤمن غائلة أمرها، وينقطع رجاء الكافر من نزالها وحصرها وبين أن يبقيها معقلاً لهذا البيت الشريـف، وموئلاً للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف.

وأما برج داود (فقد) تقدم عزم العبد على أن يغضّ من طرفه، ويجدع من أنفه، ويقلـل من ارتفاعـه، ويسهل من امتناعـه، ويجعله مسجداً للـرّكوع والسجـود، لا معقلاً للجمـوع والحشود، ومعبـداً يلتـزم بمزاره، لا حصنـاً يعتصم بأسواره.

وهو يسترشـدُ في ذلك هدى الـديوان العزيـز الذي عليه معتمـده، واليه مرجعه فيما يصدره ويورده، والله تعالى يجعل حزب الديوان وعبيده حزب الله الغالـب، وحـزب عدوه وعدو دينه حـزب الشيطان الهارب، ويقضي لهُ ولمن اعتلق به ببلوغ المطالب والمآرب.

الأوقاف في القدس

(محمد ابشرلي (ناشر) . أوقاف المسلمين واملاكهم في فلسطين . استنبول، ١٩٨٢ . ٣١، ٣٥) .

وقف سلطان الملك الناصر يوسف بن ايوب على مدرسته بالقدس الشريف .

- قطعة أرض جسمانية وتوابعها وقف تماما حاصل ٦٠٠٠ .
- قرية عين سلوان تابع قدس تماماً حاصل ٦٠٠٠ .
- حمام في باب الأسباط قدس شريف في سنة [حاصل] ١٤٠٠٠ .
- فرون (فرن) في محلة باب الحطة (باب حُطّه) تماماً .
- دكاكين في سوق العطارين ٨١ باب .
- دكان المعروف بخط داود ١٢ ط .
- سويق (سوق) باب حُطَّه ١٢ باب .
- الدور المتفرقة في قدس شريف ١٢ باب .
- القاعات في نفس قدس شريف ١٥ باب .
- خان في باب الحُطَّه (ك) تماماً .
- بستان بير أيوب تماماً .
- بستان صغير في باب الحُطَّه تماماً .
- مزرعة قسطال تابع قدس تماما ٥٠٠ .

(ص ٣١) وقف الملك الناصر صلاح الدين على الخانقاه (سنة

٥٨٥هـ/ ١١٨٩م).

- الصهريج المجاور للخانقاه المذكور.

- قبو ودور ملاصق للفرن (٣٤٢).

- قبو كبير يعرف باسطبل البطريق.

- بيت شمالي هذا الاسطبل.

- حمام يعرف بالبطريق (يعرف بحمام البطرك).

- القبو والحوانيت المجاورة للحمام المذكور.

- البركة المعروفة ببركة البطريق (تعرف ببركة البطرق).

- الصهريج الملاصق لبركة البطريق.

- البركه المعروفة بماملاّ.

- قطعة الجورة العليا وهي الشمالية تماماً.

- قطعة أرض تعرف بجورة السفلى وهي قبلية تماماً.

- قطعة أرض البقعة تابع قدس شريف تماماً.

- قطعتا أرض ظاهر القدس الشريف تعرف براس الجيوس وبرج اشكر (ك) تماماً.

(ص ٣٥) - وقف الصلاحية.

- بستان جوره في باب المغاربة في قدس شريف تماماً.

- من قرية نعليا (١٢٣ نعليه) تابع خليل الرّحمن ٨ قيراط.

وقفية صلاح الدين للخانقاه الصلاحية

(وثائق مقدسية تاريخية . نشر كامل جميل العسلي. عمان، ١٩٨٣ . ص ٩١ - ٩٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تصدق به ووقفه وحبسه السيد الاجل، الملك النَّاصرِ، جامع كلمة الإيمان، قامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، أبي المظفر يوسف، والد السيّد الملك العادل، شيخ الملوك والسَّلاطين أبي سعيد أيوب بن شادي، سلطان الديار المصرية والشامية، خلد الله تعالى ملكه ومد على الخليقة ظله، وعلا فوق السماكين محله، وأعز أنصاره وجنده وجعل النعم الجزيلة عنده، وأمضى أحْكَامه في جميع الأمم وأنفذ فيهم اوامر من مقته السيف والقلم في صحَّة جثمانه، وثبات جنانه، وتمكن سلطانه، ومضي أحكامه في نقضه وإبرامه، وأصالة رأية، ونفاذ كلمته، وانبساط قدرته، وخلوص نيته، وقوة رغبته إلى الله سبحانه وتعالى في قبول ذلك منه، وحسن مجازاته عليه، وإبتغاء الوسيلة عنده، والفوز لديه، يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين.

تصدق بجميع الدار المعروفة بدار البطرك التي بالقدس الشريف، وما يليها فمن ذلك: الربع المجاور لها، وهو: طاحُون يعرف بعصفور، وفرن، ودير ملاصق للفرن يعرف بالجديد، وقبو كبير يعرف باسطبل البطرك، ودار شمالي هذا الاسطبل تشتمل على أقباء تحتانيه، ويحيط بذلك ويجمعه حدود أربعة: الحد الأول وهو القبلي ينتهي إلى قبة القمامة ويتم إلى دار تعرف بيوسف السحاف؛ وتمام الحد إلى الشارع المسلوك منه مغرباً إلى سور المدينة يعرف . . . ومنه يفتح باب الدار والإسطبل المذكورين. والحد الثاني، وهو الشرقي، ينتهي من السّفل إلى الشَّارع المسلوك منه إلى دار البلاط و غير ذلك، ومنه يفتح باب الدار المذكورة، وباب الطاحونة المعروفة بعصفور،

ومن العلو إلى دار تعرف بفويلة، ويتم إلى دير كرج المعروف بتفاحة، وتمام الحد إلى ربع الخراجي، والحد الرابع، وهو الغربي، ينتهي إلى دير . . . ويتم إلى دير الكرج المعروف بالسنكل، وتمام الحد إلى دار تعرف بالجاموس.

ومن ذلك الحمام المعروف بالبطرك، والقبو، والحوانيت المجاورة لها، يحيط بذلك حدود أربعة : الحد الأول وهو القبلي، ينتهي إلى زقاق يسلك منه إلى الزردخانه وفيه يفتح باب الأقمين، والحد الثاني وهو الشرقي، ينتهي إلى دار تعرف قديما بالإسبتار وحديثا بالزردخانة، والحد الثالث.وهو الشمالي، ينتهي إلى الزردخانة، والحد الرابع وهو الغربي ينتهي إلى الشارع المسلوك المعروف بسوق الزيت، وفيه يفتح باب الحمام والقبو والحوانيت.

ومن ذلك البركة المعروفة بالبطرك، والربع الملاصق لها، العلو والسفل من ذلك بظاهر القدس الشريف، البركة المعروفة بها ملاّه، والقناة التي يجرى فيها الماء من هذه البركة إلى البركة الجوانية المعروفة بالبطرك؛ ومن ذلك أرض الجورة العليا، وهي الشمالية، يحيط بها حدود أربعة : الحد القبلي ينتهي إلى الطريق السالكة إلى صرنطة وبين الجورة القبلية، ويتم إلى الصَّخْر الممتد الفاصل بينها وبين الذي كان مقطع الحجارة، والحد الشرقي ينتهي إلى الطريق الفاصل بينها وبين خندق المدينة، والحد الشمالي ينتهي إلى الطريق السالكة ماملاّ وغيرها، والحد الغربي ينتهي إلى السلسلة الفاصلة السفلى، وهي القبلية، تعرف بالاسبتار يحيط بها حدود أربعة : الحد القبلي ينتهي إلى حائط قديم داخله قناة قديمة، والحد الشرقي ينتهي إلى الطريق السالكة إلى باب الخليل وغير ذلك، والحد الشمالي ينتهي إلى الطريق السَّالكة إلى صرنطة الفاصل بينها وبين الجورة العليا، والحد الغربي ينتهي إلى الطريق إلى بركة حرمين والقلعة وغير ذلك.

ومن ذلك الأرض المعروفة بالبقعة، يحيط بذلك أربعة حدود : الحد القبلي ينتهي إلى حائط ممتد شرقاً بغرب فاصلاً بينها وبين أراضي كرماً، منها بقيع

زيتون ويعرف بسلامة أبي صرُيصير، وبقيع ابن سفلات ، وبقيع يعرف بابن رقية ، وداخل هذا الحَدّ بقيع يعرف بمـرج اسبكر ، وهو من حقوق البقعة ، وتمام الحد إلى أرض طبليّـة ، وهو حـائط قـديـم فاصـلاً بين العنـق وأراضي طبليّة ، والحائط المذكور ينتهي إلى الشـارع المسلوك منه إلى طبليه ، وتمام الحد حائط قديم محاد له شجرة بطم ، وفي ذلك الحائط شجرة أجاص وهو فاصل بين أراضي البقعة وبين أراضي بيت صفَافـا ، والحد الشرقي ينتهي إلى السِّكة السالكة إلى سور باهر وغيرهـا ، والحد الشمالي ينتهي إلى مربعة النساء ، ويتم إلى شارع قـديم ، والحد الغـربي ينتهي إلى السِّكـة السالكـة إلى بيت صفـافا وغيرها ، ومـن ذلك قطعتين تعرف احـداهما بعضها بمرج اسبكـر وبعضها رأس الخنوص وباقيها . . . . . الحد الشرقي للبقعة وهي الطريق السالكة إلى سـور بـاهـر وغيرهـا ومن الشمال بقيـع في البقعـة يقـال لـه دق معـاش والحماديّة ، ومـن الغرب الطـريق والقنـاة القديمـة ، والقطعة الثـانية يعـرف بعضها نجلـة أبي الوقية وبعضها بكـرم الركار وبـاقيها بقيعان تعرف بـالعنق والأرض المعروفـة التي يقـال لها ضريبة الأرجـام ، يحيط بهذه القطعـة حدود أربعة : الحد القبلي حـد البقعة مـن القبلة وهـو الحائط الفاصـل بينها وبين أراضي طبليـة ، والحد الشرقي ينتهـي إلى القنـاة المذكـورة الفاصلـة بين هـذه القطعة والقطعة الأولى ، الحد الشمالي به يعرف بالركار والأرض الملاصقة لها ، ومن الغرب رصيف فاصل بين هذه الأرض وأرض بيت صفافا .

بحدود ذلك جميعـه وحقوقه ، وقليله وكثيره ، وجبله وسهلـه ، وسرابه وما يعرف به وينسـب اليه من حقوق ذلك الـداخلة فيه والخارجة عنـه ، صدقة موقوفة محبّسـة محرمة مؤبدة بنية مثله ، جـايزة نافذة ماضية لـوجه الله تعالى ، وطلب وجوه ثـوابه وابتغاء مرضاته وجـزيل عطائه والمراقي لديـه ، لا يدخل عليه وجـه من وجوه التمليكـات ولا يزيلها عـن تحبيسها سبب مـن أسباب الإنتقالات ، قائمة على أصولها ، لا يغيرها ممر الأيام والشهور ، ولا يقدح فيها تقادم الأعوام والدُّهور ، محفوظة على شروطها ، مسبّلة على سبلها لا . . . .

. . تغير ولا تبديل، ولا يلحقها فسخ ولا تحويـل أبداً، ما دامت السموات والأرض، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهـو خير الوارثين، على الوضع الذي يأتي ذكره فيه، وهو السيد الأجـل الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، قامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، هذا المحبَّس وقف وحبس وأبد جميع هذه الأماكن المحددة فيه على :

السادة المشـايخ الصـوفية الشيـوخ والكهول والشبـان البالغين المتـأهلين والمجردين من العرب والعجم، وجعل الـدار المعروفة بالبطرك المذكورة أعلاه ربـاطاً لهم وسكنـاً، للمجرد منهـم المقيمين بها والـواردين مـن سائر البـلاد الشاسعة، من الصوفية المعروفين مـن الخوانق بطريقهم وآدابهم، ولا يدخل أحد عليهـم من غير جنسهـم بشفـاعة شافع ولا لـولي أمر، ومن فعـل ذلك فوزره على الشافع والمشفوع له، على أن ليـس لواحد منهم أن يسكن في هذه الدار الا بمقـدار حاجته منها، بغير زيـادة عليه، من غير ضرر يتـوجه على الآخر، وعلى أن من سبقه منهم إلى مكان في هذه الدار وسكن فيه قبل الآخر فليس لأحد اخراجه ولا أن يبدل به غيره، ومن سافر منهم إلى حيث شاء من البلاد وعاد من سفـره إلى هذه الدار فله السكن فيها، فإن كان مكـانه خالياً من غيره فهو أولى به، وإن كان مشغولا يسكـن غيره فيه فله السكن في هذه الدار بمقدار حاجته وكفايته أسوة أمثـاله ممن سكن فيها. وعلى أن من سقط منهم بالوفاة بطل حقه مـن السكن وغيره لموته، وإن كان لغيره ممن لم يكن له موضعـاً في هذه الدار للسكـن ودعت حـاجته للسكن بـه فليسكن. وشرط الملك النـاصر جامـع كلمة الايمان، قـامع عبـدة الصلبان، صـلاح الدنيـا والدين، المحبس المذكور : أن يجتمع الجماعة المذكورون بهذا المكان المذكور، بعد صلاة العصر بأسرهم في كل يـوم يقرأون ما تيسر من القرآن العظيم، في ربعات شريفة، ويذكرون مما حسن من الذكر ويدعون عقيب ذلك للواقف

المحبس المذكور وللمسلمين آجمعين .

وشرط أيضا الملـك الناصر صـلاح الدنيا والـدين ، المحبـس المذكور، أن يصرف من ريع الجهات المذكـورة عليهم ما يراه الناظر الشرعـي به ، بحسب ما يؤدي اليـه اجتهاده ورأيه ، وأن تكون الأمور جميعها في هـذا الموقف راجعة إلى شيخهـم النـاظر الشرعـي عليهـم لا يتكلـم فيه أحـد غيره ، وأن يكـون شيخهم منهم ناظـراً عليهم ، على أن الشيخ الناظر على هذا الـوقف يفوض النظر لمن يكـون أهل له مـع المشيخة إن لم يكن له ولـد يصلح ، فإن كـان له أولاد ذكور فيسنده هـو والمشيخة للأكبر والأمثل منهم من غير مشـاركة أحد له في ذلـك ، يجرى الأمر في ذلـك كذلـك ما دامـت ذريته مـوجودة ، فـإذا انقـرضوا ولم يبـق أحد منهـم ، فينظر في الأمثـل مـن صوفيـة المكان فيكـون شيخهـم منهم لا مـن غيرهـم ، نـاظراً عليهـم ، ويكـون الحاكـم فيه كمـن تقدمـه ، فإن تعـذر وجدان هـذه الطائفـة والعياذ بـالله تعالى ، صرف ريـع الأمكنة المذكورة على الفقراء والمساكين .

فان بدا مـن هؤلاء الجماعة المذكورين مـن شيء يوجب تأديبـه وخروجه ، أدب واخرج من هذا المكان ، ولا يعود اليه الا بعد سفره إلى الحجاز الشريف أو غيره ، وتهذيبه والتوبة إلى الله تعالى والندم والاقلاع .

وشرط أيضاً الملك الناصر، المحبس المذكـور، أن يجتمع الجماعة المذكورون مع شيخهـم بعد طلوع الشمـس من يـوم الجمعة ، بهذا المكان أو بـالمسجد الأقصى الشريف يقـرأون في ربعات شريفة ، ويدعون عقيب ذلـك للواقف وللمسلمين ، ويقرأون بحضـور شيخهم مـا تيسر من كـلام الائمة المشـايخ الصوفيـة نفع الله بهم ، في كـل جمعة ، فان تعـذر ففي بعـض الجمع ، يجرى الحال في ذلك كذلك ما استمرت الدنيا .

فقد تمت هذه الصدقـة الموقوفة ، وتقدمت شروطها وأحكـامها ، وصارت صدقة محرمـة تحريما مؤبداً ، بتحريـم الله سبحانه لها ، وذلك أجمع التحـريم

الذي حرم به حرماته وانتهاك محارمه والاتحاد في إسمه، وحرمات أنبيائه ورسله وملائكته صلى الله عليهم وحرمة بيته الذي جعل الله مثابة للناس وأمنا، وحرمة للايمان وأهله، فلا يحل لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر، من راع ولا رعية لقوة سلطانه أو لطيف حياته ودقة فطنته واتساع تأويله، أن يبطلها ولا شيئاً من شروطها وأحكامها، ولا يغيرها من أصل ولا رسم ولا يبدلها، ولا يقدح فيها، بما لا ينبغي اتهامها، ولا يسعى في شيء من ذلك بأمر ولا بإيحاء ولا بتعطيل ولا بشيء يعلمه الله الذي يعلم خاينة الاعين وما تخفي الصدور. فمن فعل ذلك وأعان عليه فقد اذى نفسه، وحرم أمانته وعند أمر ربه، واستخف بحرمته، وتمرد عليه، واستهان وعيده، واستحق لعنته ولعنة أنبيائه ورسله، لعنة يلحقه في الدنيا عارها، ويوم القيامة جهنم وسعيرها، والله تعالى طليبه وحسيبه، ومؤاخذه بعمله ومجازيه على فعله، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد، فهو معاقب المسيئين ومجازي المحسنين، وبالمرصاد للظالمين لقوله تعالى «فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إنّ الله سميع عليم».

وقد أذن السيد الأجل، الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، قامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، قاتل الكفرة والملحدين، أبو المظفر يوسف، الواقف المشار اليه، أتم الله نعمه عليه وخلد ملكه وابد سلطانه وأعلا شأنه، وأمد على الخليقة ظله، وأعز انصاره وضاعف اقتداره، لمن وضع خطة آخر هذا الكتاب من الشهود العدول والسادة الاعيان بالاشهاد بما نسب اليه فيه، فشهدوا عليه وذلك في الخامس من شهر رمضان المعظم قدره سنة خمس وثمانين وخمسايه، والحمد لله رب العالمين، وصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وحسبنا الله وكفى.

القدس الشريف - وقفية حي المغاربة

(*The Islamic Pious Foundations in Jerusalem.* London, Islamic cultural centre, 1978)

كما نشرها عبد اللطيف الطيباوي

شرط واقف محلة المغاربة قيد بإذن مولانا . . . شجاع الدين أفندي قاضي القدس الشريف . . . وهذا الكتاب متصل الثبوت والتنفيذ بحكم الشريعة إلى يومنا هذا، وقيد في اليوم السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ألف وأربعمائة .

بسم الله الرحمن الرحيم، يشهد من أثبت إسمه وشهادته آخر هذا المحضر، وهم يومئذ من الشهود الأمناء الأحرار العقلاء المسلمين الذكور الأخيار من أهل علم ومخبرة بها يشهدون به شهادة عرفوا صحتها وتحققوا معرفتها. . . لا يشكون فيها ولا يرتابون . . ويلقون الله بأدائها أنهم يعرفون جميع الحارة المعروفة المسماة بحارة المغاربة الكائنة بمدينة القدس الشريف . . . الحد الأول وهو القبلي ينتهي إلى سور مدينة القدس الشريف والى الطريق المسلوكة إلى عين سلوان، والحد الثاني وهو الشرقي ينتهي إلى حائط الحرم الشريف، والحد الثالث وهو الشمالي ينتهي الى القنطرة المعروفة بقنطرة أم البنات، والحد الرابع وهو الغربي وينتهي إلى دار الإمام شمس الدين قاضي القدس الشريف، ثم إلى دار الأمير عماد الدين بن موسكي، ثم إلى دار الأمير حسام الدين قايماز.

ويشهد شهوده أن هذه الحارة المعينة أوقفها السلطان الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، رحمهما الله تعالى، على جميع المغاربة على اختلاف أوصافهم وتباين

حرفهم ذكورهم واناثهم كبيرهم وصغيرهم فاضلهم ومفضولهم، ليسكنوا فيها في مساكنها وينتفعوا بمرافقهاعلى قدر طبقاتهم وما يراه الناظر عليهم وعلى وقفهم من ترتيب ذلك وتفضيل من يفضله وتقديم من يقدمه، بحيث لا يتخذ شيء من المساكن ملكاً ولا احتجازاً ولا بيعاً، وقفاً مؤبداً شرعياً، ماضياً جارياً على هذه الطائفة المغاربة . . . . .

ويشهد شهوده أن النظر في ذلك، وفي كل جزء منه، وفي ترتيب أحواله ووظائفه وأموره، راجع إلى من يكون شيخاً قدوة من المغاربة المقيمين في كل عصر وأوان بالقدس الشريف، يتولى ذلك بنفسه، وله أن يولي من اختار وآثر، ويستنيب عنه من يقوم مقامه، وله عزله إذا أراد . . . .

ويشهدون به وبذلك كتبوا شهاداتهم في اليوم الرابع والعشرين من شهر الله رجب الفرد سنة ست وستين وستمائة [١٤/ ٦/ ١٢٦٢م].

مآثر أيوبية في القدس

(ابو شامة . **الذيل على الروضتين** . بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤ .

ص١٠٨ : ١١٥ - ١١٦)

في ترجمة الامير بدر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري :

«استشهد . . . بالطور . . . . بعد أن أبلى بلاء حسنا، وكان من المجاهدين وله المواقف المشهورة في قتال الفرنج، وكان من أكابر أمراء المعظم يستشيره ويصدر عن رأيه ويثق به لصلاحه ودينه . . . . بنى بالقدس مدرسة للشافعية وقف عليها الاوقاف وبنى مسجداً قريباً من الخليل عليه السلام عند قبر يونس عليه السلام على قارعة الطريق، وكان يتمنى الشهادة دائما، ويقول : ما أحسن وقع سيوف الكفار على وجهي وأنفي، فاستجاب

الله دعاءه ورزقه الشهادة، ونقل من الطور إلى القـدس فدفن في تربة ماملاّ، وهي المقبرة التي تزار بالقدس الشريف.

هدم سور القدس ٦١٦هـ/ ١٢١٩م

(الذيل على الروضتين، ص ١١٥ - ١١٦)

«ففي أول المحـرم، وقيل في سـابع المحرم، أخـرب المعظـم أبـراج القدس وسوره، خـوفاً مـن استيلاء الفـرنج عليها، فـاضطرب النـاس وخرجـوا منه متفرقين في البلاد، وهان عليهـم مفارقة ديارهم وضياع أمـوالهم، وقد كانت القدس يومئذ على أتم الاحوال من العمارة وكثرة السكان.

قال أبو المظفر: كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط، وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس، فاتفق الامراء على خرابه، وقالوا: قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس أخـوه العزيـز عثمان وعـز الديـن أيبك أستـاذ الـدار، فكتب المعظـم اليهما بخرابـه، فتوقفا، وقـالا: نحن نحفظـه، فكتب اليهما المعظم: لـو أخذوه لقتلوا كل مـن فيه، وحكموا على دمشق وبـلاد الشام، فألجأت الضرورة إلى خرابـه، فشرعوا في السور في أول يوم مـن المحرم، ووقع في البلد ضجـة مثل يوم القيامـة، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيـوخ والعجائز والشباب والصبيـان إلى الصخرة، فقطعـوا شعورهـم ومـزقوا ثيـابهم بحيث امتـلأت الصخـرة ومحراب الاقصى مـن الشعـور، وخرجـوا هـاربين وتـركوا أمـوالهم وأثقالهم وما شكوا أن الفرنج تصبحهم (الأصل: تصحبهم)، وامتلأت بهم الطـرقات، فبعضهـم إلى مصر وبعضهم إلى الكـرك وبعضهم إلى دمشـق، وكانـت البنات المخدرات يمـزقن ثيابهن ويـربطن على أرجلهن مـن الحفا،

ومات خلق كثير من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم يكن في الاسلام مثلها، ونهبت الاموال التـي كانت لهم في القدس، وبلغ قنطار الـزيت عشرة دراهم ورطل النحاس نصف درهم . . . »

لوح

(٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م)

«بسم الله الـرحمن الرحيم هذا مـا وقف وحبس الامير السيـد الاجل نصر الدولة وعمادهـا ذو الصرامتين ابا نصر احمد بن مروان أدام الله ثـوبه واحسن مـآبه هـاتين الـدارين المتـلاصقتين بجميـع حـدودهما وحقوقهما على جميـع الواردين مـن ديار بكر على ما امـر في كتاب وقفهما فمن غيره أو بدّلـه فعليه لعنة الله وذاك في شهر رمضان من سنة خمس وأربعين وأربعمائة [كانون الأول سنة ١٠٥٣م] أثابه الله .

(مسجد بالقدس سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)

(Burgoyne, M.H. "A Recently Discovered Marwanid inscription in Jerusalem". *Levant,* Vol. XIV, 1982).

بسم الله الرحمن الرحيم

تولى عمارة هذا (١) المسجد المبارك . . . قف وعليه

مر (؟) الله مامه (؟) رما

مامه (؟) الله وسعه (؟) لله (؟)

وذلك في سنة اثنين

(و) ثمانين واربعمائة (١٠٨٩م).

استيلاء الفرنجة على بيت المقدس

(ابن خلكان . وفيات الاعيان وانباءابناء الزمان . تحقيق احسان عباس . بيروت ، دار صادر. ١٩٧١ ، ص ١٧٩ .)

« . . . وأخـذوا البيت المقـدس في شعبان سنـة اثنين وتسعين (حزيـران ١٠٩٩ م) أيضا ، وكان الفرنـج قد أقاموا عليه نيفاً وأربعين يـوماً قبل أخذه ، وكان أخـذهم له ضحى يـوم الجمعة ، وقتل فيه مـن المسلمين خلق كثير في مدة أسبـوع ، وقتل في الأقصى مـا يزيـد على سبعين ألفاً ، وأخذوا مـن عند الصخرة من أواني الذهب والفضة ما لا يضبطـه الوصف ، وانزعج المسلمون في جميع بلاد الإسـلام بسبب أخذه غايـة الإنزعاج - وسيأتي ذكـر طرف من هذه الـوقعة في تـرجمة الأفضل بـن أمير الجيوش في حـرف الشين إن شاء الله تعالى .

وكان الأفضل شاهنشاه المنعوت بـأمير الجيوش قد تسلمه من سليمان بن أرتق في يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، وقيل في شعبان سنة تسع وثمانين ، والله أعلم بالصـواب ، وولي فيه من قبله ، فلم يكن لمن فيه طاقة بالفرنج فتسلمـوه منه ، ولو كان في يد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين . . . . » .

نفسه ج٢ ص ٤٥١ (عن كتاب الدول المنقطعة)

(ابن خلكان ، **وفيات**، ص ١٧٩)

أرتق بن أكسب ، جد الملوك الأرتقية :

« هو رجـل من التركمان ، تغلب على حلـوان والجبل ، ثم سـار إلى الشام مفارقاً لفخـر الدولة أبي نصر محمد بـن جهير خائفاً من السلطـان ملكشاه ،

وذلك في سنة ثمان أو تسع وأربعين وأربعمائة [١٠٥٦/ أو ١٠٥٧م]، وملك القدس من جهة تاج الدولـة تتش . . . ولما توفي أرتق (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) . . . تولاه (القدس) بعده ولداه سلمان وايلغازي ابنا أرتق، ولم يزالا به حتى قصدهما الأفضل . . . وأخذه منهما . . . وتوجهـا إلى بلاد الجزيرة الفراتية وملكا ديار بكر . . .».

(ابن خلكان، وفيات، ١ ص ١٩١، (عنه) الصفدي الوافي بالوفيات، ٨ ص ٣٣٦ (ترجمة رقم ٣٧٦٢)

في ترجمة العادل علي بن السلار :

«وكـان والـده في صحبة سقمان بـن أرتـق صـاحب القـدس، فلما أخـذ الأفضل أمير الجيوش القدس من سقمان . . . وجد فيـه طائفة من عسكر سقمان، فضمهـم الأفضـل اليـه، وكـان في جملتهـم السـلار والـد العـادل المذكور، فـأخذه الأفضل اليـه، وتقدم عنـده، وسماه ضيف الدولـة، وأكرم ولده هـذا، وجعل في صبيـان الحجر، ومعنـى صبيان الحجـر عندهـم : أن يكون لكـل واحد منهـم فرس وعدة، فـاذا قيل لهم عـن شغل مـا يحتاج أن يتوقف فيه، وذلك على مثال الداوية والاسبتـارية، فاذا تميز صبي من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للإمرة، فترجح العادل بهذه الصفات . . .».

ابن خلكان، وفيات، ٣ ص ٤١٨

(رايت في بعض تـواريخ المصريين : أنه كان كـردياً زرزاريا، وكان تـربية القصر في القاهرة . . قتل ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م). ص ٤١٦.

احتلال الفرنج للقدس

(ابن ميسر. المنتقى من اخبار مصر. القاهرة، المعهد الفرنسي للاثار الشرقية، ١٩٨١ .
ص ٦٥ - ٦٦ : ١٥٥ - ١٥٦)

٤٩١هـ/ ١٠٩٨م : «في شعبان (تموز)، خرج الأفضل بعساكر جمة وسار إلى بيت المقدس، وكان به الأمير سلمان وايلغازي إبنا أرتق في جماعة من أقاربهما ورجالهما، وعساكر كثيرة من الأتراك، فراسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم بيت المقدس اليه بغير حرب، فلم يجيباه لذلك، فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانباً، فلم يجدا بداً من الإذعان اليه، فسلماه اليه، وخلع عليهما وأطلقهما، وعاد في عساكره وقد ملك بيت المقدس . . . ».

ابن ميسر، ص ٦٥ - ٦٦

٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م : «في رجب (حزيران) حاصر الفرنج البيت المقدس، وكانوا قد ملكوا الرملة في ربيع الآخرة فخرج اليهم الأفضل بعساكره، فلما بلغ الفرنج خروجه جدوا في حصاره حتى ملكوه يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان . . . وقتلوا أهل البلد جميعهم الا اليسير، وانحازت طائفة إلى محراب داود عليه السلام، فسلموا المحراب في الثالث والعشرين بالأمان، وأحرقوا المصاحف، وأخذوا من الصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات ما لا ينحصر».

ابن ميسر، ص ٦٦

٥٥٣هـ/ ٩ جمادى ١/ ٨/ ٦/ ١١٥٨م : الفاطميون - مملكة القدس

«سار عسكر إلى بيت المقدس، فعاث وخرب وعاد بغنائم، وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية انكسر فيها الفرنج . . .».

ابن ميسر، ص ١٥٦

٥٥٣ربيع الاخر/ ايار ١١٥٨م

«سار عسكر إلى وادي موسى، فحاصر حصن الوعيرة ثمانية أيام، وعاد بعدما توجه إلى الشوبك وغار عليها، وترك هناك أميرين على الحصار».

ابن ميسر، ص ١٥٦

٥٥٢هـ/ ١١٥٧م «ثم سير (الصالح - الوزير الفاطمي) عسكراً آخر، فمضى إلى الشريعة فأبلى بلاء حسناً وعاد مؤيداً.

. . . . وسير عسكراً إلى بلاد الشوبك والطفيل، فعاثوا في تلك البلاد وغاروا ورجعوا بالغنائم في رجب (آب) ومعهم عدة أسرى (أسراء) . . .».

ابن ميسر، ص١٥٥

سقوط القدس - أول الحصار

(من كتاب : *The First Crusade*, ed. by Edward Peters, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, Third Paperback Printing, 1983, pp. 202, 250- 259).

حاصر الدوق غود فري وكند فلاند رز وكند النورماندي المدينة (القدس)

من جهة الشمال، أي من عند كنيسة القديس اسطفان، التي تقع في وسط (مركز) المدينة (ربما السور) جنوباً إلى برج الزاوية الذي يقع بجانب برج داوود. أما الكند ريموند وجيشه فقد إستقروا في الجهة الغربية وحاصروا القدس من مخيم الدوق إلى سفح جبل صهيون. لكن لأجل (هذا الموقع) الذي لم يمكن رجاله من الإقتراب لحصار السور بسبب الوادي (الخندق) الواقع بينهما، رغب الكند في نقل مخيمه (معسكره) وتغيير موقعه. وبينما كان يستكشف (المنطقة) في أحد الأيام وصل إلى جبل صهيون وشاهد الكنيسة التي تقع على الجبل. . . (فقرر)، ضد رغبة قادة قواته نقل خيم معسكره إلى هذه البقعة (من الجبل). ونتيجة لذلك فقد أثار كره رجاله الشديد بحيث أنهم لم يرغبوا بنقل خيمهم إلى معسكره أو القيام بأعمال الحراسة (على الموقع الجديد) بالليل، وأقاموا حيث نصبوا معسكرهم في البداية ما عدا عدد قليل رافقوا الكند. (ثم تمكن) الكند، بواسطة العطايا والهبات (التي كان يمنحها) يومياً، من إغراء الفرسان والرجالة بحراسة معسكره . . . . . . (ص ٢٠١ - ٢٠٢ نقلاً عن كري ص ٢٥٠ - ٢٥١).

(قصة الراهب الذي طلب منهم الهجوم)

أول هجوم

وهكذا وبمثل هذه الآلات (التي بنوها مما توافر لديهم من مواد قليلة) . . . . . جرى هجوم على المدينة في الصباح الباكر، واستمر حتى الساعة الثالثة، (وأدى هذا الهجوم) إلى تراجع المسلمين خلف الأسوار الداخلية لأن رجالنا هدموا الأسوار (التحصينات) الخارجية، وتمكن البعض منهم حتى من التسلق/ إلى أعلى الأسوار الداخلية. وبينما كنا على وشك

الإستيلاء على المدينة . . . . توقف الهجوم، وفقدنا الكثير من رجالنا، ولم نقم في اليوم التالي بأي هجوم.

وبعد ذلك (الهجوم) تفرق كل الجيش (الفرنجي) في الريف المجاور للمدينة لجمع المؤن، ولم يذكر شيء بعد ذلك عن ضرورة تجهيز الآلات التي يحتاج اليها لاحتلال المدينة، وقام كل انسان بخدمة فمه ومعدته . . . (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

قبل وصولنا إلى القدس، كان المسلمون قد غوروا الينابيع (طمروها) وهدموا المصانع(والآبار) وحجزوا الجداول التي تأتي من الينابيع . . . ولذلك (كنا) نحصل على الماء بصعوبة كبيرة، وكان يوجد عين في سفح جبل صهيون تدعى عين سلوان، (وهذه العين) في الحقيقة نبع كبير يجري فيه ماء مرة واحدة كل ثلاثة أيام . . . وبسبب (قلة الماء) كان من الضروري البحث عنه على مسافة تمتد إلى فرسخين أو ثلاثة، وأخذ قطعان المواشي إلى موارد ماء بعيدة. (ص ٢٠٣).

اشارة ص ٢٠٤ :

يبدو أن الفاطميين هدموا مدينة يافا (وأخربوها) كما أخربوا الحصن أيضاً الذي لم يتبق منه الا الأنقاض، وذلك بعد توجه الفرنجة من الساحل إلى القدس.

حصار القدس من فولشر ص ٧٥ - ٧٧

(Peters, *The First Crusade*. Fulcher,

Expedition, pp. 119 - 122.

١ - وعندما شاهد الفرنج مدينة القدس، ووجدوا أنه من الصعب الاستيلاء

عليها، أمر أمراؤه ببناء سلالم من الخشب (لتسلق الاسوار)، وفكروا أنهم بنصبهم لهذه السلالم سيتمكنون من تسلقها، وبهجوم شديد[يستطيعون] الوصول إلى سطح الاسوار ويدخلون المدينة . . .

٢ - وبعد أن عملوا (السلالم) أعطى الأمراء الإشارة بضرب الأبواق، وذلك في ضوء صباح المشرق لليوم السابع من وصولنا، واندفعوا نحو المدينة من كل جانب في هجوم مدهش. وبعد اندفاعهم هذا وحتى الساعة السادسة من النهار، وعدم تمكنهم من دخول المدينة بواسطة سلالم التسلق وبسبب قلة عددها، قرروا التخلي عن الهجوم.

٣ - وبعد المشاورة (في٢١ رجب ٤٩٢هـ/ ١٣ حزيران ١٠٩٩م) طلب من الحرفيين عمل آلات (الحصار) حتى يتمكنوا من تحقيق هدفهم عن طريق تقريبها من الأسوار، وقد تم عمل ذلك.

٤ - ولم يعان (الامراء والناس في الجيش الفرنجي) من قلة الخبز والطعام، وانما عانوا من قلة ماء الشرب لهم ولحيواناتهم لان المنطقة كانت جافة وغير مروية وبدون أنهار. ودفعتهم هذه الضرورة للبحث عن الماء على مسافة بعيدة، وكانوا كل يوم يجهدون بإحضاره في القرب من مسافة أربعة أو خمسة أميال إلى مكان الحصار.

٥ - وبعد عمل الآلات مثل الدبابات (Battering ram) والستائر المعدنية (Sows)، تجهزوا لمهاجمة المدينة. وبالاضافة إلى أنواع آلات الحصار الأخرى التي صنعت، بنى الحرفيون برجاً من قطع صغيرة من الخشب، لأنه لم يكن من المتيسر الحصول على قطع كبيرة وطويلة في المنطقة. وعندما صدر الأمر (بالهجوم) أسرعوا بحمل قطع البرج إلى زاوية من سور المدينة. وفي نفس صباح ذلك (اليوم) وبعدما جمعوا الآلات والأسلحة الأخرى قاموا بنصب البرج بسرعة وبصورة محكمة قريباً من

السور. وأقيم البرج وغطي من الخارج ثم بدأوا بـدفعه ببطء لتقريبه من السور.

٦ - وباشارة (محددة) مـن البوق (الذي يتم عن طريـق نفخه للنفير) تسلق عدد قليل من الرجال الشجعـان إلى البرج. ودافع المسلمون أمام هجوم هؤلاء الرجال بـالمقاليع (Slings) والنيران (Firebrands) (المصنوعةمن قماش) مغموس بـالزيت والشحم التـي وجهوها إلى البرج ومن فيـه من الرجال، فكانت النتيجة(لكل ذلك) الموت المحقق للكثير (من الرجال) من الجانبين.

٧ - أما الكنْـد ريموند ورجالـه فقد قامـوا من موقعهم على جبـل صهيون، بهجوم كبير بالآتهم كما تم هجوم (ثالـث) على الاسوار في مكان آخر من قبـل (رجال) الـدوق غـود فـري والكند روبـرت صـاحـب النورمـان، وروبرت صاحب فلاندرز. وكان هذا هو كل ما عمل في ذلك اليوم.

٨ - وفي اليـوم التالي، وعنـد سماع صوت أبـواق النفير، قام الفـرنج بهجـوم شديـد، ووجهوا ضربـاتهم بآلات الكبش في مكـان واحد حتـى عملوا فجوة في السـور. وكان المسلمون قـد علقوا قطعتين كبيرتين مـن الخشب بـالحبال المتينـة أمـام المهاجمين كحمايـة للسور مـن الحجـارة التي كـان المهـاجمون يرمـونها، فكـان مـا عملوه لفـائدتهم أن تحول إلى ضرر لهم، وذلك بعنـاية الله، اذ إنه عندمـا قرب البرج من السور قطعـت السيوف العريضة (Falchions) الحبال التـي كانـت الأخشاب معلقـة بها وبنى الافرنج منها جسراً مدوه بذكاء (ومهارة) من البرج إلى السور.

٩ - وكانـت النار قد اشتعلت في أحـد أبراج السور نتيجة القـذائف الملتهبة التي كانت تطلقها آلاتنا، ثم ازدادت النار تدريجيا بسبب المواد الخشبية التي كانت موجودة فيه، وأنتج هذا الاحتراق الكثير من الدخان واللهب

إلى درجة لم يستطـع أحد من السكـان الذيـن يحرسون المكان مـن البقاء قربه.

١٠ - عندهـا دخل الفـرنجة المدينـة بأبهة (Magnificently) وذلك ساعة الظهيرة من يوم الجمعة (٢٣ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥تموز ١٠٩٩م). . . على اصوات الأبـواق وكل الناس في صراخ وهياج، وانـدفعوا بحماس إلى داخل المدينـة، كما رفعوا بسرعـة الراية فـوق السور. أمـا المسلمون الذين أصابهم الرعب فقد انقلبت شجاعتهم بسرعة إلى عكسها أي إلى هرب عبر الشوارع الضيقة لأرباع المدينة واحيائها.

١١ - أما كوند ريمونـد ورجاله، الذين كانوا يقاتلـون معه بشجاعة في جزء آخر من المدينة فلم يلاحظوا هذا (دخول الفرنج المدينة) الا عندما رأوا المسلمين يقفـزون من أعلى الأسـوار. فلما رأوا ذلـك ركضوا إلى المدينـة بأقصـى سرعة ممكنـة، وساعدوا الفـرنج الآخريـن في ملاحقـة العدو وقتلهم.

١٢ - ثـم هرب بعـض المسلمين العـرب والسـودان إلى برج داوود، وأغلـق البعض الأبواب على أنفسهم في المعبد (المسجد الأقصى) حيث هجم الفرنج عليهم، ولم يستطع المسلمون الهرب من سيوفهم.

١٣ - وتسلق بعـض المسلمين في هربهم إلى سقف المسجد الأقصـى، فقتل الكثير منهم بـالنشاب ووقعوا مـن الأعلى إلى الأرض. ولو كنـت هناك لتلطخت قـدماك حتى الكعـب بدماء المقتـولين. ماذا أكثر مـن ذلك يمكن أن أذكر؟ لم يسمح لاحد منهم بالبقـاء حيا ولم يوفر الفرنج النساء والاطفال.

استيلاء الفرنجة على القدس

رواية ريموند دي اجيل

(Raymond D'Aguiliers, pp. 201 - 215)

« . . . . عين دوق وكنود نورماندي وفلاندر غاستون (صاحب Beart) مسؤولاً عن الرجال الذين يعملون ببناء آلات (الحصار)، وقد بنى هؤلاء الرجال الستائر (Montlets) والأبراج التي ستستعمل في الهجوم على الاسوار. وعين غاستون مسؤولاً عن هذا العمل من قبل الامراء لأنه كان من السادة الأشراف، ويحترمه الجميع لمهارته وسمعته الطيبة، وقد سارع عملية بناء (هذه الآلات) بتقسيم العمل بين العمال، أما الامراء فقد شغلوا أنفسهم بالحصول على المواد (الضرورية للبناء) واحضارها إلى موقع البناء، بينما كان غاستون يشرف على عملية البناء. وكذلك عمل الكوند ريمون (الصنجيلي) الذين عين وليم (صاحب ريكو) مشرفاً على العمل (في بناء آلات الحصار) على جبل صهيون، كما عين مطران البارة مسؤولاً عن المسلمين الأسرى وغيرهم (من الأسرى لدى الفرنج) الذين كانوا يحضرون الأخشاب، وذلك أن رجال الكند (ريمون) كانوا قد استولوا على كثير من حصون المسلمين وقراهم وأجبروا المسلمين (الذين أسرهم) على العمل كما لو كانوا عبيدهم. وهكذا فمن أجل بناء الآلات عند (أسوار) القدس، كان خمسون أو ستون رجلاً يحملون على أكتافهم قطعة كبيرة (وطويلة) من الخشب والتي لا يستطيع جرها أربعة أزواج من الثيران.

وماذا يمكن أن أضيف إلى ذلك؟ لقد كان الجميع يعمل لهدف واحد، ولم يكن من أحد (من الناس) أو يد خالية من عمل ما. وعمل الجميع دون أجر، ما عدا الحرفيين، الذين كان يدفع لهم أجرهم من مال يجمع من

الناس، وعدا عمال ريموند (الصنجيلي) الذين كان يدفع لهم (أجورهم) من خزانته . . .

وعندما انتهت أعمال البناء واكتملت الآلات، عقد الأمراء مجلساً (للمشورة)، وأعلنوا (بعد ذلك) : «ليجهز الجميع أنفسهم للمعركة يوم الخميس. في نفس الوقت دعنا نصلي ونصوم ونتصدق. أعطوا (قدموا) الحيوانات لديكم ولدى أبنائكم إلى الحرفيين والنجارين لكي يحضروا قطع الخشب والأعمدة والأوتاد (Stakes) والأغصان لعمل الستائر، وعلى كل فارسين عمل واحدة من هذه الآلات وعمل سلم واحدٍ، ولا تترددوا في العمل من أجل الرب، لان تعبكم هذا سينتهي قريباً. وانصاع الجميع برغبة (ودون تردد) للعمل. ثم تقرر بعد ذلك تحديد الجهة من المدينة التي سيقوم كل أمير بنصب آلاته لمهاجمتها.

وفي ذات الوقت، فإن المسلمين في داخل المدينة، الذين لاحظوا كثرة عدد الآلات التي بنيت، قاموا بتحصين وتقوية المناطق الضعيفة من الأسوار، بحيث بدا (لنا) أنه لا يمكن التغلب عليهم (وأخذها) الا بجهود كبيرة ويائسة.

ولأن المسلمين عملوا الكثير من التحصينات لمواجهة آلاتنا فقد قام كل من الدوق وكند فلاندرز، وكند نورماندي في ليلة اليوم الذي تقرر فيه الهجوم بنقل الآلات والستائر والمنصات (Platforms) إلى جهة المدينة الواقعة بين كنيسة القديس اسطفان (خارج باب العمود - أنظر الخارطة) ووادي جهنم (Jehoshaphat) . ولا تفكر، أيها القارىء، بأن ذلك كان مهمة سهلة، لأنها نقلت كقطع (أجزاء) متفرقة مسافة تقرب من ميلٍ إلى المكان الذي تقرر نصبها فيه، وعندما لاح الصباح، ورأى المسلمون بأن المخيم (المعسكر) وكل الآلات قد نقلت خلال الليل، أثار ذلك دهشتهم. ولم تصب الدهشة

المسلمين فقط، وإنما أيضاً جماعتنا، لأنهم عرفوا أن الرب كان معنا، وتم هذا التغيير (في الموقع المحدد للآلات) لأن الموقع الجديد كان أكثر استواء وبالتالي أكثر مناسبة لتحريك الآلات صوب الأسوار، وهو شيء لا يستطاع عمله الا إذا كانت الأرض مستوية، وكذلك بدأ أن هذا الجانب من المدينة هو الأضعف إذ ترك دون تحصين (أو تعزيز للتحصينات) نظراً لبعده عن معسكرنا. ويقع هذا الجانب من المدينة في الجهة الشمالية منها.

أما كونت ريموند ورجاله (كانوا يخيمون) على جبل صهيون فقد عملوا بجدٍ مساوٍ أيضاً، ولكنهم تلقوا مساعدة كثيرة من وليم إمبرياكو والملاحين الجنويين، الذين تمكنوا بالرغم من فقدانهم لسفنهم عند يافا كما ذكرنا، من تخليص الحبال والمدقات الخشبية والمسامير الحديدية الكبيرة والفؤوس والقطاعات (Hachets) (من السفن)، والتي كانت ضرورية لنا.

ولكن لماذا نؤخر (سرد) القصة؟ فقد قدم اليوم المحدد (للقتال) وبدأ الهجوم. ومع ذلك فإنني أود أن أذكر ما يلي أولا، وهو: أنه طبقاً لتقديراتنا، وتقديرات كثير غيرنا أنه كان في داخل أسوار المدينة (حوالي) ستين ألف مقاتل غير النساء والقلة من الرجال الذين لا يستطيعون حمل السلاح، أما من جانبنا فلم يكن لدينا على الأكثر (من التقديرات) ما يزيد على اثني عشر ألف رجل قادر على حمل السلاح، إذ كان (في معسكرنا) الكثير من الناس الفقراء والكثير - من المرضى. وكان في جيشنا بين اثني عشر ألف وثلاثة عشر ألف فارس، كما قدرت ذلك، لا أكثر . . .

وبدأ (الفرنج) بحفر النقوب تحت الأبراج والأسوار، وانهمرت الحجارة من كل جانب من (آلات المدافعين) مثل Petrariae, Tormenti، وزخات كبيرة من النشاب التي سقطت مثل البرد الثلجي. وتحمل (المهاجمون) خدام الرب كل هذا بصبر . . . . سواء أكان مصيرهم القتل أو تمكنوا من التغلب على أعدائهم.

ولم تؤد (مجريات) المعـركة (ذلك اليوم) إلى النصر. وعنـدما جرت الآلات وقربت إلى الأسوار بدأ الرمي (منها) ليس فقط الحجارة والنشاب ولكن أيضاً الأخشاب والقـش الملتهب بـالنار وكان الخشـب يغمس بـالقطران (Pitch) والشمـع والكبريت، ثـم يلـف القش (بعـد ذلك) حـول الخشـب بربـاط حديدي، وعندما تشعل هذه كـانت تطلق (أو ترمى) من الآلات. اقول إن جميع هـذه المواد كانت تـربط كذلـك برباط مـن الحديد حتى تبقـى الكتلة متماسكـة مع بعضهـا وتستمـر في الإشتعال (إلى حيـث تقـع)، ومثل هـذه المقذوفات، التـي تطلق إلى أعلى لا يمكن مقاومتها بـالسيوف أو الأسوار أو حتى من قبل المدافعين خلف أسوار المدينة الذين لم يجدوا أمانا منها.

واستمـر القتـال (يوم الخميـس) مـن طلـوع الشمس إلى مغيبهـا بصـورة مدهشـة بحيث يصعـب تصديـق أنه يمكـن القيام بشيء أكثـر عظمة مـن ذلك. . .

وجلـب الليـل الخوف للجانبين المتحـاربين، وكـان خـوف المسلمين أنّ نتمكـن من الإستيـلاء على المدينة بـالليـل أو في اليوم التـالي، فقد تهدمـت التحصينات الخارجية، وملىء الخندق (سوي) بحيث صار من الممكن عمل (فجوة) في السور والـدخول منها بسرعة. أمـا من جانبنا فقـد خفنا فقط أن يتمكن المسلمـون من إشعـال النار بـالآلات التي قـربت كثيراً مـن السور، وبـذلـك يتمكنـون مـن تحسين مـوقفهـم (العسكـري). وكـانـت تلـك الليلة، للجانبين، ليلة تـرقب وتعب وحذر وقلة نوم من نـاحية، وأمل أكيد من ناحية أخـرى، وخوف وشك . . . . . ويصعب التصديق كـم كانت الجهود كبيرة من الجانبين خلال الليل.

وعندمـا جاء صباح اليـوم التالي (الجمعة) انـدفع رجـالنا (من الفـرنجة) بحماس باتجاه الأسـوار، وبدأوا بجرّ الآلات إلى الأمـام (نحو السـور)، لكن

المسلمين (بنوا بدورهم) آلات كثيرة بحيث صار لديهم تسعة أو عشرة آلات مقابل كل آلة من آلاتنا ، ولذلك فقد أثروا كثيراً في (إضعاف) جهودنا . وكان هذا اليوم هو اليوم التاسع الذي قال الكاهن إنه اليوم الذي سنحتل فيه المدينة ، ولكن لماذا أتباطىء طويلاً (في ذكر القصة)؟ إن آلاتنا قد تضعضعت وتفككت بسبب ضربات الحجارة الكثيرة ، وتراجع رجالنا لأنهم كانوا مرهقين جداً ، ومع كل ذلك فقد بقيت رحمة الله . . . . .

وعند ظهر ذلك اليوم (الجمعة) كان رجالنا قد وصلوا إلى درجة اليأس . كانوا مرهقين جداً واستنفذوا كل قواهم ، إذ كان لا يزال الكثير من الأعداء مقابل كل رجل من رجالنا ، كما أن الأسوار كانت عالية ومنيعة وقوية ، كما أبدى العدو قدرات كبيرة ومهارات فائقة في ترميم دفاعاتهم التي تضررت بحيث بدا أنها صارت أعظم من أن نتغلب عليها . وفي مثل (هذه الحالة) من التردد وفقدان التوصل إلى قرار ، ونشوة العدو من حالنا ، جاءتنا رحمة الله الشافية : بينما كان مجلس (الشورى) مجتمعا لتقرير سحب آلات (الحصار) أو ابقائها ، لأن بعضاً منها أحرق وبعض آخر قد تفكك ، ظهر فارس على جبل الزيتون وبدأ يلوح لنا بالتقدم (للهجوم) . . . فابتدأ رجالنا بتوجيه ضرباتهم نحو السور (من جديد) بينما قام آخرون بنصب السلالم (على الأسوار) وتسلقها إضافة إلى التسلق بالحبال . من ناحية أخرى بدأ رجالنا برمي النار المشتعلة بالنشاب وبذلك أوقفوا الهجوم الذي قام المسلمون به على الأبراج الخشبية (التي بناها) الدوق والكندين (المذكورين سابقا) . وكانت هذه المقذوفات النارية ملفوفة بالقطن ، وتمكن (رجالنا) باستخدامها من إبعاد المدافعين عن السور ، عند ذلك قام الكند بانزال أرض الجسر المتحرك الطويل الذي يحمي جانب البرج الخشبي المواجه للأسوار ، فاستقر فوقها (الأسوار) لأنه كان مثبتاً إلى وسط البرج ، مشكلا بذلك جسراً عبر الرجال فوقه ودخلوا مدينة القدس بشجاعة ودون خوف . وكان من بين

أوائل من دخـل المدينة تنكرد ودوق لـورين اللذين أهـرقا في هذا اليـوم دماء كثيرة لا تصدق. ولحقهم الباقون جميعا، وبدأت عندها معاناة المسلمين.

ومن غريب ما يسجل (هنا) أنه في ذات الـوقت الذي دخل (الفرنج) فيه إلى المدينة واحتلوها تقريباً، كان المسلمون لا يزالون يقاتلون في الجانب الآخر منها حيث كانت (قوات) الكند (ريمون) تقاتل كما لو أن المدينة لا يستطاع احتلالها. وبعدمـا تمكن رجالنا مـن احتلال الأسوار كان المشهـد مدهشا، فبعض رجالنـا قطعوا رؤوس أعدائهـم (وكان ذلـك أكثر رحمة لهم) والبعض الآخر تم قنصهم بـالنشاب بحيث صاروا يتساقطون مـن الأبراج، والبعض الآخر عـذبهم لمدة أطول بالقـائهم في النار الملتهبة، وكنـت ترى أكوامـاً من الـرؤوس والأيدي والأقـدام في شـوارع المدينـة، بحيث صـار (على المار) أن يلتقط طـريقه فوق جثـث الرجال والخيول، ولكـن كانت هـذه أمور صغيرة بالمقارنة بما وقع في معبـد سليمان (المسجد الاقصى) . . . . . فماذا حدث هناك؟

اذا أخبرتك بالحقيقـة فإنها ستزيد مـن مقدرتك على التصديـق، ولذلك يكفي أن اقول القدر التالي عن ما وقع في معبد سليمان وأروقته : فان الرجال كـانوا يسيرون في الـدمـاء إلى ركبهم وأرسنـة خيـولهم . . . . وقد امتـلأت المدينة بـالجثث والدماء، وكـان بعض أفراد العدو قـد لجأوا إلى برج داوود، وطلبوا من الكند ريموند الرحمة والحماية، وسلموا البرج اليه.

حصار القدس

(وليم الصوري، تاريخ الأعمال في ما وراء البحار

[بالانكليزية] ج١ ص ٣٤٨ - ٤٠٨)

الفصل الخامس

في (يوم) [١٥ رجب ٤٩٢هـ] ٧حزيران من سنة ١٠٩٩م، خيمت فرق الجيش المسيحي أمام القدس، وكان عدد الحجاج من الرجال والنساء من مختلف الأعمار والأحوال كما قيل حوالي أربعين ألف (إنسان). ومن بين هذا الجمع الكبير لم يكن هنالك أكثر من عشرين ألف راجل وألف وخمسماية فارس، أما الباقي فقد كانوا من المرضى وغيرهم ممن لا فائدة ترجى منهم.

وذكرت الروايات أنه كان داخل مدينة القدس (حوالي) أربعين ألفا من المقاتلين الشجعان المجهزين (بالسلاح) بصورة ممتازة. فقد تجمع في المدينة المقدسة من جاء من القلاع المحيطة بها ومن الأرياف القريبة منها. قد هرب (أولئك) الرجال أمام الجيش الفرنجي (المتقدم من الساحل) ليس فقط طلباً لحماية أنفسهم، ولكن للمساعدة في الدفاع عن المدينة الملكية ضد الخطر الذي هددها، وقد أحضروا معهم تعزيزات (للمدينة تمثلت) بالرجال المسلحين وإمدادات الميرة والغذاء.

وعندما اقترب الفرنج من المدينة، عقدوا مجلس مشورة عاجلٍ مع الناس الذين يعرفون المنطقة (حولها) وذلك لتحديد الجهة المناسبة التي يمكن مهاجمة المدينة منها بسهولة (وراحة أكثر). ولما كانت الأودية التي ذكرنا (فصل ٤) لا تسمح بأي هجوم من جهة الشرق أو جهة الجنوب فقد قرر قادة (الجيش) مهاجمة المدينة من الشمال، وطبقاً لهذا (القرار) فقد رتب المعسكر بحيث امتد من الباب الذي يعرف الآن [في زمنه] باب القديس

اسطفان والذي يـواجه جهة الشمال وحتى الباب الـذي يقع تحت برج داوود في الجهـة الغربيـة في المدينة والـذي كان يـدعى كـالبرج نفسه بـاسم الملـك (داوود) .

وتم تـرتيب المعسكر كـالتالي : جـاء أولاً معسكر (قوات) غـودفري دوق اللوريـن ، وبعده معسكـر روبرت كنـد فلانـدرز، واحتل الموضـع الثالـث روبرت كند نورمانـدي ، والرابع قوات تانكرد وبعض النبلاء الآخـرين الذين تـركزوا حـول البرج الذي يقـع في الزاويـة (الغـربية) الـذي سمي بعـد ببرج تانكرد، أما كند طولوز والذيـن معه فقد استمروا في حصار (المدينة) من حد هذا البرج المذكـور وحتى الباب الغـربي ، ووجد ريمـوند فيها بعد بـأن وضع (معسكره) لا يعطي أي ميـزة للنجاح في مهاجمة المدينة مـن هذا الجانب لأن برج داوود كان يسيطـر سيطرة تامة (على الموقـع) ويشكل حماية قويـة للباب (المذكور) الذي يقع عند قاعدتـه ، كما أن منطقة الوادي القريبة التي تقع بين معسكـره والمدينـة كـانـت تعيـق جهـوده. ونظـراً لهذه الظـروف الطبيعيـة والإستراتيجية فقد نقل (ريموند)، بناءً على نصيحة بعض النصحاء الأذكياء الذين يعـرفون المنطقة جيداً، جـزءاً من عسكره إلى التلة - التـي تقوم عليها مدينـة القدس وكان هذا الموضـع (الجديد) يقع بين المدينة وكنيسـة صهيون التي تبعـد مقدار رمية سهـم عن القـدس إلى جهة الشمال ، وترك (بـذلك) جزءا مـن (جيشه) في معسكـره الأول ، وكان هـدفه مـن هذه العمليـة ، كما قيل، مزدوجاً :

إنه رغب ان يكون لرجاله مجال (حـركه) أسهل لغرض الهجوم ، كما هدف إلى حماية كنيسة صهيون من أي ضررٍ (قد يلحقها) من العدو. . .

الفصل السادس

كان ترتيب المعسكر كما وصفنا (ومنه يظهر) بأن أقل من نصف المدينة قد أحيط بخطوط الحصار. (فالأسوار الممتدة) من الباب الشمالي الذي يعرف عادة بباب القديس اسطفان وحتى البرج الذي يشرف على وادي جهنم، ثم من هذا البرج إلى الزاوية المقابلة في الجنوب فوق منحدرات ذات الوادي. ومن (هذا البرج الاخير) إلى الباب الجنوبي الذي يسمى الآن باب جبل صهيون، بقيت المدينة دون حصار.

وفي اليوم الخامس من اتخاذ جيشنا (الفرنجي) مواقعة أمام الأسوار أعلن المنادون نداءً عاماً بأن على الجميع من الصغار والعظماء بالتسلح جيداً والتدرع بالدروع والتجهز لبداية الهجوم. وهكذا كان إذ نهض الجميع نهضة رجلٍ واحدٍ لمباشرة مهامهم وهاجموا المدينة بحماس واندفاع من مختلف مواضع الحصار . . . (وكان الهجوم من الشدة) بحيث هدم المهاجمون التحصينات الخارجية وأجبروا العدو على التراجع بذهول لحماية الأسوار الداخلية. وفي الحقيقة فقد بدأ شك سكان المدينة بإمكانية الاستمرار في المقاومة، ولو كان لدى الفرنجة (Christians) سلالم التسلق أو الآلات التي يسيطر بها على التحصينات الخارجية لتمكنوا دون جدال أو سؤال من الاستيلاء على المدينة في هذا اليوم الذي هاجموا فيه بمثل هذا الحماس. لكن بعد بذل الجهود الكبيرة من بزوغ الفجر وحتى حوالي الساعة السابعة تأكد لهم أنه بدون الآلات لا يمكن أن يأملوا / بإنجاز شيء سوى القليل. ولذلك فقد أجلت العمليات العسكرية حتى يتم بناء الآلات التي أملوا بواسطتها، وبمساعدة من الله (الرب) تجديد الهجوم بنجاح أكبر.

واهتم الزعماء الآن بحماس بمشكلة الحصول على المواد المناسبة لبناء آلات الحصار، وتبين أن المنطقة القريبة (من المدينة والمعسكر) لا يمكن أن تزودهم بما يحتاجون اليه، لكن لحسن الحظ فقد صادف أن كان في المعسكر نصراني سوري من أهل البلاد أرشد بعض قادة (الجيش) إلى وادي (Retired) منعزل تنمو فيه الأشجار الطويلة ويبعد حوالي ستة أو سبعة أميال عن مدينة القدس. وعلى الرغم من أن الاشجار (في هذا الوادي) لم تكن مناسبة تماماً للغرض، فإنه وجد فيه عدداً كافياً منها يمكن الاستفادة منه في حالة طارئة، واستدعي عدد مناسب من النجارين والعمال، وقطعت الأشجار وحملت على الجمال والعربات إلى المدينة (المعسكر الفرنجي)، ثم جمعوا الحرفيين وغيرهم ممن يتقن مثل هذا النوع من العمل، وعملوا بحماس لا ينقطع بالمعاول والأدوات الأخرى التي تستعمل في اعمال البناء وتمكنوا – من هذه المواد المتوافرة – من بناء أبراج ومنجنيقات (Mangons or Petraries) واكباش وستائر (وغيرها من الآلات) التي تستعمل في حرب الأسوار . . . .

وبينما كان كبار الزعماء مشغولين بالقضايا الهامة، كان الأشراف (الصغار) والرجال البارزين (من الفرنج) يحملون الرايات المنشورة ويقودون الناس إلى حيث يمكن أن يعثروا على الأشجار الصغيرة، وكانوا يقطعون من هذه الاماكن الأغصان والعيدان ويحملونها راجعين إلى المعسكر على الخيول والحمير وغيرها من حيوانات حمل الأثقال حيث يصنع منها اغطية أو سلال (Wickerwork) لاستكمال أعمال البنائين الأكثر اهمية. كان النشاط (في العمل في الآلات) في كل مكان بجد وحماسٍ لا يعرف الكلل . . . . . .

الفصل السابع

وبدأ الجيش (الفـرنجي) يعاني من شدة العطش، وسبـب ذلك، كما بينا سابقا، أن مدينـة القدس تقـع في منطقة جـافة تخلـو كلياً مـن الماء، فليس هنالك من جداول أو ينابيع أو حتى آبار للماء العذب (خارج أسوار المدينة) إلا على مسافـة بعيدة منهـا، ويضا ف إلى ذلـك أن المسلمين عندمـا عرفـوا باقتراب الفرنجة غـوروا مصادر المياه هذه أيضاً، إذ رموا فيهـا الأوساخ وكل أنواع الفضلات، بحيث لا تمكن الظروف حـول المدينة من بقاء المحاصرين لها مـدة طويلـة باستمـرار، أما أحـواض المياه والآبـار التي يجمـع فيها مـاء الامطار فقد أخربت إلى الدرجة التـي لا تسمح بالحفاظ على أي ماء فيها أو أخفيت بحيث لا يتزود الحجاج الفرنج العطشى بما يحتاجون اليه. ومع ذلك فـان أهل بيـت لحم. . . (وغيرهـم مـن النصـارى) كانـوا يردون إلى الجيـش باستمـرار، وكانوا يـرشدون الحجاج إلى الينـابيع والعيـون التي تبعد مسـافة أربعة أو خسمة أميال من مكان الحصار. . . . .

وأصاب الناس خلال هذا الحصار شدة لا ترحم من العطش لا تقل عن الشدة التي لحقتهم من قلة الطعام أمام (أسوار) انطاكية، وتفرقوا في الأرياف المجاورة دون حيطة وحذر بحثا عن الطعـام لأنفسهم والعلف لخيولهم. أما العدو، الذي كان يعرف عادة انتشار (المقاتلة) هذه، فقد كان يخرج سراً من المد ينة ويهاجم جماعـات العلافه. ونتيجة لذلك فقـد قتل الكثير منهم (إي الفرنج) وأخذت خيولهم، كما كان يهرب البعض مثخنين بالجراح.

في ذلك الوقـت كانت أعداد العدو [المسلمين] في المدينة تـزداد باستمرار بحيث تضـاعف مـن فيها ذلـك أن حلفاءهـم كان بـامكانهم الـوصول إلى المدينة من الجهات التي لم يتمكن (الفرنـج) من حصارها، وينضمون اليهم بهدف القضاء علينا.

الفصل الثامن

في هذا الوقت كانت قواتنـا تبذل أقصى جهدها في العمل، فبنوا الآلات وحاكوا الستائر وجمعوا السلالم بعنايـة فائقة. أما المحاصرون (داخل الأسور) فقـد كـانـوا أيضـاً يقظين لمواجهـة (الخدع العسكـريـة بخـدع ممـاثلـة لها) واستخدموا كل شيء لمقاومتنا. فقد كان في المدينة كميات مناسبة من جذوع الأخشاب المقطوعة من الأشجار الطويلة التي احضرت بتفكير مسبق سليم قبل وصول الفرنج من أجل الدفاع عن القدس. وحذا (أهل المدينة) حذونا فبنوا من هذه الأخشاب - داخل الأسوار - آلات مساوية لآلاتنا في الإرتفاع ومن مـواد أفضل من المواد المتـوافرة لدينـا، ووضع حراس بصفـة دائمة على الأسوار وفي الأبـراج الذين كـانوا يراقبـون بكل دقـة ما كان يعمـل في جيشنا خاصـة ما يتعلـق بالنماذج والأساليـب العائدة إلى أسلحـة الحرب وآلاتها ثم يخبرون رؤساء أهل المدينة بكل دقائق ما يشاهدون. وحاول هؤلاء (بدورهـم) بمهارة فائقة تقليد ما يعمله الفرنجة بحيث يتمكنون من مواجهة كل جهودنا بجهود مساويـة. وكان هذا امراً سهـلاً إذ كان لدى أهل المدينـة من العمال المهرة وأدوات البنـاء أكثر مما كـان لدينا إضـافة إلى كميات أكبر مـن الحديد والنحاس والحبال وكل ما هـو ضروري (لمثل هذه الاعمال). وقد اجبر جميع سكان المدينـة بمرسـوم عام بالمسـاعدة في العمـل. اما النصـارى في المدينة الذين كـانوا ذمة فقد فرضـت عليهم ضرائب اضافية ثقيلـة. . . وقد فرض عليهـم أن يستقبلوا في بيـوتهم لاجئين من القـرى والحصون المحيطـة الذيـن هربوا إلى القدس، وتزويدهم بضروريات الحياة. . .

الفصل التاسع

[وبينما كان وضع الحصار كما ذكرنا] . . . وصل رسل إلى المعسكر وأخبروا بأن سفناً وصلت (٢٥ رجب ٤٩٢هـ/ ١٧ حزيران ١٠٩٩م) من جنوة إلى يافا، وقد طلب القادمون (في السفن) من قادة (الفرنجة) إرسال حامية من الجيش (الفرنجي) تخفرهم وترشدهم للتقدم بأمان إلى القدس. واستجابة لذلك وافق كند طولوز، الذي كان لديه إمكانات (مالية) أكثر من غيره، وبتأييد من الجميع على إرسال أحد النبلاء المرافقين له هو جلد امار (Geldemar) المكنى بكاربنال (Carpinel) على رأس فرقة مكونة من ثلاثين فارساً وخمسين راجلاً (إلى يافا). وبعد تحرك هذه القوة أدرك القادة بأنها غير كافية للمهمة الصعبة التي أوكلت اليها، ولذلك سألوا الكند إرسال جند آخرين للحاق بهم . . . ووافق (ريموند) فأرسل خمسين فارساً آخر لدعم المجموعة الأولى بقيادة رجلين قديرين ومتميزين هما ريموند بيليت (Raymond Pilet) ووليم دي سابران (William de Sabran) . . . وتحرك القادمون الجدد بكل ما يملكون باتجاه القدس بحراسة القوة التي أرسلت لارشادهم (حمايتهم)، (وعندما وصلوا) استقبلوا بفرح عظيم من الفرق (الفرنجيّة) التي كانت معسكره أمام (أسوار القدس)، وانعش قدومهم الأمل بالمساعدة الكبيرة منهم، لأنهم كانوا اصحاب خبرة طويلة في فن البناء كما هي عادة البحارة اذ كانوا خبراء في قطع الأشجار وتمليسها وفي تثبيت الأخشاب الطويلة، ونصب الآلات في أقل وقت ممكن. واضافة إلى ذلك فقد أحضروا معهم أشياء كثيرة ومتنوعة والتي كان لها أهمية كبيرة لقوات الحملة فيما بعد. وبمساعدة هؤلاء الرجال تمكن الحجاج من إنجاز الأعمال بسهولة والتي كانت قبل وصولهم صعبة وربما مستحيلة.

الفصل الثاني عشر

نقل المعسكر في الليل ونصب الآلات في مواضعها حول المدينة

اقترب اليوم المحدد للهجوم، وفي الليلة السابقة لهذا اليوم قام الدوق (غودفري) والكندين بنقل المعسكر(إلى موقع جديد) إذ لاحظا بأن الجزء من السور الذي أحكموا حوله الحصار (من البداية) كان عليه دفاعات قوية من الآلات والأسلحة والمحاربين الأشداء، إضافة إلى أن معرفة المسلمين أن الخطر عليهم سيأتي من هذه الجهة قاموا بتقويته وتحصينه. ونظراً لقوة هذه التحصينات، فقد رأى القادة أنه لا يمكنهم أن يأملوا بتحقيق الكثير في اليوم التالي، ووجدوا – وكان هذا رأى صائب – أن الجانب الآخر من القدس الذي لم يحاصر كان قليل الحراسة ودفاعاته (ضعيفة). وتبعاً (لهذا النظر الجديد والبعيد) فقد نقلوا آلاتهم وبرج الحصار قطعة قطعة قبل جمعه إلى الجزء الشمالي من المدينة (خارج الأسوار) الذي يقع بين باب القديس اسطفان (العمود) والبرج الذي يقع على الزاوية الشمالية (الشرقية) (من السور) المطلة على وادي جهنم (برج اللقلق). كما نقل كل المعسكر إلى الموقع الجديد. وتمكن (الفرنجة) بالجهود الكبيرة والعمل الدؤوب الذي استمر طوال الليل من نقل الآلات ونصبها ووضعها في مواقعها المناسبة قبل طلوع الشمس، ونصب البرج المتحرك في موقع قرب تحصينات كان السور عندها أقل ارتفاعاً من غيره (إضافة) إلى أن المكان (خارجه) كان مستويا ويمكن الوصول منه إلى السور. ووضع البرج بحيث كان المدافعون في أبراجهم والمهاجمون في آلة حصارهم يبدون وكأنهم يقاتلون قتال يد بيد. ولم يكن هذا العمل الذي أنجز قليلا إذ سحبت الآلات مسافة نصف ميل عن موقعها في المعسكر السابق قبل طلوع الشمس، وأعيد تركيبها ووضعها في أماكنها الجديدة.

وعند الفجر أسرع سكان المدينة إلى الأسوار ليشاهدوا ماذا كان الفرنج يفعلون في الخارج، ووجدوا لشدة دهشتهم أن جزءاً من المعسكر الذي كان قائماً في مواجهة (الأسوار) مدة اليومين الاخيرين قد اختفى من كل الأثقال والآلات التي كانت فيه. وقام أهل القدس باستكشاف المنطقة وما يدور حول السور كله بعناية واكتشفوا أن معسكر الدوق قد انتقل وكذلك الآلات وأنها قد نصبت في الموقع الذي ذكرنا قبل قليل.

وخلال الليلة ذاتها، وفي أماكن أخرى خارج المدينة وبنفس الطريقة التي وضعوا معسكراتهم في الترتيب الذي ذكرنا، تابع الزعماء الآخرون أيضاً أعمالهم، فقد تابعوا مراقبتهم اليقظة ونصبوا آلاتهم (استعداداً للقتال). وفي الآن ذاته تقريباً قرب كند طولوز البرج الذي كان قد عمله (رجاله) إلى الفصيل (Ramparts) او التحصينات الخارجية بعناية في المنطقة بين كنيسة صهيون والمدينة. أما الزعماء الذين احتلوا موقعاً حول البرج عند الزاوية (الغربية) والذي عرف بعد ببرج تنكرد (Tankred)، فقد تحركوا باتجاه السور بعناية وجهد مماثل لجهد غيرهم ودفعوا (نحوه) برجاً خشبياً يقارب الأبراج الأخرى في ارتفاعه وبنائه المحكم.

كان شكل الابراج الثلاثة وصناعتها متشابه كثيراً: كانت تتكون من هياكل مربعة وكانت واجهتها المقابلة للسور محمية بغطاء مزدوج، وكان الغطاء الخارجي يمكن انزاله بواسطة أداة مناسبة ليكون جسرا بين البرج والسور. وهذه المناورة (البنائية) لا تدع تلك الواجهة من البرج معرضة (للخطر) إذ عند تنزيل الغطاء الخارجي فان طبقة الغطاء الداخلي تقدم حماية (لمن في داخل) البرج مثل حماية الجوانب الأخرى.

الفصل الثالث عشر

(الحرب يوم ٢١ شعبان ٤٩٢هـ/ الخميس ١٣ تموز ١٠٩٩م)

وعند طلوع النهار، وقف الجيش الفرنجي أمام المدينة، حسب الترتيب المتفق عليه، بكامل أسلحته ومستعداً لبدء الهجوم . . . . . . وهكذا تقدم الفرنجة بسياق واحد الى المعركة، وجرب الجميع تقديم الآلات التي بنيت حديثا إلى السور بحيث يتمكنوا بسهولة من مهاجمة المدافعين من على الأبراج والتحصينات الأخرى الذين كانوا يبدون مقاومة شديدة . اما الفرنجة [المواطنون] فقد كانوا من جانبهم مصممين على مواجهة أعدائهم حتى النهاية ولذلك أمطروهم بزخات [متتالية] من النشاب وغيره من المقذوفات [المتوافرة لديهم] . وتساقطت الحجارة بقوة من الأيدي والآلات عندما حاول المسلمون بكل وسيلة ممكنة منع جماعتنا من الإقتراب من السور، لكن الفرنجة، الذين كانوا يحتمون بالدروع والستائر التي رفعوها أمامهم، أبدوا نشاطاً [قتالياً] لا يقل عن نشاط أهل المدينة . وقد واجه الحجاج [الفرنجة] زخات من النشاب وغيرها من آلات الرماية بينما كان الحجاج يجاهدون للإقتراب من التحصينات إذ كان هدفهم إضعاف بسالة عدوهم [ومعنوياته] بمنعه الحصول على لحظة من الراحة والاستقرار، فاستمر البعض منهم، وهم المرتبون في داخل البرج المتحرك، في دفعه بواسطة أعمدة طويلة، وكان البعض الآخر الذين رتبوا على الآلات يرمون الصخور الكبيرة التي كانت تصطدم بالسور - كل (ذلك) على أمل أن اصطدام (الصخور) المستمر، والضربات المتتالية ستضعف (الأسوار) مما يؤدي إلى تداعيها وسقوطها . (يضاف إلى ذلك) كان فريق آخر مسلح بأسلحة أصغر تدعى المنجنيقات (Mongons) يرمون حجارة أصغر حجماً ويعملون بحماس وجهد لمنع المدافعين عن الفصيل الحاق الضرر بمحاربينا .

وأمـا الذيـن كـانوا يحاولـون دفـع الآلـة [الكبيرة] (البرج) إلى الأمام فلـم ينجحوا كما كانوا يأملـون نظراً لوجود خندق عريض وعميق أمـام الدفاعات (Bulworks) الذي أعـاق كثيراً تقدم الآلـه الكبيرة. ولم يلاق الـذين كـانوا يحاولون عمـل فتحة في السور النتـائج التي يرغبـون. كان سكان المدينـة قد علقـوا في الجهة الخارجيـة للسـور أكياسـاً كبيرة جداً مملـوءة بـالقش والتبـن (Chaff) إضـافة إلى الحبـال والسجـاجيد وقطـع الخشـب الضخمة وفـرش محشوةٍ بالحريـر. وكانت نعومة هـذه المواد العازلة للسور وطـراوتها تجعل من ضربات المقذوفات عـديمة الفائدة والتأثير، وبالتالي تغلبـت على كل جهود المهاجمين. إضـافة إلى ذلـك فقد نصب المسلمـون آلات داخل المدينـة يفوق عددها كثيراً عدد مـا لدينا من آلات، ومن هذه الآلات أيضـا كانوا يطلقون النشاب والحجارة بصورة مستمرة لإعاقة جهود هجوم الفرنجة في الخارج.

وهكـذا كان الجانبـان يبذلان كـل ما لـديهم من جهـد ويقاتلـون بضراوة مـريرة. واستمـر الصراع من الصبـاح إلى المسـاء، وكان (صراعـاً) (مريـراً) ومثابراً ورهيباً لدرجة لا تصدق. وكانت الرماح والسهام تتساقط مثل زخات البرد (Hail) على الجيش، وكانـت الحجارة التي ترميهـا الآلات من الجانبين تصطدم في الهواء مع ما كانت تجلبه للمتحاربين من الموت بأنواعه المختلفة.

وتزايـد عمل الفرنجـة أكثر إذ كان عليهـم طم الخندق بـالحجارة والتراب وغيره من الأشياء ليتمكنوا من عمل طريق يقربون منه الآلات نحو الأسوار.

. . . (كذلك) كانت جهود المدافعين لإعـاقة عمل القوات التي تحاصر (المدينة). . . . وفي جهودهم اليائسة لحرق الآلات، ولذلك فقد إستمروا في إبداء مقاومة كبيرة ضد الجهود الحثيثة للمحـاصرين، ومن أساليبهم اليائسة لحرق الآلات التي للفرنج خـارج الأسوار أنهم كانوا يرمونها بمشـاعل مشبعة بالكبريت والقار والدهون والزيت وأي شيء يزيد في تأجيج اللّهب. إضافة إلى كل ذلك كانت ضربات الآلات الكبيرة مـن دا خل المدينة والموجهة ضد

الفرنجة في الخارج، قوية بحيث بـدأت إمدادات [الفرنج] تضعف وصارت جوانب (البرج) مليئة بـالخروق. وأصاب المحاربون الفرنج، الـذين صعدوا إلى الطوابـق العليا للبرج لمهاجمة المدينـة من ذلك الإرتفـاع، الذعر وبـالكاد إستطاعـوا الهرب قبل وقوعهم على الأرض. وفي آخـر الأمر نجح الفـرنج في إخماد النـار وأفشلوا جهـود المدافعين لحرق (البرج) بصـب كميات مـن الماء (عليه) من الأعلى.

الفصل الرابع عشر

ليلة ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٤ تموز ١٠٩٩م

وأدى اقتراب المساء إلى توقف القتال الشجاع الذي شن وسط خطر بالغ، ومع ذلك فلم يؤد إلى نتيجة حاسمـة، وحصل المقاتلة، أثناء الحراسة، على قسط من الراحة الجسدية. . . ومع ذلك فقد كان قلقهم كبيراً من أن يتمكن المسلمون بأي وسيلة (ممكنة) لديهم مـن إشعال النار في الآلات، فقاموا من أجل (المحـافظة عليهـا) بترتيب حـراس لها أمضوا ليلـة لم يغمض لهم فيهـا جفن.

وكان المحاصرون بـدورهم يعانون من خـوف مرير مماثل، وكـان خوفهم خاصة من أن يتمكن العدو من إغتنام فرصة هدوء منتصف الليل فيدخلون المدينة عـن طريـق إحداث فجوة في الأسـوار أو تسلق التحصينـات، فبقوا بـدورهم طـوال الليل (يحرسـون الأسوار) بـدوريات كـانت تجوب الأسـواق بمثابرة من كـان الأمر بالنسبة لهم قضية حياة أو مـوت، ووضعوا في كل برج قائد(يشرف) على الحراسة الليليـة؛ في ذات الوقت كان شيـوخ البلد وغيرهم ممن وقـع عليهم مسـؤولية حماية ا لمدينـة يقومـون بجولات في شـوارعها، كما طلبـوا من غيرهـم اليقظـة والحراسـة من أجـل (حمايـة) نسـائهم وأولادهـم وممتلكاتهم وأمن العامة. وكانوا يتفقـدون بعناية الأبواب والطرقات بحيث لا يترك شيء ما يمكن أن يستغله العدو.

الفصل الخامس عشر

كانت تلك الليلة تقترب من نهايتها، وكانت خيوط الضوء الأولى قد بدأت تعلن وصول اليوم الذي كنا نتطلع اليه، وكان الناس . . . . قد استدعوا للقتال، وعاد كل رجل إلى الموقع الذي كان يحتله في اليوم السابق. فالبعض استمر برمي الحجارة الكبيرة الوزن من الآلات على الأسوار، وبذلت جماعة أخرى كل ما لديهم من جهد في دفع آلة الحصار إلى الأمام، أما الذين كانوا مرتبين في الطابق الأعلى من البرج فقد أربكوا العدد المتمركز في الأبراج المقابلة لهم بالقذائف من آلاتهم وأقواسهم وكل سلاح كان لديهم، وكان هذا الرمي المستمر مؤثراً (إلى الدرجة) التي منعت المدافعين من رفع أي طرف من أطرافهم وبقوا حبيسين في تحصيناتهم.

وعندما تم طم الخندق واختراق الأسوار الأمامية، دفع المحاصرون الفرنج البرج بكل قوتهم قرب السور. في ذات الوقت كانت قوة كبيرة (من الفرنج) ترمي زخات متواصلة من الحجارة والسهام نحو المدافعين لإجبارهم على التخلي عن تحصيناتهم بحيث لا يعيقوا الذين يدفعون البرج إلى الامام [باتجاه الأسوار].

وعندما شاهد سكان (المدينة) تزايد جهود الفرنج [في الهجوم] بذلوا بدورهم كل جهدهم في مواجهة كل مناورة للفرنج بمثلها، ومواجهة القوة بالقوة، واستمروا برمي الحراب الملتهبة والحجارة ضد المحاصرين خاصة أولئك الذين كانوا يقومون بدفع البرج، وأبدوا طاقة (دفاعية) تثير الإعجاب مكنتهم من إعاقة تقدم الفرنج. وفي محاولة لوضع حد نهائي لجهود الجيش الفرنجي، فقد ألقوا بالنيران على الآلات، في جرار هشة وبكل الوسائل الأخرى، كما ألقوا إلى الأسفل (على الآلات)، بالكبريت والقار (Pitch) والشحم والشمع والخشب الجاف وغيره، وكل شيء يمكن من تغذية النيران الملتهبة كوقود لها، ونتيجة لذلك انتشرت الفوضى في الجيش، وهلك كثير من الخيالة والرجالة . . . ومع ذلك فإن كل هذه الكوارث لم تخفف من تصميم الجانبين المتحاربين من الاستمرار بالحرب والقتال.

الفصل السابع عشر

وبينما كان هجوم (الفرنجة) في الجهة الشمالية من المدينة يجري باندفاع وحيوية كان كند طولوز ومن معه من الرجال يهاجمون الجهة الجنوبية باندفاع مماثل. وعمل [هؤلاء الرجال] لمدة ثلاثة أيام متتالية دون كللٍ حتى طموا الخندق. وعندما تم ذلك قدموا آلات الحصار إلى السور [بحيث صارت في موقع] يتمكن منه المدافعون في أبراج (السور) والفرنجة في آلات الحصار من جرح بعضهم البعض بالرماح والحراب . . . . وكان عمل هذين الفريقين من الفرنجة يسير بنمط متماثل . . .

الفصل الثامن عشر

كانت فرق جند الدوق والكندين تهاجم المدينة، كما ذكرنا (سابقا) من الشمال، ونجحت بمساعدة إلاهيه التحصينات الخارجية وردم الخندق. وصار العدو (آنذاك) في حالة إرهاق كامل بحيث لم يعد لديه مقدرة على متابعة المقاومة، ولذلك فقد تمكن الفرنج من التقدم إلى الأسوار دون خطر، ولم يلاقوا مقاومة الا من بعض شجعان المسلمين الذين استمروا في اطلاق النشاب من خلال الفتحات المخصصة لذلك في السور.

وباشارة من الدوق أشعل المحاربون في آلات الحصار النار في اكياس القش والوسائد المحشوة بالقطن التي ازدادت اشتعالاً بالريح الشمالية التي كانت تهب، وذلك عند اطلاقها إلى داخل المدينة، وقد ملأت هذه القذائف التي انصبت على المد ينة (خلف السور الشمالي) المنطقة بالدخان بكثافة بحيث لم يستطع المدافعون ترك أفواههم أو عيونهم مفتوحة، ودفع تيار الدخان الاسود المدافعين إلى التخلي عن الفصيل وتحصيناته. وعندما اتضح هذا الأمر للفرنجة أمر الدوق باحضار قطع الأخشاب الطويلة، التي أخذت

من العـدو* إلى أعلى البرج حالاً ثم وضعت بحيـث ارتكز أحد طـرفيها على البرج والطرف الآخـر على السور، ثم أمر الـدوق بانزال الجانب المتحـرك من البرج الخشبي عليهـا، مشكلا بـذلك جسراً قويـا . . . . وعندمـا انتهى وضـع الجسر بهذه الصورة قـاد الـدوق غـودفري، يـرافقـه أخـوه يوستـاس (Eustace) ، الفـرنج إلى داخـل المدينة وشجـع الآخريـن على اللحاق بـه . وتبعهم مباشرة الأخوين الشريفين Geslebert, Ludolf من مواطني مدينة تورناي Tournai . . . ثم عبرت الجسر مجموعة من الخيالة والرجالة بعدد لم يعد البرج أو الجسر قادراً على احتمالـه . وعندما شاهد العدو أن الفـرنجة قد استـولـوا على السـور وأن الـدوق قـد رفـع رايتـــه فـوقـه تخلـوا عـن الأبـراج والتحصينات ، وهربوا باتجاه الشوارع الضيقة .

أما بالنسبة لجمـوع الفرنجة فانهم عندما رأوا أن الدوق وغـالبية القادة قد سيطروا على الأبراج اندفعوا ، دون انتظـار صعود البرج ، إلى الأسوار حاملين السلالم التي كـانوا مزودين بها بكثرة إلى السـور إذ كان قد أمر سابقـاً بالمناداة بالمعسكر بأن يقوم كل فارسين فيه بعمل سلم للإستعمال العام . وعن طريق هـذه السلالم، ودون أمـر الدوق، انضـم هـؤلاء إلى الذيـن تسلقوا إلى قمـة [السـور] . . . (ثم يـذكر أسماء مشـاهير من تسلـق السور) . ومـا أن رأى الدوق كـل هؤلاء الفرسان يـدخلون المدينة حتـى أرسل بعضهـم مع مـرافقي شرف لفتح الباب الشمالي للمدينة الذي يـدعى الآن [في وقته] باب القديس اسطفان ، ليمكنـوا عامـة الفرنجـة من دخـول المدينة . وتـم هذا الأمـر دون تأخير، واندفع كل الجيش إلى الداخل دون ترتيب أو نظام .

كان ذلـك [الدخـول] في الساعة التـاسعة مـن يوم الجمعـة [٢٢ شعبان ٤٩٢هـ / ١٤ تموز ١٠٩٩م] . . . .

---

* كان المدافعون سابقـاً قد ألقوا قطعاً طويلة مـن الخشب مربوطة بحبال على السـور طوليا إلى أسفل واستطـاع الفرنجـة بوسـائلهم مـن قطع حبـال عـدد منها لـلاستفادة منهـا في تدعيـم جسر البرج الخشبي ، وقد ذكر وليم ذلك في السابق (لكنه لم يترجم في حينه من أجل التكرار) .

الفصل التاسع عشر

وجمع الدوق ومن كان معه من (القادة) صفوف قواتهم واندفعوا، تحميهم خوذهم وتروسهم ودروعهم، في كل الاتجاهات في الشوارع والساحات العامة في المدينة شاهرين سيوفهم ويقتلون كل من وجدوه في طريقهم من العدو دون تمييز للسن أو للجنس. وكانت مذبحة رهيبة في كل مكان. وفي كل مكان كانت أكوام من الرؤوس المقطوعة بحيث صار المار بعد قليل لا يستطيع الذهاب من مكان إلى آخر الا فوق جثث القتلى. وشق القادة طريقهم بالقوة إلى مركز المدينة تقريباً بطرق مختلفة ومن جهات مختلفة محدثين أثناء تقدمهم مذبحة لا تصدق، وسار خلفهم مجموعات كبيرة من عامة الفرنجة كانت عطشى لسفك الدماء وتهديم كل شيء.

في ذات الوقت كان كند طولوز والقادة الذين معه في منطقة جبل صهيون، يجهلون بأنه قد تم السيطرة على المدينة وأن النصر كان حليفنا، لكن صيحات الفرنجة العالية التي أطلقوها أثناء دخولهم القدس، وصيحات الخوف التي أطلقها العدو أثناء مذبحة المسلمين أدت إلى ذهول المدافعين في هذا الجزء من المدينة نتيجة لهذا الضجيج المختلط الذي ينبعث من المدينة. ثم عرفوا سريعاً أن المدينة قد تم الاستيلاء عليها وأن قوات الفرنجة قد دخلتها، فما كان منهم الا أن هجروا الأبراج والتحصينات دون تأخير، وهربوا في مختلف الإتجاهات طلباً للسلام والأمن، والتجأ القسم الأكبر منهم إلى القلعة القريبة منهم.

وهنا أيضاً أنزل الجيش الفرنجي الجسر دون مقاومة، ورفعوا السلالم على الأسوار، ودخلوا المدينة دون أدنى إعاقة من جانب المدافعين، وما أن دخلوا إلى الجهة الداخلية من السور حتى فتحوا البوابة الجنوبية القريبة منهم فدخل

بقية الفرنجة في هذه الجهة . من هنا دخل كند طولون [ومن معه من النبلاء] . . . واندفعت هذه القوات . . . . . في المدينة . فالمدافعون الذين هربوا من أمام الدوق ورجاله إلى مناطق أخرى من المدينة واجهوا هذه القوات التي اندفعت من هذه الجهة .

الفصل العشرون

كان القسم الأكبر من سكان المدينة قد التجأ إلى ساحة المسجد الأقصى وقبة الصخرة التي تقع في جهة متطرفة من المدينة ، وكان يحميها سور وأبراج وبوابات ، لكنهم لم يجدوا الأمان هنا ، ولحقهم بسرعة تنكرد ومعه القسم الأكبر من الجيش الذي فتح طريقه بالقوة إلى ساحة المسجد والقبة فكانت مذبحة كبيرة ، وحمل منه تنكرد ، كما تذكر التقارير ، مقادير كبيرة من الذهب والفضة والمجوهرات ، ويعتقد أنه بعد أن هدأت الأوضاع في المدينة أعاد هذه الكنوز إلى مكانها دون أن يلمسها .

وبعد أن قتل القادة كل من وجدوه في طريقهم في مختلف أجزاء المدينة ، عرفوا فيما بعد بأن الكثير من سكانها قد التجأ إلى الحرم الشريف (المعبد) ، فاندفع الجميع بسرعة إلى هناك ، وتقدم جمهور من الفرسان والرجالة وسفكوا دماء جميع من التجأ هناك دون اظهار شفقة أو رحمة تجاه أحد ، وامتلأ المكان كله بدماء ضحاياهم . . . . وقد ذكر [في السابق] بأن (عدد) من قتل داخل حدود الحرم يقارب عشرة آلاف من المسلمين اضافة إلى أولئك الذين قتلوا في كل مكان في المدينة في الشوارع والساحات والذين قدر عددهم بما لا يقل عن ذلك الرقم .

وقام بقية جند الفرنجة بالتجول في المدينة بحثا عن الناجين والذين يمكن

أن يكونوا قد اختبأوا في الطرق والحواري الضيقة تجنباً للقتل. وقد جر هؤلاء من [مخابئهم] إلى الأماكن العامة وذبحوا كالخراف؛ وكون بعض الفرنجة عصابات اقتحمت البيوت وأخذوا أربابها والنساء والأطفال وكل ما وجدوه فيها، وألقوا بهؤلا الضحايا من البيوت إلى الارض أو قتلوا، واخذ كل واحد منهم البيت الذي دخله كملكٍ دائم له وكل ما فيه. وقبل احتلال المدينة اتفق الحجاج (الفرنجة) أنه بعد الاستيلاء عليها أن ما يكسبه كل رجل لنفسه يصبح ملكاً دائماً بحق الاستيلاء [الملك]، دون مضايقة أحد له. ونتيجة لذلك فقد فتشوا المدينة بكل عناية، وقتلوا السكان، ووصلوا إلى أبعد الأماكن فيها وأكثرها انعزالاً، وكسروا وفتحوا بيوت العدو الخاصة جداً، وعلق المنتصرون على مدخل كل بيت عند أخذه درعاً أو سلاحاً، كاشارة لكل من يصل اليه [من الفرنج] حتى لا يتوقفوا عند بيت صار في حوزة شخص آخر.

الفصل الرابع والعشرون

. . . . وجد زعماء (الفرنج) أن من الأمور الملحة قبل أي شيء آخر هو تنظيف المدينة وخاصة ساحات الحرم الشريف [من الجثث] حتى لا ينتشر الوباء فيها لان الهواء كان مشبعاً بنتن جثث القتلى. وفرض على سكان المدينة [من المسلمين] الذين أسروا وكانوا في السجون نتيجة نجاتهم بالصدفة من القتل القيام بهذا العمل، ولما كان عددهم غير كافٍ لإنجاز هذه المهمة الكبيرة دون مساعدة، عرض على فقراء الجيش الفرنجي أجرة يومية للمساعدة في تنظيف المدينة دون تأخير. وبعد أن انتهى القادة من هذا الأمر الملح، عاد كل واحد منهم إلى البيت الذي اتخذه مسكناً له، والذي كان قد جهز له من قبل الخدم. وتبين أن المدينة كانت مليئة بالبضائع من كل صنف بحيث أن كل الفرنج [من العظماء والصغار] صار لديه وفرة من كل

شيء . . . . كان فيها مخازن للقمح والنبيذ والـزيت إضافة إلى المياه الكثيرة التي سبب نقصها أثنـاء الحصار معاناة كبيرة للفرنجة . وبـذلك استطاع من استولى على المنازل في القدس من تزويد اخوانهم المحتاجين بكل رضى .

وفي اليومين الثاني والثالث لاحتلال المدينة (السبت، الأحد) أقيمت سوق عامة للبضائع لبيعها في أفضل الظروف، وصار لدى عامة الناس وفرة في كل ما يحتاجون اليه . . . .

وللمحافظة على ذكرى هذا الحادث العظيم، صـدر مرسوم هام، والذي قوبل بمـوافقة عامة مـن الناس، باعتبار هـذا اليوم عيداً مقدسـاً وتمييزه عن غيره [بالاحتفالات الخاصة التي صارت تقام فيه]. أما المسلمون الذين لجأوا إلى القلعة هـرباً مـن انتقام السيـوف فقد لاحظـوا من هنـاك أن الفرنجـة قد استولوا على المدينـة، وتحققوا أنهم لا يستطيعون مقاومة الحصـار حولهم مدة أطول، فاتصلـوا بكوند طولون الـذي كان يقيم في منطقة قريبـة من القلعة، وحصلـوا منـه على وعـدٍ بـالسّماح لهم بـالخروج مـن المدينـة مـع أزواجهـم وأولادهـم، وأمـان يوصلهـم إلى عسقلان إضـافة إلى السماح لهم بحمـل كل ممتلكاتهم التي نقلوها معهم إلى القلعة مقابل تسليم القلعة له . وأبدى الذين طلب منهـم تنظيف المدينـة حماساً ومثـابرة في العمـل، وكان ممـا قامـوا به : أحرقت بعض الجثث ودفنت أخرى كما سمحت الظروف بذلك، وانتهوا من عملهم خـلال أيام قليلة وعـادت المدينة إلى حالتها السـابقة مدينـة نظيفة . [يخالف ما ذكره فولشر سابقاً].

فتح صلاح الدين للقدس ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م

(العماد الاصفهاني. الفتح القسي في الفتح القدسي) نشر محمد صبح. القاهرة. لا. ت.

«وسار واثقاً بكمال النصرة، وزوال العسرة، وحسر الفرنجة قناع الحسرة. ونزل على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب، وقلب الكفر قد وجب، وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب، والقدر قد أظهر العجب.

وكان في القدس حينئذ من الفرنجة ستون ألف مقاتل، من سائف ونابل وبطل للباطل، وعاس عاسل بالعاسل. قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون، ويرمون ويدمرون، ويحمون ويحمون، ويحتدون ويحتدمون. ويضطربون ويضطرمون. ويذودون ويذبون، ويشبون ويسبون. ويصرخون ويحرضون، ويلهثون ويتغوثون، ويلوذون ويلوبون، ويجولون ويجوبون، ويقدمون ويحجمون، ويتململون ويألمون. ويتعاوون ويتضاعون، ويحترقون للبلايا، ويقترحون المنايا.

وقاتلوا اشد قتال، وناضلوا أحد نضال، ونازلوا أجد نزال. وطافوا بصحاف الصفاح لإرواء الظبا الظماء من ماء الأرواح، وجالوا بالأوجال، وأجالوا قداح الآجال، وصالوا لقطع الأوصال. والتهموا والتهبوا وتأشبوا ونشبوا. واستهدفوا للسهام واستوقفوا للحمام.

وقالوا «كل واحدٍ منا بعشرين، وكل عشرة بمئتين. ودون القمامة تقوم القيامة، ولحبِّ سلامتها تقلى السلامة»، ودامت الحرب، وإستمر الطعن والضرب. فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب إلى الجانب

الشمالي وخيم هنالك، وضيق على الفرنجة المسالك، ووسع عليهم المهالك. ونصب المجانيق، ومرى من آفاتها الأفاويق. وأصرخ الصخرة بالصخور، وحشر حشر السّوء منهم وراء السور. فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس، الا ويلقون البوس، واليوم العبوس، ويلقون على الردى النفوس.

«فللداوية» دويّ، و «للبارونية» من البوار في الهاوية هوي. و «للإسبتار» تبار، وما «للفريرية» من الموت فرار. وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم حجاب، وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب. إذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة. والأيدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة، والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة، وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة.

فكأن المجانيق مجانين يرامون، ومناجيد لا يرامون، وجبال تجذبها حبال، ورجال تنجدها رجال. وأمات الدواهي والمنايا، وحوامل تلد البلايا. لا حجرعليها في حجر، ولا أمن عندها من حذر، ولا تخطر سهامها الا بالخطر. ولا يفطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر. فكم نجم من سمائها ينقض، وصخر من ارضها يرفض، وجمر من شرارها ينقض، وما شيء كآفات كفاتها وآيات نكاياتها ودركات إدراكاتها ولفتات فلتاتها، وجذبات عذباتها.

فما زالت تقلع بمقالعها، وتقرع بمقارعها. وتمتح بأشطانها، وتمرح في أرسانها، وتصدم وتهدم، وتصرع وتصدع، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها، وتقل شمل المباني بتفريقها وتبديدها، وتقوض القواعد بضربها من اساسها، وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها، وتشفه الموارد بشربها من كأسها، حتى تركت السور سورا، وجعلت الذاب عنه محسوراً، وعاد العدو من نظمه المبتور متبورا.

وخرق الخنـدق وحفز الزحـف، وظهر لـلإسلام الفتح وللكفـر الحتف. وأخذ النقب، وسهـل الصعب. وبذل المجهود، وحصـل المقصود. وكمل المراد، وكلـم المراد. وثغـر الثغـر، وأمـر الأمـر. وأربـى الأرب، واستتـب السبب. وخاف القوم الوقم، واستعاضـوا من الصحة السقم. وأسلم البلد وقطع زنار خندقـه، وبرز (إبن بارزان) ليأمن من السلطـان بموثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى في سومه. وقال «لا أمن لكم ولا أمان ومـا هوانـا الا أن نـديم لكـم الهوان. وغداً نملككـم قسراً ونـوسعكم قتـلاً وأسراً. ونسفك من الـرجال الدماء، ونسلط على الذريـة والنساء السباء»، وأبى في تأمينهم الا الاباء. فتعرضـوا للتضرع، وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع. وقالوا: «إذا أيسنـا من أمانكم وخفنا مـن سلطانكم وخبنا مـن إحسانكم، وأيقنا أنـه لا نجاة ولا نجاح، ولا صلـح ولا صلاح، ولا سلم ولا سـلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنا نستقتل فنقاتل قتال الدم، ونقابل الوجود بالعدم. ونقدم إقـدام المستشري بالشر، ونقتحم اقتحام المستضري مـن الضر، ونلقي أنفسنا على النـار، ولا نلقي بـأيدينا إلى التهلكـة والعار. ولا يجرح واحـدٌ منا حتى يجرح عشرة. ولا تضمنـا يد الفتك حتى تـرى أيدينا بـالفتك منتشرة. وإنـا نحـرق الدور ونخـرب القبـة، ونترك عليكـم في سبينا السبـة. ونقلـع الصخرة ونوجدكم عليها الحسرة. ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألـوف، وقد عـرف أن كلاً منـا من الـذل عزوف، وللعـز ألوف. وأمـا الأموال فـإنا نعطبها ولا نعطيهـا، وأما الذراري فـإنا نسارع إلى إعـدامها ولا نستبطيها. فأية فـائدة لكم في هذا الشح، وكل خسرٍ لكم في هـذا الربح، ورب خيبةٍ جاءت من رجاء النجـح، ولا يصلح السوء سوى الصلح، ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل إسفار الصبح».

فعقـد السلطـان محضراً للمشـورة، وأحضر كبراء عسـاكـره المنصـورة، وشاورهـم في الأمر، وحـاورهم في السر والجهر، واستطلـع خبايـا ضمائرهم

واستكشف خفايا سرائرهم. واستورى زندهم، واستعلم ما عندهم، وراوضهم على المصلحة المترجحة، وفاوضهم في المصالحة المربحة. وقال: «إن الفرصة قد أمكنت فنحرص في انتهازها، وإن الحصة قد حصلت ونستخير الله في إحرازها، وإن فاتت لا تستدرك، وإن أفلتت لا تملك». فقالوا: «قد خصك الله بالسعادة، وأخلصك لهذه العبادة. ورأيك راشد وعزمك لضالة النصر ناشد، وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد، وكلنا لك في إغتنام فتح هذا الموضوع الشريف مناشد».

واستقر بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعةٍ تكمل بها الغبطة، وتحصل منها الحوطة. واشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم. على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه، أو امتنع منه وماسلمه ضرب عليه الرق وثبت في تملكه لنا الحق. وهو عن كل رجلٍ عشرة دنانير وكل إمرأة خمسة، وكل صغير أو صغيرة ديناران. ودخل إبن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والإسبتار في الضمان.

وبذل إبن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء ولم ينكل عن الوفاء فمن سلم خرج من بيته آمناً ولم يعد إليه ساكناً.

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردوه بالرغم رد الغضب لا الوديعة. وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان، من رجال ونساء وصبيان. فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الثواب. ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير يحصر الخارجين ويحصي الواجين. فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج.

ولو حفظ هذا المال حق حفظه، لفاز منه بيت المال بأوفر حظه. لكنها تم التفريط، وعم التخليط. فكل من رشا مشى، وتنكب الأمناء نهج الرشد بالرشا. فمنهم من أدلي من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفياً في الرحال، ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد.

وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة، في عبادة الصليب متصلبة، وعلى مصابها به ملتهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة. أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن. ولها حال ومال وأشياء وأشياع، ومتاع وأتباع. فمنّ عليها السلطان وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كل ما لها في الأكياس والأخراج، فراحت فرحى، وإن كانت من شجنها قرحى.

وكانت زوجة الملك المأسور - أبنة الملك أماري مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجوارى. فخلصت هي بمن معها ومن تبعها، ومن إدعى أنه ممن صحبها وشيعها. وكذلك الإبرنساسة إبنة فيليب أم هنفري، أعفيت من الوزن وتوفر مالها عليها في الخزن. واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة أرمني، ذكر أنهم من بلده. وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده، وطلب مظفر الدين ابن علي كوجك زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الرها، فأجراه السلطان من إطلاقهم له على ما اشتهى.

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين، في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء. فذكر لي من لا أشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطاً لمن نقده في كيسهم، ويلبس أمر تلبيسهم. فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه. وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضرغناه. ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رق واسار، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

تهديد القدس أثناء الحملة الثالثة وصلح الرملة من كتاب

(*The Third Crusade*, edited with an introduction by Kenneth Fenwick, Folio Society, London, 1958)

الرابع من حزيران (في عسقلان وبعد الإستيلاء على (الداروم) دير البلار

(ص ١٢٣ - ١٢٦) النوادر مختصراً ص ٢١٠

. . . استدعى (ريتشارد) مناديه فيليب وأمره بالمناداة في جميع المعسكر بأن عليهم التجهز، كل حسب طاقته، والإستعداد لحصار القدس . . . . (ص ١٢٨) وبعد إستعداد الملك والجيش للتقدم (من عسقلان) . . . بدأوا السير من عسقلان في فجر يوم الأحد . . . نحو القدس . . ببطء نظراً لشدة الحر . . . وبعد عبورهم لنهر عذب المياه، وصلوا إلى تل الصافية (Blancheward) حيث ضربوا خيامهم في السهل حوله وأمضوا ليلتهم هناك . . . وتلكأ الجيش في هذا المكان مدة يومين.

وفي اليوم الثالث، التاسع من حزيران، وصل الجيش إلى (Turun of the Soldiers) اللطرون دون إعاقة، وفي تلك الليلة أسر رجالنا اربعة عشر رجلاً من الفرس (الاتراك) الذين جاؤوا من الجبال للنهب. وفي اليوم التالي، بعد الغداء (العشاء) تحرك الجيش إلى الأمام . . وفي اليوم الذي يليه وصل الفرنسيون، وتوجه الجيش كله باتجاه بيت نوبة حيث توقفوا هناك بانتظار الكوند هنري، الذي أرسله الملك إلى عكا لإحضار الناس منها . . . ولذلك اضطر الجيش إلى البقاء شهراً كاملاً وأكثر في سفح الجبل الذي يضطر الحجاج إلى عبوره في ذهابهم وايابهم من المدينة المقدسة . . . (غارة الجيش على الاتراك قرب عمواس ص ١٣٠).

وعنـدما وصلـت الأخبار بتقـدم الملك، مـن الاتراك الهاربين إلى أولئـك الـذيـن كانـوا في القـدس، أصـابهم الـرعـب . . . فقد هـرب المسلمـون (Saracens) جميعاً من المدينـة ولم يبق فيها أحد ممن يستطيع الـدفاع عنها، ولم ينفع في ذلك تهديدات السلطان أو الوعد بالمكافأة (للبقاء فيها).

وفي ١٧ حزيـران . . . كانـت قافلة لنـا في طريقها مـن يافـا إلى الجيش محملة بـامدادات وغيرها من الضروريـات . . . . فهاجمها في مكـان ليس بعيـداً عن الـرملـة كمين للإتـراك . . . . . . (في المعسكـر الفرنجـي) : وحضر إلى الملك ريتشـارد رجل سوري كان أسقـف كنيسة القديـس جورج الذي كـان تابعـاً لصلاح الـدين . . . ومعـه قطعة مـن الصليب المقـدس (وقدمهـا للملك) وكان يـرافق الاسقف عدد كبير مـن الرجال والنسـاء من أتباع رعيته، وسلمها اليه (وقصة القطعة الاخرى ص ١٣٣) [ثم التذمر من قبل الجيش عامة من التأني في الزحف على المدينة المقدسة].

ونتيجة لـذلك اجتمع الملـك وقادة الجيش مع بعضهـم لمناقشة امكـانية الهجوم على القدس أو عدمها، وألـح الفرنسيون (في الإجتماع) على الملك (إلى درجة المغالاة) القيام بالهجوم.

لكنه أجابهم أن ذلك لا يمكن القيام به «لانه قال (الملك) : « لن أتصرف كدليل وقـائد للشعب في هذه القضية خشية أن أجلب العـار، لأنه سيكون مـن سوء التفكير في الـوقـت الحاضر الإلحاح على هـذه القضية، وإذا كـان يسركم التقـدم إلى القدس فـإنني لـن أتخلى عنكم، ولكـن سأكـون رفيقكم وليس قائدكم، سأتبعكم ولكن لن أقودكم. ألا يعرف صلاح الدين بكل ما يجري في معسكـرنا؟ وهـل تعتقـدون أن وضعنا الضعيـف قـد خفي عليـه؟

(ابن شداد. النوادر السلطانية. القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤. ص ٢١٠)

(السلطان) على وعي بقوتنا بدقة، وإننا بعيدون عن ساحل البحر بحيث إنه في حالـة نزول قوة مناسبـة من العدو (الاتـراك) من الجبال إلى سهول الـرملة لمراقبة الطـرق ومنع مـرور اولئك الـذين يـزودونا بـالإمدادات، فـإن النتائج ستكون كـارثة للمحاصريـن، وعندها فقـط سيكون ندمنـا قد جاء متـأخراً وندفع عقوبة عمليتنا الغبية.

«واضافة إلى ذلك فان أسوار القـدس، كما نسمع، عظيمة الدور، وعلينا أن نحاول حصارها بإحكام بقواتنا القليلة الآن، وعليه فان أعدادنا لن تكون كـافيـة للقيـام بـالحصـار أو حتـى حمايـة [١٣٣] أولئـك الـذيـن يحضرون الإمدادات من هجمات الأتراك، ولذلك فمن المؤكد بأنهم جميعا سيبادون إذا لم يجدوا من يمدهم».

(الفقرة التالية توضح ما سيلحق به إذا أقدم على الحصار)

«اضافة إلى ذلك فاننا جميعا (القادة والعامة) لا نعرف هذه المنطقة وطرقها وأوديتها، ولـو كنا على معـرفة بها بصـورة أفضل لكـان ممكنا التقـدم بأمـان وحتـى تحقيـق . . . . . النصر المرغـوب، ولكـن رأيـي هـو أن نطلـب النصيحة من مواطني الأرض (الفرنجة المحليون) الذين يتشوقون إلى استعادة أراضيهم وممتلكاتهم ونطلب منهم ان يؤكدوا لنـا ما يعتبرونه أفضل ما يمكن عمله، كذلك فإنني أعتقد أنه يجب استشارة الداوية والاسبتارية، وأن نأخذ برأيهم وحكمهم بالنسبة للإقدام على حصـار القدس أولاً أو بابل [القاهرة] أو بيروت أو دمشـق، وهكـذا لا يبقـى ا لجيـش منقسما في آرائه إلى أحـزاب نتيجة إختلافها».

وهكذا إتفق الجميع، بناء على توصية الملك، بأن يقسم عشرون رجلاً موثوقين [لدراسة الموضوع]، وعلى الجميع اتباع نصيحتهم دون معارضة. واختير لهذا الغرض خمسة من الداوية وخمسة من النبلاء الفرنسيين وخمسة من الإسبتارية وخمسة من أهل الشام (الفرنجة)، واجتمع هؤلاء الرجال، وبعد المداولة لبعض الوقت حول القضية المذكورة سابقاً، كان قرارهم الذي اتفقوا عليه أن أكثر الخطط قبولاً هو التقدم مباشرة لحصار [القاهرة] (ص ١٣٤).

وعارض الفرنسيون هذا الرأي لحظة سماعه، واجمعوا بأنهم لن يتحركوا إلى أي مكان الا لحصار القدس. وعندما عرف الملك عناد الفرنج وخروجهم عن الرأي المتفق عليه، علّق بقوله: «إذا وافق الفرنسيون على خطتنا وتقدموا [معنا] لحصار القاهرة طبقاً لقسمهم بالطاعة، فسأعطيهم أسطولي الراسي في عكا بكل تجهيزاته لحمل أثقالهم وحاجاتهم، وبذلك يستطيع الجيش أن يتقدم عن طريق الساحل في البر بثقة، أما بالنسبة لي فإنني سأقود، وعلى حسابي الخاص، ثمانمائة من الفرسان وألفين من أتباعهم . . . واذا احتاج أي كان إلى مساعدة من أموالي وما بحوزتي، فليكن متأكدا أنه سيزود بذلك طبقاً لحاجته، وإذا شك أحد بامكانية قيامي بذلك، فانني سأتقدم بجندي وحدهم ودون مساعدة من أحد (١٣٥).

(هنا يورد قصه اعتراض القافلة القادمة من مصر إلى صلاح الدين ص ١٣٥ - ١٣٦).

وبقي الجيش (بعد الاستيلاء على القافلة) عدة أيام . . . في حالة من الحزن والخيبة نتيجة عدم السماح لهم بالتقدم لزيارة كنيسة القيامة في القدس التي كانت تبعد عنهم مسافة أربعة أميال فقط . . . .

وعندما كان رجالنا يتحركون (من مواقعهم) كانوا يهاجمون من قبل الأتراك (١٤١) من جهة الجبال. وبالرغم من أن رجالنا كانوا يصدون الأتراك، فإنه قتل عدد من الذين لم يكن لديهم خيول جيدة . . .

ثم وصـل الجيش بعد ذلك إلى مكـان بين اللد (Saint George) والرملة حيث أمضوا الليل، وفي اليوم التالي تقـدموا في سيرهم بفرق منفصلة ووصلوا إلى حصن في منتصف الطـريق. وفي اليوم السادس مـن تموز، في هذا المكان هجر البعض الجيش . . . وساروا إلى يافا.

شروط صلح الرملة :

«بأن تهدم مدينة عسقلان، التي كانت دائماً مصدر ازعاج لحكومة صلاح الديـن وأن لا يعاد بنـاؤها لمدة لا تقـل عن ثـلاث سنوات ابتـداء من بـداية احتفالات عيـد الفصح القادم، ولكن في نهايـة هذه المدة فإن الـذي يسيطر عليها يستطيع إعادة تحصينها.

أن يسمح للنصـارى بالسكنـى في مدينـة يافـا دون أن يتعرضـوا للأذى، وكذلك في البلاد (الأرياف) القريبة منها على الساحل وفي الجبال.

أن يسـود السـلام بين المسيحيين والمسلمين، ويكـون لكـل منهما الحريـة بالذهاب والعودة كما يشاؤن، وأن يسمح للحاج بالوصول إلى كنيسة القيامة بدون دفـع رسوم أو أي ضرائب مهما كـانت، وحمل البضـائع لبيعها في كـل البلاد والقيام بالأعمال التجارية دون معارضة».

(وحلف الجانبان على شروط المعاهدة) ص ١٥٧

زيارة الفرنجة للقدس :

ثلاث مجموعات أو قوافل : الثانية كـان فيها المؤلـف، الثالثة كان يقودها أسقف سالزبوري.

«. . . . . أرسـل صلاح الـدين رجـاله لاستقبـال الأسقف بحفـاوة، ولإرشاده لزيارة ما يريد من الأماكن المقدسة . . . كما طلب (منه السلطان) أن يقيم في قصره، وان يـزود بكل ما يحتاج اليـه على حسابه، لكـن الأسقف

رفض قـائلاً : من المستحيل القيـام بذلك لأننـا مجرد حجاج» ، عندهـا أمر صلاح الدين خدمـه ببذل كل رعاية ممكنة للاسقف ومـن معه ، وبعث اليه بهدايا كثيرة ، كما سمح له فيما بعد برؤية صليب الصلبوت ، وسمح له بلقائه . . . وتحدثوا طويلاً . ص ١٦١ .

«. . . . ثـم طلب (أسقـف سالـزبـوري) أن يسمح لـراهبين لاتينيين وإثنين من المساعدين (Deacons) باقامة الخد مة الربانية (عند قبر المسيح) اضافة (للنصارى) السوريين ، كما طلب أيضاً السماح لعدد مماثل في (كنيسة المهد) في بيـت لحم وكنيسة الناصرة . . . . ووافق السلطـان على الطلـب ، وعين الأسقف قسيسين في كل واحدة من الأماكن المذكورة . ص ١٦٢ .

المدرسة الصلاحية

(ابن واصل . مفرج الكروب في اخبار بني ايوب . القاهرة المطبعة الاميرية ، ١٩٥٧ . ص ١٤١ - ١٤٢ ، ٢١ - ٢١٢ ، ٢٤٣ - ٢٤٤) .

«وفي هذه السنـة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م : ورد إلى والـدي - رحمه الله - كتاب من السلطان الملك المعظم - رحمه الله - يستدعيـه إلى خدمته على يد عفيف الدين ابن مراحل السلماني ، وكان متردداً في الرسائل بين الملك المعظم والملك الناصر صـاحب حماه ، فسافـرنا من حماه في أواخر شعبـان ، فوجدنـا منه - رحمه الله - اقبالاً عظيماً ، ولازم والدي الاجتماع به والحضور في خدمته ، وكان الملك المعظـم في أكثر الأوقـات يحاضر الفقهاء العلماء ويبـاحثهم في دقـائق العلـوم فطلب والـدي منه المقـام بالقـدس الشريف لينقطـع فيه للعبـادة ، وتوقف الملك المعظم في اجابته إلى ذلك ، وقال للقاضي نجم الدين خليل بن المصمـودي الحموي قـاضي العسكـر : قـل له يقيـم بـدمشـق لأوليه أحـد

المنصبين القضـاء أو الخطـابة بجـامـع دمشـق، فأبـى والـدي الا المضي إلى القدس ففـوض السلطان (الملـك المعظم) اليـه تدريـس المدرسة النـاصرية الصـلاحية، وهـي المدرسـة التي كـان فـوض صـلاح الد يـن - رحمه الله - تدريسها إلى القـاضي بهاء الدين بن شـداد، ووليها بعده جماعة أكـابر منهم الشيخ فخر الـدين بن عساكـر والشيخ تقي الديـن بن الصلاح رحمهما الله، فمضينا إلى القدس في أوائل سنة اثنتين وعشرين وستماية وأقمنا به».

مفرج الكروب، ج٤، ص ١٤١ - ١٤٢

ابن عساكر : أنظر ابن خلكان، **وفيات**، ج٣ ص ١٣٥

ابن الصلاح، المصدر ذاته، ص ٢٤٣ - ٢٤٥

من مآثر المعظم في القدس

«وكان ملوك هـذا البيت (الايوبي) كلهم شافعية، وانفـرد هو (المعظم) - رحمه الله - بالانتماء إلى مذهب ابي حنيفة رحمه الله. . . . .

وكـان شـديـد التعصب لمذهـب أبي حنيفـه - رحمه الله - عـزل خطيـب الاقصى وكـان شافعيـا وولي خطابة الاقصـى رجلاً حنفياً بغـداديا يقـال له شهاب الدين، كـان متميزا في الفقه ومدرسا بالمدرسـة الحنفية التي على باب الحرم الشريف المعروفة بالامجدية، وهي منسوبة إلى الامجد حسن شقيق الملك المعظم، وكـان مدفونـا بها، ثم نقل (بعـد ذلك) إلى مشهد جعفـر الطيار - رضي الله عنـه - بمؤتـة من أعمال الكـرك، وأبقـى الملك المعظـم بالصخـرة الامامة للشافعية، وأمر المؤذنين ألا يبلغوا في تكبير الصلوات بالحرم الشريف الا خلف الامـام الحنفي امـام الاقصى لا غير، وبلغـه مرة أن المؤذنين بلغـوا بالحرم خلف امام الصخرة الشافعي، فأنكر ذلك غاية الانكار.

ثم بنى بالحرم الشريف قبة ووقف عليها وقفا جليلا على أن يشتغل في تلك القبة بالقراءات السبع ، وشرط أن لا يصرف من وقفها شيء إلا للحنفية فقط . وولي تدريسها للشيخ شمس الدين بن رزين البعلبكي تلميذ تاج الدين الكندي ، وقرأت عليه في تلك القبة الايضاح لابن علي الفارسي ، وجودت عليه القرآن العظيم . . . . »

مفرج الكروب ، ج٤ ص ٢١١ - ٢١٢

تسليم القدس ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م

«ولما وقعت الهدنة ، بعث السلطان من نادى في القدس بخروج المسلمين وتسليمه إلى الفرنج ، فحكى لي والدي رحمه الله ، وكان لما وقعت هذه الوقعة بالقدس الشريف قد وصل اليها من مكة ، حرسها الله ، فانه كان جاور فيها السنة الماضية ، وكنت قد سافرت إلى دمشق في السنة الماضية وأقمت بدمشق ، قال :

لما نودي بالقدس بخروج المسلمين ، وتسليم القدس إلى الفرنجة ، وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل ، واستشنعوه منه ، اذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين - قدس الله روحه - لكن علم الملك الكامل رحمه الله أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره ، وأنه اذا قضى غرضه واستتبت الامور له ، كان متمكنا من تطهيره من الفرنجة واخراجهم منه .

وقال (السلطان الكامل) انا لم نسمح لهم الا بكنائس وأدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الاسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله».

مفرج الكروب، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

أسامة بن منقذ في القدس

أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى. (صورة نشر الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٨١) عن طبعة مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠، ص ١٧٢ - ١٧٣).

«. . . فكل من هو قريب عهد بالافرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين: فمن جفاء أخلاقهم، قبحهم الله، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس، دخلت المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة، فكنت اذا دخلت المسجدالأقصى وفيه الداوية، وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه، فدخلته يوما فكبرت ووقفت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق، وقال: هكذا صل، فتبادر اليه قوم من الداوية أخذوه وأخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد هجم عليّ ذلك بعينه، ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صل، فعاد الداوية دخلوا اليه وأخرجوه، واعتذروا اليّ، وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الأفرنج في هذه الايام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق، فقلت: حسبي من الصلاة، فخرجت، فكنت أعجب من ذلك الشيطان، وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة.

«ومضيت مـرة مع الامير معين الـدين (انـر) رحمه الله إلى القدس، فنـزلنا نابلس . . . » في سفارة إلى ملك بيت المقدس الفرنجي .

الاعتبار، ص ١٧٩

كتاب بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى «بردويل»*
معزياً له في أبيه ومهنئاً له بالملك من بعده

«أما بعد،

خص الله الملـك المعظم حـافظ بيـت المقدس بـالجد الصاعـد، والسعد الساعـد، والحظ الزائد، والتـوفيق الوارد؛ وهنـأه من ملك قـومه مـا ورثه، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه .

فإن كتـابنا صـادر اليه عند ورود الخبر بما سـاء قلوب الأصـادق، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق، بالملـك العادل الأعز الذي لقاه الله خير ما لقـى مثله، وبلـغ الأرض سعادتـه كما بلغـه محله؛ معـزٍ بما يجب فيه العـزاء ومتأسف لفقـده الذي عظمت به الأرزاء؛ الا أن الله قـد هون الحادث، بأن جعل ولده الوارث، وأنسى المصاب بـأن حفظ به النصاب، ووهبه النعمتين : الملك والشباب، فهينئاً لـه ما حاز، وسقياً لقبر والده الذي حـق له الفداء لو جاز.

ورسولنا الرئيـس العميد مختار الدين، أدام الله سلامته، قـائم عنا بالعزاء من لسانه، ووصف ما نالنا من الـوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقه جيرانه .

---

* الرسالة تشير إلى بلدوين الخامس الذي توج في أوائل سنة ١١٨٣م .

وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا، وودنا الذي هو ميراثه عن والده من ودادنا فليلق التحية بمثلها، وليأت الحسنة ليكون من أهلها، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه : مودة صافية، وعقيدة وافية، ومحبة ثبت عقدها في الحياة والوفاة، وسريرة حكمت في الدنيا بالموافاة، مع ما في الدين من المخالفات فليسترسل الينا استرسال الواثق الذي لا يخجل، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذي لا يحمل والده ما تحمل، والله يديم تعميره، ويحرس تأميره، ويقضى له بموافقة التوفيق، ويلهمه تصديق ظن الصديق».

هدم القدس ٦١٦هـ/ ١٢١٩م

(**تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية**، م٤ ج١، نشر انطون خاطر وازولد بورمستر، القاهرة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قسم النصوص والوثائق، ١٩٧٤، ص ٢٩)

«وهدم القدس . . . بعد أن أخلي من أهله، ولم يبق به سوى القيامة المقدسة، وبرج داود، ومسجد الصخرة، والجامع المعروف بالأقصى . وهدم بقية أسواره، ودوره، وفنادقه. ووقع على الناس بسبب هدمه خوف عظيم، وقلق للشام من أجله».

تسليم القدس ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م

(**تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية**، م٤ ج١، نشر أنطون خاطر وازولد بورمستر. القاهرة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، رقم ١٤، ١٩٧٤. ص ٥٢ - ٥٣).

«. . . ورسل الانبرور مترددة وهو على يافا، ورسل السلطان مترددة اليه أيضا . . .

وأشيع بأنّ السلطان، عز نصره، صالح الأنبرور على أن يعطيه [في الأصل : تعطيه] القدس الشريف، وبلاد من أعماله، وهي التي على الطريق من عكا اليه، وبيت لحم ولد الرملة، وما والى ذلك من القدس إلى عكا ويافا.

وكان [الأنبرور] طول هذه المدة قد عمر قيسارية ويافا، واستتب الأمر بينه وبين السلطان، خلد الله ملكه، وعبر الانبرور إلى بيت المقدس في اوائل الصوم الشريف من هذه السنة، وكان يوماً عظيماً، وتسلموا الصخرة.

ثم أقام الانبرور بالقدس يومين لا غير، وخرج منه إلى عكا، وبقي بها إلى أن فرغ العيد، واستخلف في البلاد من يثق به، وسافر في البحر إلى بلاده».

اخلاء الفرنجة للقدس

٦٣٦ - ٦٣٧هـ

(تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، م٤، ج٢، ص ٩٥ - ٩٦)

«. . . ثم ان الفرنجة لما انقضت [في الأصل : انفضت] أيام الهدنة، أخلوا القدس الشريف حتى لم يبق به سوى فارس واحد وسبعين راجلاً يعمروا في برج داود.

ثم ان السلطان جرّد زهاء الفي فارس في عدّة أمراء وسيرهم إلى غزة لحفظ البلاد. وكان الافرنج قد خرجوا إلى عسقلان ونزلوها وقصدوا عمارتها، فركبوا وتجمعوا وجاءوا إلى فربيا، فتواقعوا مع عسكر المسلمين الذي كان على غزة

فكسروهم من أول النهار إلى الظهر. ثم تحايا عسكر المسلمين على عادتهم وقد قتلوا من المسلمين جماعة وأسروا جماعة منهم أمراء ومقدمون، فتكافأت القبيلتان . . . .

(ويصف الحرب بين قوات المسلمين وقوات الفرنجة).

ونزل الملك الناصر صاحب الكرك إلى القدس بعد هذه الكسرة وتسلمه، وقتل من كان بقي فيه من الافرنج، وخطب فيه خطبة عظيمة على حكم القرآن».

تسليم القدس للفرنجة مرة أخرى : ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م

(تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ص ١٠٥، ١٠٧)

« . . . ووردت الأخبار بأن الافرنج قد خرجوا إلى نابلس والغور وجاءوا إلى غزة ونزلوها، واخذوا القدس الشريف، وشرعوا في عمارة عسقلان، وأن ذلك بموافقة الملك الصالح غازي صاحب دمشق عم السلطان، وأنه أعطاهم رهاينة [أي رهائن] على أنه موافقهم ومعاضدهم. وجرد السلطان أربعة آلاف فارس ليمضوا إلى غزة، وخرجوا وبرزوا إلى بلبيس . . . » (ص ١٠٥).

« . . . ثم إن رسل الافرنجة ترددت إلى مولانا السلطان في طلب الصلح على إبقاء البلاد التي أعطاهم الملك الناصر بن المعظم اياها بايديهم، وأن يتسلموا أسراهم الذي أخذوا في هذه الوقعة القريبة على أنهم يعيدوهم [كذا] أيضاً الأسرى المسلمين الذين عندهم.

وتردد الوزير كمال الدين بن الشيخ شيخ الشيوخ اليهم في هذا المعنى، وانبت الحال بينهم على ذلك، وحلفوا للسلطان وحلف السلطان لهم، وأخرج الكند [اي الكونت] الذي كان أسر والخيالة الذين كانوا معه، وخلع عليهم أجمعين، وشقوا القاهرة راكبين، وتوجهوا إلى بلادهم . . . ووردت الأخبار بأن قاضي نابلس تسلم الأسرى المسلمين، وأنه خلع أيضا عليهم وأحسن اليهم.

والبلاد التي رجع الفرنجة أخذوها، وهي : القدس الشريف، وبيت لحم، وعسقلان وأعمالها، وبيت جبريل وأعمالها، وعمل غزّة غير المدينة، وطبرية وأعمالها، ومجدليابا [في الأصل : مجدليانا] وأعمالها، وجبل عاملة وصفد وكوكب والطور، وتبنين وهونين، والشقيفان [في الأصل : الشقيقان]. وعلى الجملة جميع بلاد الساحل، لم يخرج عنهم سوى نابلس والخليل ومدينة غزة لا غير.

ويقال : أن الصلح إنما هو مع الغرباء* [الأصل : العرب] والاسبتارية [الأصل : الاسنارية] لا غير لأن الديوية لم يحلفوا».

الصلح سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م
بين السلطان الملك الكامل والإمبراطور فريدريك

(المكين جرجس بن العميد، **أخبار الأيوبيين**، نشر كلود كاهن، في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق (BEO)، مجلد ١٥ (السنوات ١٩٥٥ - ١٩٥٧)، ص ٢٩ - ٣٠ من المقدمة الفرنسية والنص العربي، وص ١٣٧ - ١٣٨ من المجلد).

* المقصود بالغرباء الإفرنج القادمين من أوروبا تمييزا لهم عن الإفرنج المقيمين في ساحل بلاد الشام.

٦٢٥هـ « . . . وبلغه [اي السلطان الذي كان آنذاك في نابلس] أنّ الأنبرور وصل إلى يافا في ميعاده، فعاد السلطان من نابلس إلى تل العجول ونزل عليها.

وترددت الرسل بين السلطان والأنبرور، وكان السفير بينهما فخر الدين ابن الشيخ، فلم يزل يتردد إلى الأنبرور تارة بمفرده، وتارة يأخذ معه الصلاح الإربلي، إلى أن تقرر الصلح :

ان يعطى الأنبرور البيت المقدس والقرى على طريقه من يافا إلى القدس ومدينة لد».

٦٢٦هـ : «وفيهاانتظم الصلح عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً أولها يوم الأحد الثاني والعشرين من ربيع الأول.

قال : وتسلم الأنبرور مدينة القدس ومدينة لد والأماكن التي على الطريق، وحضر الأئمة والمؤذنون الذين كانوا في الصخرة [في الأصل : الصخراء] والمسجد الأقصى إلى باب دهليز الملك الكامل، فأذنوا على باب الدهليز في غير وقت الأذان، فعسر ذلك على الملك الكامل، وأمر أن يؤخذ ما معهم من الستور والقناديل الفضة، وجميع الآلات، ويتوجهوا إلى حال سبيلهم حاشية». قال المؤرخ : إن الأنبرور طلب من السلطان تبنين واعمالها بحكم أن صاحبتها بنت الهنفري دخلت عليه وسألته فيها، فأنعم السلطان عليه بها ودخلت في نسخة المهادنة التي بينهما».

تسليم القدس ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م

(أبو بكر بن عبدالله ابن أيبك الدواداري . **الدر المطلوب في أخبار بني أيوب**، الجزء السابع من كنز الدرر وجامع الغرر. تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، منشورات المعهد الألماني بالقاهرة، ١٩٧٢ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣).

٦٢٦هـ «وفي شهر المحرم كانت المراسلة بين السلطان الملك الكامل وبين الأنبرور . . . . وفي شهر ربيع الأول تقرر الصلح بين السلطان الملك الكامل وبين الأنبرور ملك الفرنج، وتسلم القدس الشريف . . . وشرط أن يكون في المسجد الأقصى الخطيب والإمام والمؤذن، ويقام فيه الجمعة والصلوات الخمس في كل يوم . .

[وبعد وفاة الملك المعظم صاحب دمشق سنة ٦٢٤هـ، وملك مكانه ابنه الناصر داود، استدعى عمه الأشرف اليه خوفاً من الكامل سلطان مصر]

وكان الأمير عز الدين ايبك، أستادار [المعظم وجد المؤلف] - المعروف بصاحب صرخد - جدنا، قال للناصر داود . . . بطريق النصيحة : «داري عمك الكامل واستعطفه، ولا تبعث للأشرف . . . أنا أمضي إلى الكامل واصلح حالك معه! وحضر الأشرف، فوجد الكامل قد أعطى الأنبرور القدس، فشق عليه ذلك الأمر [الأصل : أمر] العظيم، / وعتب الملك الكامل في ذلك، فقال [الكامل] :

وما أحوجني إلى ذلك الا المعظم، فإنه أعطى الانبرور من نهر الأردن إلى البحر، والضياع من باب القدس إلى يافا، فاحتجت أنا أن أعطيه القدس أيضاً.

ووصلت الأخبار إلى سائر بلاد الإسلام أن الملك الكامل أعطى القدس للإفرنج، فقامت الدنيا على ساق واحد، وعظم ذلك على سائر المسلمين، وأقاموا المآتم . . .

وفيها دخل الأنبرور . . . إلى القدس الشريف، وجرى له فيها عجائب، منها أنه لما دخل الصخرة رأى قسيساً جالساً عند الصخرة عند القدم، يأخذ من الفرنجة القراطيس، فجاء اليه كأنه يطلب منه الدعاء، ثم لكمه فرماه إلى الأرض، وقال له : «يا خنزير، السلطان تصدق علينا بزيارة هذا المكان، وتفعلوا فيه هذه الأفاعيل القباح! إن عاد منكم أحد إلى هذا الفعل قتلته» .

البيليوغرافيا

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م). **الكامل في التاريخ**. بيروت، دار صادر، ١٩٧٩. ج ١٠ - ١١.
- ابن ايبك. **الدر المطلوب في اخبار بني ايوب** تحقيق سعيد عاشور. القاهرة، ١٩٧٢.

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، القاهرة، جمعية الاثار القبطية، ١٩٤٣.

- ابن تغرى بردي، جمال الدين يوسف (ت بعد ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة لا. ت. ج ٦.
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق احسان عباس. بيروت، دار صادر، ١٩٧١.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م). **سير أعلام النبلاء**، ج ٢٠، تحقيق شعيب الأرناوط. بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلو (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).

مرآة الزمان، م ١٣ من مخطوط اسطنبول أحمد الثالث رقم ٢٩٠٧.

مرآة الزمان: الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة نشر علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، ١٩٦٨؛ حيدر أباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ. ج ٨.

- أبو شامة، شهاب الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) **تراجم رجال القرنين السادس والسابع أو الذيل على الروضتين**، نشر محمد زاهد الكوثري، وعزت العطار، ط٢، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤.

- ابـن شـداد، بها الديـن يـوسـف بن رافـع (٦٣٢هــ/ ١٢٣٥م). **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤.

- ابن شـداد، عز الـدين محمـد بن علي الحلبـي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م). **الأعـلاق الخطيرة في ذكـر أمـراء الشـام والجزيـرة** : تـاريخ لبنـان والأردن وفلسطين، تحقيق سـامي الـدهان. دمشـق، المعهد الفـرنسي بدمشـق، ١٩٦٢.

- الصفدي، صلاح الد ين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م).
الوافي بالوفيات، تحقيق محمد يوسف نجم. بيروت. ١٩٨١ ج ٧.

- عبـد اللطيـف البغــدادي، مـوفـق عبـد اللطيـف بــن يـوسـف، (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م). **الإفادة والاعتبار**، نشر أحمد سبـانـو، دمشـق، دار قتيبة، ١٩٨٣.

- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. **أحكام القرآن**، ق ٤ ط ١ : تحقيق محمد علي البجاوي. القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٨.

- العليمي، مجير الـدين عبـد الرحمن بـن محمد (ت ٩٢٨هــ/ ١٥٢٢م). **الأنـس الجليل في تـاريـخ القدس والخليـل**، عمان، مكتبـة المحتسـب، ١٩٧٣.

- العماد الأصفهـاني، أبـو عبــد الله محمـد بــن محمـد بــن حـامــد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م). **الفتح القسي في الفتح القدسي**. نشر محمد صبح، القاهرة، لا . ت.

- ابن العميـد. **اخبار الايوبيين**. مجلة المعهـد الفرنسي بـدمشق. مجلـد ١٥ السنوات ١٩٥٧ - ١٩٥٧.

- الفارقـي، أحمد بن يوسـف بن علي بـن الأزرق (النصف الثاني مـن القرن السادس الهجري/ الثـاني عشر الميلادي). **تاريخ الفارقي**، ط ٢، تحقيـق

بدوي عبد اللطيف. بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م). **المختصر في أخبار البشر**، ج ٣، بيروت، لا . ت (مصورة عن طبعة المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٥هـ).
- أبن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جزء نشرة أيمن فؤاد السيّد. القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية.
دولة المماليك الأولى، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي. بيروت، المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م). **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق هـ. ف. امدروز، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩، وبعنوان: **تاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار حسان، ١٩٨٣.
- المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م). **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق م. دي خوية، بريل، ليدن، ١٩٠٦.
- المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ٢ - ٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة احياء التراث الاسلامي، ١٩٧١ - ١٩٧٣.
- ابن ميسر، محمد بن علي (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م). **المنتقى من أخبار مصر**، تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨١.
- ناصر خسرو. **سفرنامة**، ترجمة يحيى الخشاب، ط ٣، بيروت، دار

الكتاب العربي، ١٩٨٣ .

- الهروي، تقي الـدين علي بن أبي بكـر (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م). **الاشارات إلى معرفة الـزيارات**، تحقيـق جانين سـورديل. دمشـق، المعهد الفـرنسي بدمشق، ١٩٥٣ .

- ابن واصـل، جمال الدين محمـد بن سـالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م). **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**. ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة، ادارة احياء التراث، المطبعـة الأميرية، ١٩٥٧، ج٤ تحقيـق حسنين محمد ربيع. القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٢ .

- يحيـى بن سعيـد الانطـاكي، (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م). **تاريخ يحيـى بن سعيد**، نشر مـع **التـاريخ المجمـوع على التحقيـق والتدقيـق** لسعيد بـن البطـريـق، تحقيق لـويـس شيخـو، بيروت، مطبعة الآبـاء اليسـوعيين، ١٩٠٩ .

- ابشرلي، محمـد (نـاشر). **أوقـاف المسلمين وأملاكهـم في فلسطين**، مركز الأبحاث والتاريخ والفنون الاسلامية باستنبول، ١٩٨٢ .

- الحياري، مصطفى. **الامارة الطائيـة في بلاد الشام**، عمان، وزارة الثقافـة والشباب، ١٩٧٧ .

- عباس، احسان. «رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل». **الأبحاث**، ج ٢١ قسم ١ (آذار، ١٩٦٨).

- العسلي، كامل (ناشر). **وثائق مقدسية تاريخية**، ج ١ . عمان، ١٩٨٣ .

- هنتز، فـالتر. **المكاييل والأوزان الاسلامية**. ترجمة كـامل العسلي. عمان، ١٩٧٠ .

Anonymous Pilgrims in *PPTS*, Vol. IV New York, AMS Press, 1971. Reprint of 1984 ed.

Asaad, Sadiq. *The Reign of al-Hakim Bi Amr Allah*, 996-1021, Beirut, 1974.

Burgoyne, M.H. *Mamluk Jerusalem*, London, World of Islam Trust, 1987.

———. "A recently discovered Marwanid inscription in Jerusalem" *Levant*, Vol. XIV, 1982.

———, and Amal Abul Hajj. "Twenty four medieval Arabic inscriptions from Jerusalem", *Levant*, Vol. XI, 1979.

Cahen, Claude. "Artuk", EI, second edition.

———. "Atsiz b. Awaq", *EI*, second edition.

Canard, M. "Djarrahids", *EI*, second edition.

Daniel, The Abbot. *The Pilgrim of the Russian Abbot Daniel in the* Holy Land, 1106-1107 A.D. trans. C.W. Wilson, New York, AMS Press, 1971. Reprint of 1895 ed. in *PPTS*, Vol. 4.

Fenwich, K. ed. *The Third Crusade*, ed. with an introduction, London, 1958.

Finucane, R. *Soldiers of the Faith*, J.M. Dent and Sons Ltd. London, Melbourne, 1983.

Fulcher of Chartres. *A History of the Expedition to Jerusalem* 1095-1127, trans. Harold S. Fink. New York, University of Tennessee

Press, Morton and Company, 1967.
Hiyari, M.A. *The Arab Tribal Emirates of the Fertile Crescent,* unpublished Ph.D. thesis, University of London, 1975.

Howarth, S. *The Knights Templers,* London, Collins, 1982.

John of Wurzburg. *Description of Holy Land,* trans. Aubrey Stewart Vol. V, New York, reprint AMS Press, 1971.

Join-Lambert, M. *Jerusalem,* trans. Charlotte Haldane, London, Elek Books, 1966.

La Monte, I. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem,* New York, 1970. Reprint of 1932 ed.

Mayer, Hans E. *The Crusades,* trans. John Gellingham, Oxford University Press, 1972.

Nasir -i- Khisru. *Diary of a Journey through Syria and Palestine,* trans. by Guy le Strange, *PPTS*, Vol. 4, London, 1893. AMS reprint, New York, 1971.

Peters, E. ed. *The First Crusade* : the Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 1971.

———: *Jerusalem: The Holy City in the Eyes of the Chronicles.* Princeton, Princeton University Press, 1985.

Prawer, J. *The Latin Kingdom of Jerusalem,* London, Wieden-field and Nicolson, 1972.

———: "Minorities in the Crusader states" in *A History of the Cru-*

sades, Vol. V.

———. "The Patriarchs' Lordship in Jerusalem", in *Crusader Institutions,* Oxford University Press 1980.

———. "Social Classes in the Latin Kingdom" in *A History of the Crusades,* Vol. 4.

———. "The origin of the Court of Burgesses" in *Crusader Institutions.*

Richard, J. *The Latin Kingdom of Jerusalem,* trans. Janet Shirley, Amsterdam, North-Holland Publishing Company, 1979.

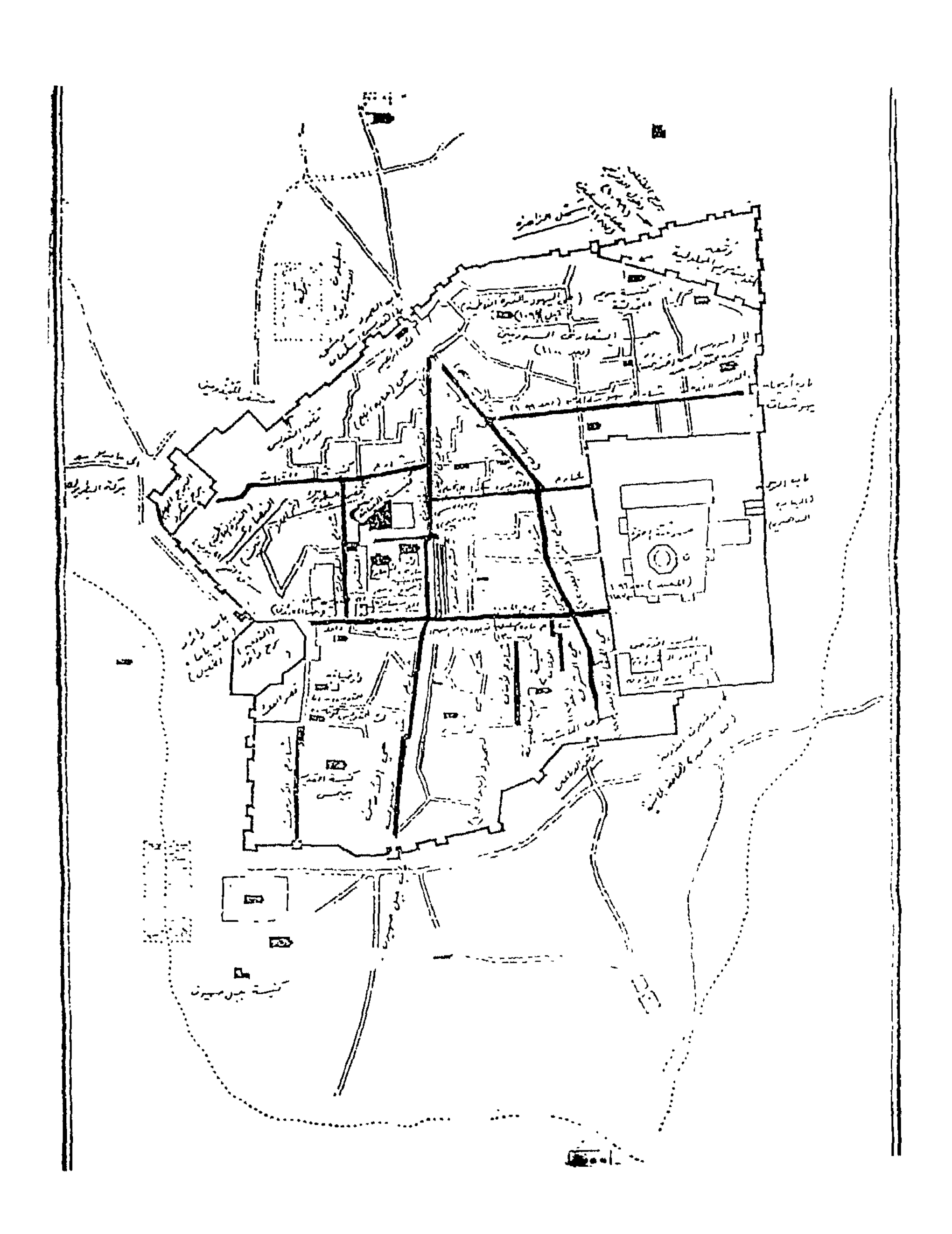
Riley-Smith, J. *The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus,* C. 1050-1310, London, Macmillan, St. Martin Press, 1967.

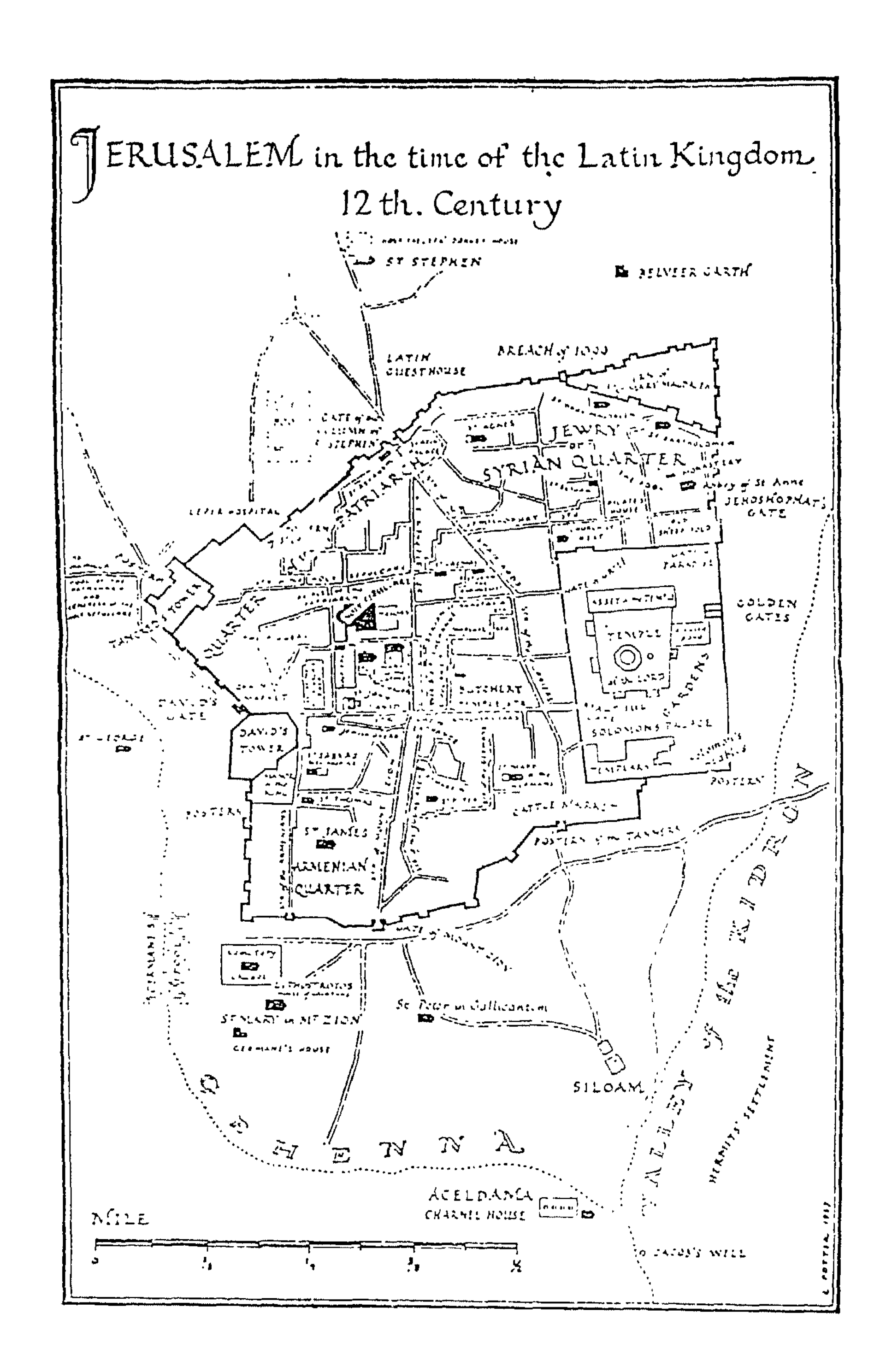
Runciman, S. *A History of the Crusades,* Vol. I : the first Crusade and the foundation of the Kingdom of Jerusalem, a Harper Tourchback, 1964.

Russel, Josiah B. "The Population of the Crusader States" in *A History of the Crusades,* Vol. 5 : The impact of the Crusades on the Near East, ed. Norman P. Zacour and Harry W. Hazard, Madison, University of Wisconsin Press 1985.

Tibawi, A. *The Pious Foundations in Jerusalem,* London, the Islamic Cultural Centre, 1978.

William of Tyre. *A history of deeds done beyond the sea,* 2 Vol. trans. Emily A Babcock and A. C. Kery. New York, Octagon Books, 1976.




JERUSALEM in the time of the Latin Kingdom
12 th. Century
ST STEPHEN
BELVEER CARTH
BREACH of 1099
LATIN GUESTHOUSE
JEWRY
SYRIAN QUARTER
PATRIARCH
QUARTER
Abbey of St Anne
JEHOSHOPHAT'S GATE
GOLDEN GATES
TEMPLE
SOLOMONS PALACE
DAVID'S GATE
DAVID'S TOWER
TANNERS TOWER
BUTCHERY
CATTLE MARKET
POSTERN
St JAMES
ARMENIAN QUARTER
St Peter in Gallicantu
St MARY in Mt ZION
SILOAM
GEHENNA
ACELDAMA
CHARNEL HOUSE
MILE
JACOB'S WELL

الفهـــرس

– ت –

- هـ -

- و -

- ي -

مصطفى الحياري

أستاذ تاريخ العرب والمسلمين في العصور الوسطى - الجامعة الأردنية .

حامل شهادة بكالوريوس في التاريخ - الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٦٠ ؛ وماجستير في التربية من كلية المعلمين - جامعة كولومبيا في نيويورك ١٩٦٤ ؛ وماجستير في التاريخ - الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٦٩ ؛ ودكتوراة في التاريخ - جامعة لندن ١٩٧٥ .

مؤلف الكتب التالية : الامارة الطائية ؛ صلاح الدين : القائد وعصره ؛ السياسة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر وكذلك الدواوين (دراسة وتحقيق) ؛ البرق الشامي (ج ٣ : تحقيق) .